الخروج من الحرملك

على هامش التجربة النسوية المصرية

أشرف مصطفى توفيق

الكتاب: الخروج من الحرملك.. على هامش التجربة النسوية المصرية.

الكاتب: أشرف مصطفى توفيق

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

توفيق ، أشرف مصطفى

الخروج من الحرملك.. على هامش التجربة النسوية المصرية./ أشرف مصطفى توفيق

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٣٥ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٦ – ٦٣١ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٥٣٤١ / ٢٠٢٢

الخروج من الحرملك

على هامش التجربة النسوية المصرية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

على سبيل المقدمة

عملتُ مع الكاتب الصحفي حسن عامر الذي كان مديرا لمكتب صحيفة "الأنباء" الكويتية في القاهرة، تبنّاني الرجل وبعين فاحصة كان يطلب مني الأعمال التي تجمع بين "البحث والصحافة"، فهو يريد أن ندخل الأرشيف ونعاود البحث والتنقيب عن القديم في الدسك الصحفي، ثم نبعثه خلقاً آخر برؤية جديدة الخبر الطازج كان موهبته، فهو لا ينتظر الخبر بل يصنعه! وهو تأتيه الفكرة ويقول: " دوروا وقوللي هل هذه الفكرة حقيقية، أو أضغاث أحلام؟!".

وفجأة استدعاني حسن عامر، وقال خذ هذه الأوراق إنها أرشيف "أمينة السعيد" أدرسه وأذهب لتذكرها به، فقط ذكّرها به وستسمع العجب! وبعد يومين جاءني تليفون منه، عدّل الفكرة ووضع "قضية المرأة" كعنوان فوقها، قال أدير جدلاً بين أمينة السعيد، وسهير القلماوي حولها..سلام! أما سبب التعديل أنه قرأ هذه العبارة لمصطفى أمين: انقسمت الجامعة إلى حزبين، حزب ينتصر للآنسة سهير القلماوي الطالبة بالسنة الثالثة بكلية الآداب، وتلميذه طه حسين المفضلة ،وحزب ينتصر للآنسة أمينة السعيد الطالبة بالسنة الأولى بقسم اللغة الإنجليزية.. وتركني الأستاذ حسن عامر لحيرتي!

وجاءت البداية هكذا صدر كتابًا استفزازيًا من عنوانه ومن ورقته الأولى للأخيرة، الكتاب يدين الحركة النسائية المصرية، وعنوانه "الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار"، وقال لي رئيس التحرير حسن عامر اعمله عرض، وكان الأستاذ مهتم بتقديم مادة الكتب ذاتها بملاحق الجريدة سواء نقدًا أو عرضًا، ويُقال أنه ورث ذلك الاهتمام من مدرسة الأستاذ "محسن مُحَّد" في جورنال الجمهورية.

ولخصته ونشرناه في الملحق الأدبي: يقول فيه المؤلف: "كانت الدعوة إلى هتك الحجاب، وتقييد الطلاق ووقف تعدد الزوجات، هي إحدى النغمات التي عنى بها المستعمر، وراح ينشرها لأضعاف المسلمين والقضاء على سر تفوقهم، ثم استشهد بما قاله "طلعت حرب" إن رفع الحجاب، والاختلاط كلاهما أمنية تتمناها أوروبا من قديم لغاية في النفس ضد الإسلام، وإنه لذلك لم يكن عجبًا أن تكون الحركة النسائية في مصر. وهي تهدف في جوهرها إلى تغيير النظام الاجتماعي للأسرة – المسلمة – وثيقة الصلة بهذا الاستعمار حتى أن "درية شفيق" أسست حزب "بنت النيل"، ومجلتها الشهيرة التي بنفس الاسم، من أموال السفارة البريطانية في مصر، بل أنه يتهم قاسم أمين من أنه تلقى تعليمات في صالون الأميرة نازلي فاضل، الوثيقة الصلة باللورد كرومر المعتمد البريطاني بوضع كتابه "تحرير المرأة"، وهو في نفس الوقت يعتبر صالونها ضد الآداب والتقاليد الإسلامية، حيثُ سمح بالاختلاط فيه والسهر حتى ساعات متأخرة من الليل! ثم أنه يدين الاتحاد النسائي المصري، الذي كونته هدى شعراوي ١٩٢٤ لأنها ابنة "مُحَّد سلطان باشا"، الذي كان يرافق جيش الاحتلال في زحفه على العاصمة أيام ثورة عرابي، وبعد فشل هذه

الثورة، بل أنها وضعت فرية غريبة غربية، حينما سمحت لنفسها أن تحمل اسم زوجها شعراوي باشا كالغربيين دون أبيها، وأنه يعتقد أن هذا مقصود حتى لا يتذكر أحد مأساة أبيها ضد عرابي، وأنه لا يعرف سر الاهتمام الإعلامي الأجنبي وقتها بهذا الاتحاد المحلي الصغير، حيث "حضرت د/ ديدت زعيمة الاتحاد النسائي وأعلنت مناصرة الحركة النسائية المصرية!"، ثم بدأت نغمات قاسم أمين تظهر جلية عام ١٩٤٩حين كونت د/ درية شفيق حزبًا نسائيًا، وتطرف حزبها حتى وصل إلى المطالبة بإلغاء تعدد الزوجات، وإدخال القوانين الأوروبية الخاصة في الطلاق لمصر، وخاصةً القوانين الفرنسية بحجة أن القانون المصري يأخذ في معظمه بالتشريع الفرنسي! وأن الغرب يعرف أهمية مصر بدليل أنه بعد ظهور تنظيم هدى شعراوي المصري، وتنظيمها النسائي ظهر الاتحاد النسائي العربي يحمل مبادئ قاسم أمين، وينقل نقلًا عن الاتحاد النسائي المصري !

وبهذا الكتاب الساخن ذهبت لدار الهلال، وطالبت أمينة السعيد أن ترد وقد انفعلت بشدة، وقالت: هذا الكاتب مكانه مستشفى المجانين، لأنه يهذي بكلام لا يصدقه عاقل، وليس لديه أقل معرفة بتاريخنا – فأنا عاصرت د. درية شفيق"[١]" وأعرف أخلاقها ومبادئها، وهي لا يمكن أن تقبل معونة من أي

---

[١] درية شفيق أعطت حياتها لقضية المرأة وأصدرت مجلة (بنت النيل) و (المرأة الجديدة)، وحدث في سنة ١٩٥٤ أن اعتصمت في نقابة الصحفية، وأضربت عن الطعام مطالبة ضباط الثورة (بحق المرأة في الانتخاب)، وفوجئت السلطات المصرية في ٦ فبراير ١٩٥٧ بـ درية شفيق تدخل السفارة الهندية بالزمالك، وتعلن الاعتصام والإضراب عن الطعام حتى الموت وتصدر بيانًا، ولم يغفر لها عبد الناصر ذلك واتهمتها مراكز القوة بالجنون، ولولا تدخل (نهرو) الذي طلب السماح لها بالذهاب إلى منزلها وترك السفارة دون القبض عليها، وتم تحديد إقامتها

جهة أجنبية وخاصة إنجلترا أو أمريكا، كما يقول هذا الكتاب لسبب إنها لم تكن تجيد الإنجليزية؛ لأن ثقافتها فرنسية حيث قضت سنوات طويلة في جامعة السوربون. ونالت شهادة الدكتوراه من هناك، ثم إنها لم تكن جاهلة بالإسلام أو المرأة في الإسلام فرسالتها الفرنسية موضوعها "المرأة في الإسلام"، وقد أثبتت أن حقوق المرأة في الإسلام سابقة وأضعاف حقوقها في أي دين آخر، بل يكفي د/ درية شفيق إنها عام **١٩٥٤** كانت واحدة من أهم عشر سيدات في العالم.

قلت لها : ولكن دكتوراه السوربون عن الإسلام ليست حجةً علينا، إنها من أشرف أساتذة مستشرقون، وبخاصة أن درية شفيق تحمل شهادة في الآدب الفرنسية " الليسانس من السوربون " بباريس، ولا أحد يعرف لماذا اختارت هذه الرسالة، بل إن لديها مغالطات عن المرأة المسلمة بدليل طلاقها من الصحفي الكبير أحمد الصاوي مُحَمَّد، حينما رفضت قوامته عليهما في الخروج والدخول، حتى ضاق ذرعًا بها وطلقها، إنها لم تكن تطالب بحقوق المرأة في الإسلام، ولكن تطالب بحقوقها في فرنسا، قالت: هل تريد من المرأة بعد أن تتعلم وتحصل على الدكتوراه، أن تجلس لتعد العجة لسي السيد، إذا كانت القوامة للرجال فإنها لها شروطها، ثم إن العمل للمرأة لا ينكره الإسلام،

في شقتها بالزمالك وضغط على زوجها الثاني د. نور الدين رجائي فانفصلا، وتركت (درية) وحيدة .. حتى حينما تغيرت الدنيا ومنحت المرأة حق الانتخاب، ودخلت نائبات مجلس الأمة والشعب (البرلمان) وعينت وزيرة وأكثر نسى الناس أول من طالب بذلك، وظلت درية شفيق شبه مسجونة في شقتها بالدور السادس بعمارة وديع سعد بالزمالك، لا تزور أحد ولا يزورها أحد وكتبت (١٦ كتابًا) في عزلتها لم يكشف أحد عنها شيء! وفي **٢٠** سبتمبر **١٩٧٥** لم يعرف أحد كيف ماتت وجدوا جثتها تحت شرفتها، وقد سقطت من الطابق السادس.

إننا بحاجة أن يتحرر الرجل وليس المرأة، ولأن "قضية الصاوي ودرية شفيق " لا تزال تعيش بيننا.. أنت نفسك تكمل في نفس الطريق.

قلت: كيف؟!

قالت: لقد عرف الصاوي.. درية شفيق وهي "ستار" ومشهورة، وصاحبة حزب ورضا عن ذلك وتزوجها عليه، وبه، ولم يرى فيها عيب أو فضيحة، ولكنه على طريقة سي السيد طلقها! المفزع أنني أجد هذه الأفكار الظلامية تعشش في رؤوس عدد لا يحصى من نساء الجيل الجديد، تقول سأدرس وأقعد في البيت بعد الزواج! هذه الأفكار الرجعية من الرده الدينية في الاجتهادات، التي بلانا بها زمن التطرف والتيارات الدينية.

أما إذا كانت الأميرة "نازلي فاضل" استطاعت أن تستقطب "قاسم أمين" و "الشيخ مُحَّد عبده"، وكل عظماء ومفكري مصر، بل وتخرجهم عن الملة كما يقول هذا المجنون صاحب الكتاب فدعني أرفع لها قبعتي!

وإذا كان الكتاب الساخن قد أغضب أمينة السعيد؛ فانفعلت معه وخرجت أعصابها وارتفعت نبرات صوتها حادة متحدية، فإني استطعت أن أعيد لها ابتسامتها بالكلام عن الأدب، قلتُ لأمينة السعيد: الذين يحبون الأدب من أمثالي يشعرون بالألم؛ لأنك أخلصت للصحافة على حساب الأدب، وبخاصة أن روايتك الوحيدة "الجامحة" ومن عنوانها كانت بداية الأدب الروائي النسائي!

قالت: أصدرت رواية "الجامحة" في ١٩٤٦، وكنت وقتها أسير على مقولة "أميرة" بطلة الرواية:" أمّا أنا فقد رسمت مستقبلي، ولن أغير منه خطًا".

وقد حوّل أستاذي مصطفى أمين نشاطي الأدبي للصحافة، وتنبأ أنني سأكون صحفية كبيرة، وبدأت الكتابة بدون اسم، وكتبت عن المرأة في أول موضوع لي من خلال "حمام سباحة الحريم في فندق سان ستيفانو برمل الإسكندرية"، وفوجئت بأن أسرار الدولة على لسان السيدات في الحمام، وبخاصة أنه كان فيهن زوجات وزراء وكانوا لا يعومون، وإنما هناك حبل يتعلقن به وهات يا رغي! وأحدث الموضوع ضجة في الدولة والتهمتني الصحافة للأبد، حتى أني لم أجد وقتًا لأكتب سيرتي الذاتية، كما طالبتني بذلك"لطيفة الزيات"، ولكن عيني لم تغب عن كتابات المرأة الأدبية.

.. واستمر الحوار، معي، ومعهما، بطريقة "حسن عامر".

قالت أمينة السعيد :الرئيس عبد الناصر لم يعارض أن أصبح عضو مجلس إدارة دار الهلال، وأذكر عندما أصدر وزير العدل في الستينات قانونًا خاصًا بالمرأة "الناشز"، وضرورة وضعها في بيت الطاعة إن دفعت من جيبي مبلغًا استأجرت به عدد من" الأوتوبيسات"، و كان معي حوالي ٢٠٠٠ سيدة وذهبنا إلى مجلس الأمة وقتها في مظاهرة سلميّة، وكان الرئيس الراحل رحمه الله أنور السادات هو رئيس المجلس، وعندما أبلغوه بالمظاهرة طلب حضور قائدة المسيرة فأخذوني له، ودخلت عليه فقال لي"إنتِ مين يا شاطرة"، فقلت له :أمينة السعيد الصحفية بالمصوّر، وحضرت ومعي النساء لنحتج على قانون " بيت الطاعة "، فقال لي"ماذا ستفعلن لو تم إلغاء القانون ؟" قلت له: سنهتف لكم من قلوبنا، ونعرف أنكم أحرارًا لا تضنون بالحرية على المرأة، فقال:"وماذا لو تم إقرار القانون"، قلت له: اطلعوا لنا بره وشوفوا هنعمل فيكم إيه! وضحك السادات ولم يغضب، وقال: أعدك بأننا سوف

نعيد النظر في القانون، وقد كان وتم إلغاؤه بالفعل. وفي الثمانينات عيّني رئيسة لمجلس إدارة دار الهلال، فكنت أول سيدة بذلك القرار ترأس مجلس إدارة مؤسسة صحفية كبيرة. وقبلها أول رئيسة تحرير لمجلة "حواء"، إلا أن خلافًا وقع لا أعرف سببه، كنت ضمن رؤساء مجالس الصحف في طائرة الرئيس المتجهة إلى أمريكا، وجلس يتحدث عن "معاهدة كامب ديفيد "، وقال: أن لديه معلومات موثوق بها أن السعودية ستوافق على المعاهدة، ولكني قلت له: إن معلوماتي تؤكد أن السعودية سترفض المعاهدة، وثار الرئيس ثورة عارمة وشديدة أخرجتني عن وقاري، وقالت للرئيس: لا تصدق حملة المباخر! وغضب عليّ وألقاني من رئاسة تحرير المصوّر ومجلس إدارة الهلال، وصدر قانون بإحالة الصحفيين للمعاش في" سن الستين"، و اعتقد إني المقصودة بالقرار و طبق عليّ.

ولأن الأستاذ قال: أدير جدلًا بين أمينة السعيد، وسهير القلماوي. فقد ذهبت لها وبخاصة أن هناك بينها وبين أبي صلة قرابة من بعيد، حتى أن مدافنّا كانت واحدة، وسبحان من له الدوام.

ولم ينتاب سهير القلماوي، شيئًا من كتاب "الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار" وعلقت بشكل غير مباشر بقولها: المؤسف أن عشرات الكتب من هذا النوع تزحم أرفف مكتباتنا وتباع على الأرصفة، ليست في قضية المرأة وحدها بل في الدين والسياسة، وهي كلها مليئة بالافتراءات وإذا منع كتاب منها قامت الدنيا ولم تقعد، مع أنه ليس كتابًا وإنما مرض اجتماعي، وقد قلتُ أكثر من مرة إن الهدف هو " تأسيس عقل المرأة وليس تذكير هذا العقل".

بمعنى أن أجعلها مؤمنة بوطنها، وأن تكون قضيتها كالرجل قضية هذا المجتمع كله بلا تجزئة، أما الكثيرات فلا يزلن على سياسة تذكير عقل المرأة؛ أي جعل قضيتها خاصة ومتعلقة بالرجل وسائره وراء كل ما يفعله ويريده. إنها قضية هامة ولكنها واحدة من قضايا متعددة في مجتمعنا، ولا يحق أن أعزلها عن القضايا الأخرى فهناك قضية الفقر،والتخلف و... وبطريقة الفصل، والتجزئة "على الفقراء أن يجعلوا قضيتهم مع الأغنياء هي المطالبة بأكل الكافيار"، والحديث عن قضية المرأة فقط يهمش كل القضايا الأخرى وهذا تقليد للغرب، والحقيقة أنه لا توجد قضية للمرأة في الشرق، وقد منحها الإسلام الكثير "حق الملكية والاسم والميراث والذمة المالية المنفصلة ونظم لها العلاقة مع الرجل"، "هي لها دور ورسالة – وهو له دور ورسالة"، وهما يتكاملان ولا يتصارعان إن هذا واضح حتى في الطلاق، فالطلاق في الغرب صراع لأن هناك ذهاب للأبد، يقتسمان كل شيء أما عندنا فيبقى على الزوج واجب النفقة، وواجب الرعاية للأولاد؛ لأنه ذهاب ولكنه ليس للأبد !

قلت لها: ولكنك رغم ذلك توليت رئاسة اتحاد المرأة العربية لفترة طويلة، وكما يقول كتاب"الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار"، إن هذا الاتحاد صورة لما أنشأته هدى شعراوي، وإنه تكريس لكتاب قاسم أمين "تحرير المرأة" بل هو الشكل المعاصر للنسوية الغربية؟!

قالت: نعم توليت هذا المنصب منذ ٥٦ وحتى توقيع اتفاقية كامب ديفيد سنة ٧٩ وعلقت عضوية مصر فيه، فكان لابدّ أن أتركه ولم يكن يضم إلا ١٦ دولة عربية فقط، ولم تكن لنا أهداف ولا خطوات "إلا تقارب البلدان العربية عن طريق المرأة" لا أفكار قاسم أمين ولا هدى شعراوي.

قلتُ لها: عملت مع هدى شعراوي وتوليت رئاسة تحرير مجلة "المصرية" وهي مجلة الاتحاد النسائي المصري، فكيف تكوني رئيسة لمجلة هذا الاتحاد، ولا تؤمني بقضية المرأة الخاصة؟!

قالت: مع الأسف بعض كتّاب التاريخ يذكرون ذلك، والحقيقة إني رفضت رئاسة تحرير هذه المجلة، ولم أتولَّ هذا المنصب؛ فالسيدة "هدى شعراوي" طلبت ذلك، ولكنني رفضت لعدة أسباب أهمها أن المجلة كانت هي التي تصدرها، ومعنى ذلك أنني أعمل لديها، وأنا لا أعمل لدى أفراد إطلاقًا، صحيح أن المجلة كانت تصدر عن الاتحاد النسائي، ولكن هذا الاتحاد يتبع السيدة هدى شعراوي، هي ومجموعة معها.. وهي التي أسسته وتولته.. وتنفق عليه.

لقد اقتربت وأدركت بأنه اتحاد "هدى شعراوي" وليس اتحاد المرأة!

قلت لسهير القلماوي: مجموعتك القصصية "حكايات جدتي" يؤرخ بها للقصة القصيرة النسائية فماذا بعد؟!

قالت: نشرت المجموعة القصصية عام **١٩٣٥** وذلك بعد تخرجي مباشرة وقبل رسالة الماجستير، حيث تسرد الجدة ذكرياتها على الحفيدة، وبذلك تنحصر الحكايات بين الثنائي الراوي والمستمع، وتركز الذاكرة التاريخية في حكايات جدتي على حياة النساء، اللواتي بقين قابعات في منازلهن في أوقات الحرب. والأمر يقترب جدًا مما فعلته بعد ذلك، وتخصصت فيه أدب "ألف ليلة وليلة"، ومثلما كانت الجدة تسلي الحفيدة، "فألف ليلة" في حقيقتها أكثر من "**٢٠٠** كتاب" تروي قصص كانت تروى لتسلية الملوك والحكام، وعلى ذلك فليس فيها الخصائص الشعبية مثل أبو زيد الهلالي، فهي لم تكن ولم

يعرف إنها كانت تروى على ربابة. بل أؤكد أن صورة "شهرزاد الجنسية مقحمة على النص العربي"، ومع الأسف الذين كتبوا عنها، ومنهم توفيق الحكيم أكدوا هذا المفهوم المغلوط، فشهريار استبقى شهرزاد ليس لأنها جميلة ولا للجنس، وإنما لغرامه بالحكايات الغريبة لشهرزاد. ولم أستمر في الكتابة لظروف العمل العلمي والأكاديمي؛ ولأن كتابات جيلي توقفن عند مشكلة اضطهاد الرجل للمرأة.

قلت: هل لك حكاية مع حكام مصر المحروسة؟

قالت سهير القلماوي: عيّني الرئيس أنور السادات مرتين في البرلمان مرة وهو اسمه مجلس الأمة ومرة واسمه مجلس الشعب، وليس بذلك علاقة بين السيدة جيهان وعلاقتى بها: " فجيهان شخصية نسائية هامة ويمكن أن يؤرخ بها لنجاحات كثيرة للمرأة في مصر، ولقد قلتُ لها حينما تشاورت معي في أمر تعديل قوانين الأحوال الشخصية بأني لست متخصصة، ولكني أعتقد أنه يجب ألا يكون الطلاق سهلًا، فليس كل خلاف يمكن أن يجعل أسرة كاملة تتأرجح لكلمة، وأننا علينا أن نعمق أنه أبغض الحلال عند الله، وقد كانت رؤيتها في تعديل القوانين لصالح الأسرة والطفل. وتم التعديل عن طريق رجال الدين ولم يكن به تجاوز، وإنما نقل من مذهب لمذهب، وقد قيل وقتها من الفقهاء أن المعايير الشرعية تجعل الطلاق لا يقع إلا خلال ثلاث سنوات، وليس فوري وخاصة إذا ما كان هناك حكم من أهله وحكم من أهلها. وحينما سكتت ذكّرتها بأنها أستاذتها والمشرفة على رسالتها، بل إني لمحت من بعيد إلى كتاب صدر لحسن عزت الضابط الثائر صديق السادات، والمتزوج

من أحدى قريبات"جيهان السادات" [٢].

وقالت: الرسالة موجودة في الجامعة ويمكن الرجوع إليها، ثم أن مناقشتها كانت علانية وفي التليفزيون، ولا يمكن التضحية بقواعد وأصول الجامعة تحت أي ظرف من الظروف، ثم إن هناك من هنّ أقل في الشخصية والاستعداد والبحث، وحصلنّ على الدكتوراه في الجامعات. فالدكتورة اعترف بأن الطالب يعرف طريقة البحث العلمي وكيفية الإلمام بموضوعية، وجيهان تدرسُ الآن في جامعات أمريكا ،فلم نجاملها بل هي التي رفعت رأسنا، وقد ظلت علاقتي بها حميمة طوال الوقت حتى في عز غضب الرئيس السادات عليّ، وكانت تزورني في المنزل وأهدتني كتابها "سيدة من مصر"، واعترف بأنها قدمت للمرأة المصرية الكثير، فقد عدلت قانون الأحوال الشخصية، واستطاعت أن تحصل على ٣٠ مقعد للمرأة في البرلمان المصري، ولكن فور وقوع زوجها انقلبوا عليها وأهانوها وشنعوا عليها، حتى اتهموها بالزواج مرة آخرى!

وهكذا ارتبطتُ خلال أيامي بالصحافة بقضية المرأة، سياسيًا وأدبيًا وإجتماعيًا، وجاء عن هذا الارتباط كتابي هذا وكتاب آخر هو "اعترافات نساء أديبات".

أشرف توفيق

---

[٢] الكتاب هو " العمالقة والأقزام السبعة "، وقال فيه إنها حصلت على أسرع ماجستير عام ١٩٧٩ ثم تراخت المساعدات بعد وفاة السادات، فلم تحصل على الدكتوراه إلا عام ١٩٨٦ أي بعد ٨ سنوات، وقال إن كل من ساعدها حصل على مكافأة سخية!

شيءٌ من تاريخ الحركة النِّسوية

ود. هدى وصفي عند الضرورة ؟!

"النسوية" هي المقابل العربيّ للمصطلح الإنجليزيّ Feminism ويشير إلى الفكر، الّذي يعتقد أنّ مكانة المرأة أدنى من تلك الّتي يتمتّع بها الرّجل في المجتمعات، الّتي تضع كلا الجانبين ضمن تصنيفات اقتصاديّة أو ثقافيّة مختلفة، فالمرأة في نظر النّسويين لا تعامل بقدم المساواة، ولا تحصل على حقوقها في مجتمعاتٍ تنظّم شؤونها، وتحدّد أولويّاتها وفق رؤية الرّجل واهتماماته، لا لشيء سوى أنّها امرأة، وبالتالي تصبح المرأة كلّ شيء لا يميّز الرّجل، أو كلّ ما لا يرضاه لنفسه، فالرّجل يتّسم بالقوّة والمرأة بالضّعف، والرّجل بالعقلانيّة والمرأة بالعاطفيّة، والرّجل بالفعل والمرأة بالسّلبيّة، وما إلى ذلك ذلك المنظور يقرن المرأة في كلّ مكانٍ بالسّلبيّة، وينكر عليها الحقّ في دخول الحياة العامّة وفي القيام بدورٍ في ميادين الثّقافة والسّياسة والاقتصاد، كما الرّجل وبالتّساوي معه، ويمكن القول إن الكلام على نسويةٍ إسلاميَّةٍ يعود إلى الزَّمن، الذي صدر فيه كتاب نوليفرغول: الحداثة الممنوعة، لكنّ حركات المطالبة بحقوق المرأة في العالمين: العربي والإسلامي تعود إلى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ففي التأريخ للحركة النِّسوية العربيَّة، تفيد الوقائع التاريخيَّة أن البدايات تعود إلى عام

١٩٠٩عندما نشرت ملك حفني ناصيف مجموعةَ مقالاتٍ عدَّها كثيرون علاماتٍ فارقةً في تاريخ المرأة، نُشرت المقالات تحت عنوان «نسائيات، على صفحات الجريدة التَّابعة لحزب الأمَّة الوطني» وفي عام ١٩٢٣ استُخدم مصطلح النَّسوية عن طريق الحزب النِّسائي المصري، ومن يعد إلى الكتابات التي أرّخت لهذه الحركة يتبيَّن جهود روَّادٍ منهم "قاسم أمين" ورائدات منهن "هدى شعراوي".

تطورَّت النِّسوية من حركةٍ سياسيّةٍ تنادي بالمساواة بين المرأة والرَّجل، في الحقوق، إلى فلسفة لها رؤيتها في الوجود والمعرفة والقيم والمجتمع، وهذا ما جعل روجيه غارودي يرى أنَّها «ليست حكرًا على النساء وحدهن بل هي فلسفة للجنسين معًا، أي لكلِّ من يؤمن بمبادىء هذه الفلسفة، ويناضل من أجلها فكرًا وقولًا وعملًا. فالنِّسوية بدأت حركةً سياسيَّةً اجتماعيَّةً ترى أنَّ النّظام المجتمعي السائد نظامٌ أبويٌّ – ذكوريٌّ، يتخذ الرَّجل فيه دور"المركز" والمرأة فيه لها الدَّور الثانوي الآخر، المساعد فدعت إلى مساواة الجنسين سياسيًّا واقتصاديًا واجتماعيًا، ونيل المرأة الحقوق التي يتمتع بها الرَّجل. ثم تطوَّرت هذه الحركة السِّياسيَّة إلى حركةٍ عقديَّةٍ لها رؤاها إلى الوجود وقضاياه، وهي رؤى تنطلق من التّجربة النِّسوية الخاصَّة البيولوجيَّة والمجتمعيَّة، الأمومة على سبيل المثال، وهي بوصفها هذا حركةٌ عقديَّةٌ للرِّجال والنِّساء معًا. فالحركة النِّسوية الأولى طالبت، في القرن التّاسع عشر، بالمساواة الاجتماعية والقانونيّة بين الرَّجل والمرأة، ولم تكن تُسمَّى، آنذاك، بالحركة النِّسوية وإنَّما كانت حركةً مطلبيَّةً. إما الحركة النِّسوية الثانية استمدَّت أفكارها من كتابين، كتاب كيت ميليت عن

"السِّياسات الجنسيَّة" كتاب فردريك أنغلز «أصل العائلة والملكية الخاصّة»، وجاء فيهما أن النِّظام الأبوي "البطريركي"، قام على سيطرة الرَّجل على الأسرة واضطهاده للمرأة، وأنّ هذا النِّظام ليس النِّظام الوحيد الذي عرفه التاريخ الإنساني، فقد سبقه النِّظام الأمومي الذي كانت فيه الملكيّة جماعيّةً والنّسب يعود إلى الأم، ثم حدث التطوُّر الخطير، فتمَّ الانتقال إلى النِّظام الأبوي؛ حيث الملكيَّة خاصَّةٌ والنَّسب يعود إلى الأب، وفيه تمَّت الهزيمة التاريخيَّة للنّساء؛ إذ ظهر شكل العائلة الأبويّة حيث الزِّواج الآحادي، وهو أُحاديٌّ للمرأة فيكون دور المرأة زوجةً تنجب الأبناء، وتعمل في المنزل في المدينة، أو في المنزل والحقل في الرِّيف وفُرضت عليها العفّة، كي يضمن الرّجل أنَّ من تلدهم هم أولاده الذين يرثونه. حدث هذا نتيجة تغيُّر موقع كلٍّ من الرَّجل والمرأة في البنية المجتمعية، ودور كل منهما في هذه البنية، فالرَّجل هو الأقوى، فسيطر، وغدت سيطرته سياسة حكمت جميع المجتمعات البشريَّة. وقد رأت الحركة النِّسويّة أنَ هذا النِّظام الذي تشكّل نتيجة تطوُّرٍ مجتمعيّ يمكن أن يتغيَّر نتيجة تطوُّرٍ مجتمعيٍّ آخرَ، وهي تعمل من أجل حصول هذا التطوُّر الذي يغيِّر النظام الأبوي إلى نظام آخر، يتمُّ فيه إلغاء الأسرة الأبوية التي تقوم على ركيزةٍ مادِّيةٍ، هي عدم المساواة بين الزَّوج والزَّوجة، فالزَّوج يقوم بالعمل المنتج والزوجة تقوم بالأعمال المنزلية المجانية، وهنا ظهرت عدة تنظيرات كانت فالحركة النِّسوية الماركسيَّة، التي ترى أن الرأسمالية والملكية الخاصَّة هما ما أدَّى إلى هزيمة النّساء وهيمنة الرجال، أما الحركة النِّسوية الليبرالية، فطالبت بأن يوفِّر النِّظام الرأسمالي الفرص والحقوق نفسها للنساء، والرِّجال بطريق سنِّ

القوانين القاضية بذلك وتشكيل القوى الضّاغطة من أجل نيل المرأة حقوقها.

وقد دعت فرجينيا وولف (١٨٨٢ – ١٩٤١) النِّساء إلى العمل من أجل تأسيس هويّةٍ خاصَّة بهنّ، وتحرير قدراتهن الإبداعيَّة والتعبير عن تجاربهنّ الشخصيَّة الخاصَّة. ثم ظهر مايعرف بالحركة النسوية الجديدة، وهي ترى أن العالم يعرف «المقهوراتِ وهنَّ المرأة وشعوب العالم الثَّالث» ومن يقهرهن هو الرَّجل الأبيض، ولهذا لابدّ من السَّعي للتخلّص من سلطة هذا الرجل محل المركزيَّة الظالم. وتقول «فرانسوا زدوبون» بكتابها: «النِّسوية أو الموت» ١٩٧٤ وتطوَّرت رؤى هذه الحركة، فغدت تدعو إلى مناهضة كلِّ تمييزٍ واضطهادٍ، على أيِّ أساسٍ: عرقيٍّ أوطبقيٍّ أو جنسيٍّ.

ويمكن تصنيف النِّسوية العربيَّة الإسلاميَّة كما هي عليه حركات المطالبة، في الأقطار العربية والإسلاميَّة، في ثلاثة تيَّارات:

١–**نسويّةٌ مستغربةٌ** " تنسب للغرب": وهي حركةٌ نسويَّةٌ تتَّبع النِّسويَّة الغربيَّة، وترتبط بمبادئها ورؤاها، وقد وُصفت هذه الحركة بالتبعيَّة لهذا التيَّار أو ذاك من تيَّارات النِّسوية الغربيَّة. تقول «زهراء علي» في هذا الشَّأن: إنّ النِّسوية الغربيّة "ككل الحقائق السِّياسيَّة، عندما تُفهم بطريقةٍ جازمةٍ، دوغمائيةٍ تملك النَّزعة لتصبح أداةً أيديولوجيةً. عرفناها هكذا خلال الفترة الاستعماريَّة، عندما كانت النِّسوية تستخدم لتساعد الهدف الاستعماري والسيطرة الغربيَّة على الأراضي الإسلامية، ويرى الإسلاميون أن هذا الاتِّجاه ما هو إلا أفكار عن

الهوية الإسلاميَّة نفسها".

٢– **نسويَّةٌ توفيقيةٌ**: وهي حركةٌ نسويةٌ تحاول التّوفيق بين مبادئ النِّسوية الغربيّة والمبادئ الإسلاميَّة، وهي تفعل ذلك، كما يبدو؛ نظرًا إلى أنَ أيّ حركةٍ مطالبةٍ بحقوق المرأة، في مجتمعٍ إسلامي، لا تسوّغ مطالبها بمبادئ ورؤى إسلاميّة تحكم على نفسها بالإخفاق. وهذه الحركة انتقائيَّةٌ تنتقي من مبادئ النِّسويات الغربيَّة، ومن المبادئ الإسلاميَّة ما تراه مناسبًا لها، وتحاول التَّوفيق بين ما تنتقيه، ما شكَّل اتجاهًا تصفه دلال البزري بقولها: «ورثت النِّسوية الإسلاميَّة كلّ مفاعيل اندفاعة النّسوية الغربيّة، لكنّها تنكّرت لها، وقالت:إنه الإسلام.

٣– **النَّسوية الإسلاميَّة**: وهي حركةٌ تعمل على «متابعة قضيَّة حقوق المرأة، عبر تطبيق الشَّرع الإسلامي بشكلٍ كاملٍ وشاملٍ لكافة قضايا المجتمع، بما فيها قضية المرأة والناشطات في التيارات الإسلامية، يتبَّنين رأيًا يؤكِّد تكامل الأدوار بين الرَّجل والمرأة. تحاول هذه الحركة أن تعيد النَّظر في «القراءة الأبويّة – الذكوريَّة» للإسلام التي سمحت باضطهاد النِّساء لا في الشِّرع الإسلامي.

تقول زينب أنور، المديرة التنفيذية لجماعة «أخوات في الإسلام»، وهي منظمة ماليزية تعمل من أجل حقوق المرأة في إطار العمل الإسلامي: «في مجتمعاتنا، الرّجال يمتلكون السلطة، وهم يقرّرون ما ينبغي أن يعنيه الإسلام، وكيف يمكننا أن نطيع هذا المفهوم المعيَّن في الإسلام المشكلة

تتمثَّل، في رأي هذه الحركة، في سيطرة «السُلطة الذكورية» على فهم النُّصوص الدِّينيَّة وتطبيقها في الواقع، وليس في هذه النُّصوص نفسها. لهذا لابدَّ من إعادة قراءة هذه النُّصوص، يرى النَّاشطون في هذا التّيار، أنَّ نصوص الدِّين الإسلامي توفِّر الحياة الطَّيِّبة لكلٍّ من الذكر والأنثى، من دون أيّ تمييزٍ بينهما، وهذه الحياة حقٌّ لمن يعمل صالحًا منهما، وهو مؤمن، فالعمل الصالح، الصَّادرعن المؤمن، هو المعيار.

وتقول د. هدى وصفي :كان يجب أن تكتب هذة النسوية وأفكارها في أعمال سردية، فكما يقول أنيس منصور في كتابه "الأظافر الطويلة": "المرأة تكتب لتقول لا على القيود البالية، ولا لطغيان الرجل، ولا لاستبداد الرجولة ثم يجب أن تقول لا لضعف الأنوثة! وأعتقد أن أنسب تسمية لهذا الاتجاه الأدبي، هو: أدب الأظافر الطويلة – أدب الخربشة". ويمكن تقسيم الكتابات العربيّة النّسويّة إلى ثلاثة مراحل وفق ما يرى د. حسين المناصرة، مستعيرًا هذا التّوزيع من "رامان سلدنوجوليا كريستيفا" في حديثهما عن أطوار الكتابة النّسويّة الغربيّة، وهي:

١- كتابة المرأة بوعي قلم الذّكورة في عصور ما قبل النّهضة، ومثالها الخنساء وليلى الأخيليّة ورابعة العدويّة وولاّدة بنت المستكفي.

٢- كتابة الأنثى الباحثة عن التّحرّر والمساواة، ومثاله معظم رائدات النّهضة، والكثير من الرّوائيّات والشّاعرات ما بين الحربين العالميّتين الأولى والثّانية، حيث برزت كتابة المرأة معاناتها الذّاتية ومطالبتها ببعض حقوقها برومانسيّة "مؤدّبة" غير متمرّدة أوثائرة، تشبه فيها

كتابات الرجال.

٣- الكتابات النّسويّة العربيّة المحاربة للسّلطة الأبويّة، والّتي لم تبلغ مستوى الكتابات الغربيّة في التّطرّف، ومثالها كتابات كوليت خوري، ونوال السّعداوي، وغادة السّمان، وسحر خليفة، وفاطمة المرنيسى.

وتدعو هيلين سيكسو المرأة إلى أن تكتب نفسَها، فتقول: «اكتبي نفسَك، يجب أن تسمعي صوت جسدك، فذلك وحده هو الذي يفجِّر المصادر الهائلة للأّشعور». وتقول في موضعٍ آخرَ: «إذ تكتب المرأة نفسَها، بوساطة خطاب النساء، فإنها تعود إلى الجسد، وتصبح اللغة وثيقة الارتباط بالنَّوع الجنسي»، ويرى "جورج طرابيشي" أنَّ العالم هو المركز في رواية الرَّجل والذات هي المركز في رواية المرأة، وترى نوال السعداوي أنَّ الإجرام يحتاج إلى ذكورةٍ لا إلى أنوثة، وأنَّ أدب المرأة يتميَّز بأن مخيلته أكثر حيويَّةً وخصوبةً وحركيةً، مما هو عليه أدب الرجل، ويقول عفيف فراج: تتحرك المرأة في عالم الرَّجل؛ إذ تتمرَّد ضدَّه ثم تعود إليه، وينتقد المرأة التي ترغب في الحرية الجنسيَّة لبطلتها من دون حسبان الواقع الاجتماعي. وقد تكون رواية «أنا أحيا» لليلى بعلبكي التي تعدُّ، من منظور بعض النَّقاد من بواكير الأدب النِّسوي، خير مثالٍ على ما يذهب إليه فرَّاج، فشخصيَّتها الرئيسيَّة تثور ضدَّ الرَّجل، لكنَّها تعود إليه، وتجد أنَّ الإنجاب هو ما يحقِّق ذاتها، ويعطي حياتها الجدوى، وهذه التجربة، كما هو واضح، تجربةٌ نسويةٌ حياتيةٌ خاصَّةٌ وصادقةٌ، وليست تجربةً مفتعلةً.

ومن التّسميات الطّريفة التي تشير إلى خصائص هذا الأدب، نذكر ما

ظهر بالسويد تحت تسمية «أدب الملائكة والسَّكاكين»، وسمّاه إحسان عبد القدُّوس «أدب الرُّوج والمانكير» إذ رأى فيه أدبًا صوتيًّا وشكليًّا. وكما يقول أشرف توفيق في كتابه "اعترافات نساء أديبات": "في الماضي كان الرجال يحدقون في صدر المرأة ، ثم تحول نظرهم إلى سيقانها بعد أن كشفت الموضة مفاتن الركبة، وجاء الوقت الذي يهتم به الرجل بكتابة المرأة.. الوقت الذي يتوارى فيه الجسد ويبرز العمق، فأنا رجل يرى جمال المرأة في رحلتها مع الورق، الإبداع عندي دليل جمال، دعيني أغازل قلمك الجاف سيدتي!".

حملت أسئلة وتساؤلات، وأوراقًا ووثائق، وارتحلت إلى معبد ثقافي جميل في القاهرة، حيث موعد مع إحدى العرافات التي تملك تعويذه مستقبلية لهموم المرأة، مع ناقدة وأساتذة وصاحبة نظرية فيما تكتبه المرأة، تقابلت مع د. هدى وصفي في مسرح الهناجر!

وقالت د. هدى: المرأة لا تعامل الكتابة بحرية مثل الرجل، مثل رواية "ذات" لصنع الله إبراهيم؛ لأنه حتى أفعالها المتحررة، تجد تبريرها الرخيص في أن ما حدث رد فعل لقهر وقع عليها. فالمرأة حتى في الكتابة تعامل كصدى..كرد فعل، حتى القوانين الموجودة تعيد في للأذهان أفكارًا سلفية: كقبول الزوجة الثانية وحق الرجل في منع امرأته من العمل، والتأكيد على قيم عودة المرأة للمنزل، فالمرأة هي حاملة الثقافة والقادرة على التأثير في الصغير، ومن ثم يعتمد عليها في إعادة صياغة الكون، فهي التي تقول للصغير: "أمنا الغولة" وهي التي تقول له: "لا تخاف الظلام "، المرأة هي الوعاء الأول للثقافة والمفاهيم التراثية، ونحن لانطالب إلا المساواة الحقيقية!

- الحركة النسوية التحررية بدايتها في مصر، والبلاد العربية بداية ذكورية، فقد بشّر بها الطهطاوي "في تخليص الإبريز"، ورسم طريقها قاسم أمين في كتابيه "تحرير المرأة" و "المرأة الجديدة".

الحركة النسوية المصرية كانت جزءًا من استقلال الوطن، ولم يكن تحرير المرأة إلا جزءًا من سياق اجتماعي للاختلاف مع الغرب، والخروج ضد المستعمر وأعترف بأن الدعوة بدأت ملتبسة سواء أكان ذلك بحسن أو سوء نية، ففي **١٩٢٣** حدث حادث مهم في حياة الحركة النسوية، وهو خلع الحجاب الذي قامت به هدى شعراوي، وكان مطلبًا استقلاليًا ضد المستعمر الإنجليزي، وليس مطلبًا أنثويًا بالمساواة بالرجل، كما ظن بعد ذلك! وجاء مع أحداث ثورة **١٩١٩** وما تلاها، لكن هناك تاريخ آخر مهم في تاريخ المرأة، وهو **١٩٧٢**حينما صدر كتاب "المرأة والجنس" لنوال السعداوي، هنا كان من الواضح أن المرأة تريد أن تعلن أنها كائن مساوٍ للرجل ويجب العناية به، يشعر كالرجل تمامًا وهذا فعل أنثوي ليس له رائحة رجولية.

وبالتالي الكتابة التي تتمثّل هذه التجربة وتمثِّلها لغةً أدبيّةً، هي كتابةٌ لا يمكن أن نحيط بها، وإن كان من إصرار على التَّحديد، فإنَّ ذلك ممكن إن تم وضع كلٍّ من الرَّجل والمرأة في تكوينه البيولوجي، وهذا أمر غير صحيح، فالكتابة لا تمثِّل هذا التكوين فحسب، وإنما تمثِّل التجربة الإنسانيّة الكيانية المجتمعية لكل منهما، ليس بوصفه كائنًا بيولوجيًا مستقلًا، وإنما بوصفه كائنًا مجتمعيًا ينتظم في بنيةٍ مجتمعيةٍ، يتخذ فيها موقعًا يؤدِّي منه دورًا، أو مواقع

يؤدّي منها أدوارًا، وإن كان من تمييزٍ حقيقيٍّ، فإنَّه تمييزٌ يعتمد معيار السُّلطة/ الخطاب الأبوي. وهذا المعيار ليس معيارًا بيولوجيًا، وإنَّما هو معيارٌ سلطويٌّ، فإن كان الصّوت السّلطوي ذكريًّا، فإن كثيرًا من النِّساء ينطقن بهذا الصوت.

تصف «ماري إلمان» كتابة «سيمون دي بوفوار» بالذّكورية، بسبب نبرتها السُّلطوية الواضحة، فهي ترى أنّ الصَّوت الذكوري ليس محصورًا في جنس الرجال، كما هي الحال مع الصوت الأنثوي، فهو ليس محصورًا في جنس النِّساء، لكن وما دامت الكتابة النِّسوية تسعى إلى هدم هذا الخطاب الأبوي المسيطر، منذ آلاف السِّنين وطالما أنه ارتبط بالرَّجل، فمن الطّبيعي أن ترتبط الكتابة النِّسويَّة بالمرأة بالدَّرجة الأولى، ولكن ليس بأيِّ امرأةٍ، وإنما بالمرأة التي يصدر خطابها من منظور نسويٍّ حدَّدناه في ما سبق من قولٍ، وقد يشاركها رجالٌ في الصدور عن هذا المنظور.

- قلت لها: هل تتذكرين يا دكتورة أن الحركة النسوية كانت حركة هوانم.. وأرستقراطية، ولم يكن لها جذور شعبية ؟!

كل الحركات النضالية والثورية تبدأ كأفكار أرستقراطية عند المثقفين، ولكن يستفيد منها باقي المجموع، والحركة المصرية النسائية كما قلت كانت ضمن سياق اجتماعي لمحاربة الإنجليز "فدعوة تحرير المرأة"، كانت معاكسة تمامًا لما هو موجود في الغرب وقتها، ولم تكن تقليد لها. بل إن قاسم أمين كان يريد أن يثبت أن الإسلام يضع المرأة في مرتبة أعلى من الغرب. ويقال: إنه اشترك معه الشيخ مُحَّد عبده في كتابه "تحرير المرأة"، ولكن المرأة

استجابت فيما بعد وقامت بالدور الآخر في تأكيد الدعوة لحرية المرأة.

- لماذا قيمة المرأة الفرنساوية هي التي سادت في حركة تحرير المرأة؟! سواء حينما كتب الطهطاوي أو قاسم أمين، أو حينما خرج كتاب نوال السعداوي " المرأة والجنس " وقتها قيل : إنها متأثرة بكتاب "سيمون دي بوفوار" " الجنس الثاني" ؟!

هذا يرجع للسياق التاريخي، فمعروف أن "مُحَمَّد علي" استعان بالجنرالات الفرنساويين بعد هزيمة نابليون، وأن إنجلترا اعتبرت ذلك ضدها، وإن مصطفى كامل فعل نفس الشيء مع فرنسا وعلاقته بـ " جوليت أده "، فالثقافة الفرنسية كانت جزءًا من مقاومة الاستعمار الإنجليزي، لأنه كان يعتقد أن إنجلترا وفرنسا أعداء! ولو رجعت لثلاثية نجيب محفوظ مثلًا، رأيت أن "سي السيد " أو أحمد عبد الجواد يتمنى انتصار هتلر على إنجلترا، سياق اجتماعي ضد هذا الاحتلال الذي جثم علينا أكثر من سبعين سنة، بالطبع مس هذا حركة تحرير المرأة كجزء من حرب تحرير الوطن كله.

- قدمت لها صور المؤتمرات الخاصة بالمرأة من عام ١٩٧٥، وما تقدمت به المرأة من أوراق وطالبت به بيوتوبيا جسدية.

النبرة العالية ورد الفعل الشديد دليل على مدى القهر الأنثوي الذي تعرضت له المرأة، فجاء ما قالته من مطالب ومن حدة، بل إنه أصبح هناك نقد يُسمى" بالنّقد النّسوي". وكانت النبرة عالية للغاية بل إن الموقف

الفكري كان منقسمًا في هذه الفترة، ولكن بدأت المسائل تقترب من التوازن مع بداية الثمانينات، وبخاصةٍ في " مؤتمر نيروبي ١٩٨٥"، والنظر للأمر بأنه ليس صراعًا مع الرجل، وإنما لابدّ من التعايش مع البشر والتقارب بين الرجل والمرأة، بدأ ينظر لقضية المرأة في إطار ثقافي لتقريب الأفكار وتكييف الظروف، وجعل المساواة سهلة في العلاقات بين البشر، ولكن مع ظهور العقدة الاقتصادية والغنى والفقر والشمال والجنوب وغضب الطبيعة، وجدنا أشياء أخرى. المرأة في شمال أفريقيا تترك سيادتها في بلادها لتعمل أي شيء في بلاد أخرى "كأعمال الخدم مثلًا!"، وفي آسيا فالمرأة في آسيا، وبخاصةٍ في الهند والصين في حالة يُرثى لها وتعمل بسهولة في الدعارة! وفي مصر ظهر الزواج العرفي بين فتيات قاصرات وكهول، وبالتالي أصبحت المرأة تنظر لمشكلتها بشكل مختلف، وبشكل متصل بمشاكل مجتمعها. وشعرت بأنها ليست وحدها في مأزق، بل الرجل الآن هو الذي في مأزق أشد، ومن هذه النظرة الجديدة جاءت العناية بالمرأة وبالثقافة، وظهرت أفكار جديدة "كتهذيب المتوسط".

- قلتُ لها مقاطعًا : أية حكاية المتوسط؟!

إن الغرب يخاف من البحر المتوسط ففي الشمال أغنياء وفي الجنوب فقراء، فأصبح الأغنياء يخافون ثورة الفقر ولهذا بدأ التدخل لتهذيبه، فهو بحر طول عمره حروب ودماء، وجاء ذلك في شكل تكافل اجتماعي عن طريق مراكز ثقافية، وعن طريق العناية بالمرأة.

- قلت لها: أنتِ تدركين معي أن كل شيء بثمن، وأن المرأة يُلعَبُ بها

الآن كاستقطاب عالمي تغلفه الثقافة!

إن الغرب برجماتي لأقصى درجة، إنه ينظر إلى علاقة الطفل بثدي أمه بأنها علاقة جنس ومتعة "مثلما قال فرويد"، فكيف لك أن تعتقد بغير ذلك، في أمور الفلوس والاقتصاد ؟

- قلتُ لها: أنتِ عرافة تعرف تقرأ خطوط الكف والفنجان للمرأة، فما علاقة النوية بالأدب النسائي؟

مصطلح الأدب النسوي الذي شاع في الغرب، ينطلق من نظرة عنصرية يلغي كل جوانب إبداع المرأة، ويحصرها فقط في مُحيط الأنوثة، رغم أن هذه الأنوثة هي جزء أصيل من ذات المرأة، تضفي عليها بعضًا من الخصوصية في الكتابة، ولكنها ليست كلها ذات المرأة المبدعة، فذات المرأة المبدعة، مثل الأرض تنبت كل الزروع وأنواع الزهور وعطورها المختلفة والمتنوعة في جمالها الأخَّاذ. فهو مصطلح في جوهره مرتبط بالحركة النسوية، وسعيها لتحصيل مكاسب خاصة بالمرأة في نضالها ضد الرجل، وتعود أصوله إلى أطروحات خارج سياق الأدب، تمامًا كمفهوم الأدب الواقعي أو الأدب الإسلامي أو التحرري، أو غيرها من المفاهيم التي تفصل الموضوع عن الشكل، فتصنيف ما تبدعه المرأة من نصوص تحت مسمى الأدب النسائي، قد يحد من مساحات إبداعها ويُحددها في أُطرٍ ويُعيدها من انفتاحها الإنساني الخالص إلى حريم سُلطان الأدب، الذي يُهيمن عليه المبدعون الرجال. نعم هناك مواقف وقصص تكون فيها الكاتبة أقدر على التعبير عن المرأة، كما يكون المبدع الرجل أكثر قدرة

على التعبير عن عالم الرجال، غير أن الكاتب يوسف إدريس برع في وصف عوالم النساء، كما برعت مي زيادة في إثبات قدراتها في تحدي هيمنة كتابات الرجل. لكن القضايا الإنسانية واحدة يتفاعل بها الجنسان، وتظل لدى طرفي المعادلة بعض الخصوصيات، فبينما يبدو الرجل جريئًا في البوح عن العاطفة والحب، نجد البوح لدى المرأة الشرقية يأخذ صيغًا غير مباشرة ويغلفها العفة والخجل، لكنهما يكتبان معًا وبنفس القدر من الموهبة عن حاجات الإنسان فضاءات للحرية والعدل والرحمة.

فالسُّؤال الذي يُطرحه الأدب النسوي أو النسائي، أو الأدب التي أنتجته النسوية، هو: هل تكتب المرأة الأدب بطريقةٍ تختلف عن الطَّريقة التي يكتبه بها الرَّجل، فيكتسب أدبها خصوصيّةً تميّزه من أدب الرّجل؟ ثمَّ إن كان الجواب بالإيجاب، هل يعود هذا الاختلاف في خصوصيَّة الكتابة إلى الاختلاف البيولوجي، أو إلى الاختلاف المجتمعي أو إليهما معاً؟ السُّؤال الأخير هل ينبغى التمييز بين مفهوم الجنس بيولوجيًا، أمَّا مفهوم «الجندر» الهويَّة الاجتماعيَّة الثَّقافية، أم أن الجندر مفهومٌ اجتماعيٌّ ثقافيٌّ مكتسبٌ غيرُ خاصٍّ بالمرأة، فلا يهمّ ما إذا كان الكاتب رجلاً أو امرأة بيولوجيًّا، وإنّما المهمّ هو الهوية النِّسوية المتمثِّلة في النَّص والمقصود بها نقد المجتمع الأبوي والعمل على تغييره، ثم هل توجد امرأةٌ أديبةٌ واحدةٌ، ورجلٌ أديبٌ واحدٌ؟ وبتعبيرٍ آخرَ: هل توجد تجربةٌ حياتيَّةٌ أدبيّةٌ لامرأةٍ واحدةٍ، وتجربةٌ حياتيّةٌ أدبيَّةٌ لرجلٍ واحدٍ؟ وهل من تجربةٍ مشتركةٍ بين جميع الرِّجال، وتجربةٍ مشتركةٍ بين جميع النساء؟ ألا توجد فروقات أخرى، بين النِّساء الرِّجال، وبين النِّساء أنفسهن والرِّجال أنفسهم، طبقيَّة وعرقيَّة ومجتمعيَّة،

ثقافيَّة واجتماعيّة وسياسيَّة، وشخصيَّة؟ ألا توجد رؤى مشتركة بين نساء ورجال منها كشف الهيمنة «الأبويَّة» الواعية وغير الواعية. والهيمنة الأبويَّة لا تقتصر على هيمنة الرجل على المرأة فحسب، وإنّما تشمل أي هيمنة ذكوريَّة: الاستعمار بمختلف أشكاله، هيمنة الغربيِّ الأبيض، هيمنة الرأسمال، هيمنة أي سلطة مستبدَّة. في هذا الشّأن، ترى شيرين أبو النّجا أن النَّص الأدبي النِّسوي، هو النَّص الأدبي الذي يمثِّل «الرؤية المعرفيَّة الأنطولوجية للمرأة، والمهموم بالأنثوي المسكوت عنه، الأنثوي الذي يشكِّل وجوده خلخلةً للثَّقافة المهيمنة، وهو الأنثوي الكامن في فجوات هذه الثقافة، وأخيرًا هو الأنثوي الذي يشغل الهامش فالأدب النِّسوي، من هذا المنظور، هو الأدب الذي يتمثَّل تجربة المرأة الخاصَّة الحياتية، ويمثِّلها نصًّا أدبيًّا، فما يميِّزه ليس اختلاف كاتبه الجنسي، بل خصائصه البنيويَّة.

من منظور آخر، ترى النظريَّة الأدبيَّة النِّسويَّة أن هويَّة الأدب النِّسوي ينبغي أن تكون هويةً أنثويةً خاصَّةً، تعبِّر عن تجربة المرأة الخاصَّة، وتمثِّل واقع حياتها بشكلٍ تفصيليّ، ذلك أن المرأة قد قُدِّمت ولأزمنةٍ طويلة، بأنماط بعيدة عن الحقيقة والواقع، بوساطة نماذجَ أدبيَّةٍ مضلِّلةً. لذلك لابدَّ من أن يتطابق الأدب النِّسوي وتجربة المرأة سعيًا وراء فهمٍ ملحّ التجربة الأنثويةّ، وهو ما سيسهم في زيادة وعي المرأة، وتقول الأديبة "عفاف السيد": "المرأة تكتب وفي أعمالها تبحث عن توضيح معنى أن الجنس هو جزء من وجود الإنسان، وليس شيئًا يعيبه، ولكن طريقة التعبير عن هذا هي ما تجعل عملًا يوصف بأنه إبداعي، وآخر يجعل القارئ يهرب منه لأنه مسف، فالجنس جزء من الحياة ولا أستطيع أن أكتب حياة منزوعة الجنس،

أو معقمة في عالم مثالي"، وتؤكد "عفاف السيد": أن الكاتبات في مصر مستهدفات ليس فقط من التيارات المتأسلمة، وإنما أيضًا من النخب الثقافية والتي تفتش وتبحث بين سطور إبداع الأديبة في محاولة منهم؛ لاكتشاف إن كان ما تكتبه النساء هو تجربة حقيقية وليس مجرد خيال. وفي هذه الحالة تحجم الكاتبة عن الخوض في هذا، وتعتبر أن هذه المنطقة لا يصح أن تكتب عنها؛ لأن المجتمع سيعتبر هذا خبرتها الذاتية.

ثورة الحرملك

هل للنسائية أسبقية على الوطنية ؟!

" وكانت تجربة المرأة مع سعد زغلول، تجربة مفيدة فقد وضح فيها أن الوفد يريد أن يذيب الحركة النسائية في الحركة الوطنية، والحركة النسائية تريد أن تركب الوفد لتحقيق طموحاتها. ولم يكن السؤال كيف يمكن وضع الوطنية والنسائية في قنينة واحدة؟! وإنما كان السؤال من يسبق الآخر في الأولويات والتحرك الوطنية أم النسائية؟! ودون الحكم على التجربة فإن الدرس المستفاد، أنه عندما تتعايش الوطنية مع النسائية فمن المفيد التحري عن البعد الوطني للنسائية، والبعد النسائي للوطنية، مع أخذ العديد من الأسئلة في تجربة سعد ونساء الوفد بعين الاعتبار. كما أن أبعاد الوطنية عن النسائية والنسائية عن الوطنية تجزئة لا طائل منها وسيخسر منها الطرفان".

المستشرقة "مارجو بدران"

كان الزعيم سعد زغلول صاحب خطاب نهضة. وكان يمكن أن يتقدم الرواد المناصرين لقضية المرأة في بلادنا. وكان يملك أدوات التقدم عليهم جميعًا: الثورة، الشارع، حزب الوفد، فصاحة اللسان والخطابة، ولم يكونوا جميعًا بعيدين عنه أو بعيدًا عنهم، فهو أزهري سافر للغرب كرفاعة الطهطاوي، وتلميذ للشيخ مُحَّد عبده، وصديق لقاسم أمين، ومشارك

ومعاصر لأحمد لطفي السيد. وهو من القلائل الذين عاصروا الأميرة "نازلي فاضل" وجلسوا لصالونها، وكان محل تقديرها وسرها فهو محاميها الخاص! ولذا فإنه لم يستغرب ويفتح فاهه من اصطلاح "النسائية" عند ظهوره علنيةً "في المحروسة عام ١٨٩٩ بكتاب تحرير المرأة" لقاسم أمين. هذا الإصلاح الذي يعني بمفهومه التحليلي الوعي الناشئ عن الظلم الواقع على المرأة بسبب جنسها، وبمعناه التطبيقي صراع المرأة للتحرر من القهر الاجتماعي أو السياسي الواقع عليها، وأنشطتها النضالية المختلفة لدفع هذا القهر.

ولكن الرجل كان مهمومًا بقضية الوطنية. يبحث عن وصفة سحرية لثورة شعبية تسرق الاستقلال لبلاده من تحت عرش الخديوي، ومن وراء ظهر دبابات الإنجليز، كان يحلم بتفجير الشارع مدنيًا، وإن كان قد سبق له المشاركة في ثورة عرابي التي فجرت الشارع عسكريًا. وبالطبع لم يغب عنه أهمية مشاركة المرأة في هذه الوصفة السحرية الجديدة، ولكنه اعتقد أن النساء في ثورته كصفية زوجته سيسرن خلفه، وسيعطين لقضيته الوطنية أسبقية على قضيتهن النسائية. سيدفعن الثمن ولن يطالبن بالمقابل سيرضين بالفُتات، ولن يخرجن عن دائرة القناعة. وكم كان واهماً!!

وقد أعطى سعد زغلول للنساء حريةً عريضة إذا ما كان الأمر مرتبط "بالوطنية"، وترددت خطواته معهن إذا تعرض الأمر لثورة أخرى، أردن أن يخوضنها تحت مظلة الوطنية مرتبطة بذواتهن، ولم يكن الأمر مع النساء يقبل ما قبلته "زوجته صفية"، تضع البرقع الأبيض على وجهها في منزلها، فإذا سافرت إلى أوروبا في الصيف، خلعت الحجاب ومشت سافرة!

وعندما خرجت النساء في مظاهرات ثورة ١٩ وسقطن شهيدات. لم يعد مقبولًا من سعد زغلول تأجيل النسائية وتفضيل الوطنية، لم يفلح معهن الشعار القديم "لا صوت يعلو على صوت المعركة"، الذي ردّده الوفد في مقولة "الاستقلال التام أو الموت الزؤم"؛ لذا فقد ابتعدن بشكل ملحوظ عن وضع تحرير المرأة تحت مظلة التحرير الوطني، طالما أنه يؤجل الهدف الأول "النساء" إلى حين تحقيق الهدف الثاني "الاستقلال".

وكما تقول المستشرقة "مارجو بدران": إن طرح سؤال هل يتعين على المرأة إعطاء النسائية أسبقية على الوطنية؟! كان يحمل في طيَّاته صيغة إدانة تفرضها السلطة الأبوية، وتفرض على المرأة اختيار بين أمرين، ويفرض عليها عبئًا قوميًا ووطنيًا، ويلح على تاريخها الطويل الذي تعودت من خلاله على تفضيل الآخرين على نفسها. ويدعوها إلى القيام بتضحيات وتأجيلات لا نهائية، ويثير الإحساس بالذنب لدى اللائي يفضلن ذواتهن.

فهناك مرحلتان للوعي الوطني النسائي:

- المرحلة الأولى "من نهاية القرن التاسع عشر وحتى ثورة ١٩١٩".
- المرحلة الثانية "من ١٩١٩ حتى ١٩٢٣".

واستندت المرأة في المرحلتين وتعكزت فيهما على الحداثة الإسلامية، والحركة الوطنية التي بطابعها كانت مسلمة؛ ولأن النسائية في المرحلة الأولى كان لها مفهوم شرقي.

"ففي هذه الفترة المبكرة ركزت المرأة على إعداد نفسها، والجيل

المقبل من النساء على حياة جديدة في المجتمع، وذلك عن طريق التعليم الذاتي، والتعليم الرسمي فقد بدأت المرأة بالتحرك تدريجيًا وبحذر شديد نحو الحياة العامة، بينما ظلت محتفظة بتقاليد العزلة، لتتجنب فقدان الاحترام والاستغلال الجنسي. ولقد حذرت كل من ملك حفني ناصف، ونبوية موسى من رفع الحجاب في بداية القرن، حتى لا تتعرض المرأة لمضايقات الرجال الذين لم يتعودوا رؤية المرأة المحترمة في المدينة بدون حجاب. وفي عام ١٩١٠ ردت ملك حفني ناصف على حديث لعبد الحميد أفندي، دعا فيه إلى رفع الحجاب، وقالت: إنني مندهشة لدعوتك لنا برفع الحجاب، في الوقت الذي ما زلنا نتعرض فيه للحملقة الوقحة، وللملاحظات غاية في الإحراج عندما نسير في الطريق! كانت النسائية التي تطالب بها المرأة في هذه الفترة، تختلف عن النسائية التي ينادي بها الرجل المتحرر، والتي يدعو فيها إلى وضع نهاية فورية لنظام الحريم ورفع الحجاب، ولقد أصرّت المرأة على تحديد جدول أعمال خاص بها، وتحديد أولوياتها، وعمليًا كان على المرأة وليس على الرجل أن تواجه المجتمع الأبوي، ولقد رأت أن الوقت لم يكن مواتيًا بعد. وفضلًا عن ذلك فإن السخرية الكامنة في تلقي المرأة للأوامر من الرجل بالنسبة لتحررها، لم يكن خافيًا عليها، لذا رأت ثورة ١٩ أهمية الاستفادة من الوعي الوطني النسائي، وأشراكه في قضية تحرير بلاده.

وفي المرحلة الثانية اشتركت نساء الوفد مع رجال الوفد، كما أنهن حللن محلهم أثناء غيابهم.

إن نجاح الوفد يرجع بدرجة كبيرة إلى التأييد الكبير الذي كان يحظى

به، فلقد لعبت نساء الوفد دورًا أساسيًا في تنظيم وتنسيق، وتوسيع نطاق التأييد للوفد، وفي الأيام الأولى للثورة، عندما تم استبعاد الزعماء من الرجال على وجه السرعة من مسرح الأحداث، حافظت النساء المصريات على الحركة متآججة، وحشدن التأييد الوطني من خلال تعبئة شبكات الاتصال بين السيدات في كل أنحاء البلاد. فمنذ عام ١٩١٩ وحتى عام ١٩٢٢ حلّ فيها نساء الوفد محل الرجال، ولعبن أدوارًا رئيسية مثل الحفاظ على الروح المعنوية للشعب، وتخطيط الاحتجاج، وإدارة الشئون المالية، ومواصلة الاتصال بالزعماء الغائبين وسلطات الاحتلال، ووسائل الإعلام والخارج. وشاركت المرأة كمناضلة في الكفاح أثناء الثورة، بصفتها مواطنة مصرية وليس بصفتها امرأة.

وكما أن الوطنيين من الرجال قبلوا النضال الوطني للمرأة، عندما كان يروق لهم ذلك، مثل مظاهرات المرأة والمقاطعة الاقتصادية على سبيل المثال، وتحت ظروف القهر وعندما كانوا يودعون السجن أو يرحلون إلى المنفى، كان الرجال يرحبون بالأدوار الكثيرة التي تقوم بها المرأة في مركز الأحداث، كالمحافظة على الروح الوطنية، وتوسيع قاعدة التأييد الوطني، والاهتمام بشئون المواصلات والمالية. ولكن عندما كانت العناصر الوطنية من الرجال لا تزال على مسرح الأحداث، ولها السيطرة على مقاليد الأمور، أهملوا وجهة نظر المرأة، ثم بعد الاستقلال حرموها كمواطنة من حقوقها السياسية المكتسبة حديثًا، وكان قد أصبح جليًا لرائدات الحركة النسائية خلال النضال الوطني بعد ذلك، أن وطنية الرجل تتسم بطابع السلطة الأبوية. ولكن علينا أن نقرر أن حزب الوفد قبل أن يتعامل مع

النسائية بالمفهوم الشرقي، برغم أن النسائية بطبيعتها مفهوم غربي يتعين مقاومتها باعتباره صورة من الاستعمار الثقافي، وبخاصة أنه منذ عام ١٩٢٢ أخذت النسائية مظاهر غربية واضحة. وقد اعترفت المرأة حديثًا بذلك، ففي بحث لمركز دراسات المرأة الجديدة ١٩٩٥ عن "الحركة النسائية في مصر"، أقرّ بأن من سمات هذه الحركة أثناء وبعد ثورة ١٩ وحتى ١٩٥٢.

١- الاتصال بالغرب الذي كان له أثره في المقارنة بين أوضاع المرأة المصرية والغربية.

٢- تبني التفسير المتقدم للدين في مسألة النساء في أغلب الأحوال.

٣- محاربة العادات التركية في ملابس النساء التي وصلت لحد الاعتقاد في أصولها الدينية.

٤- إن العمل النسائي كالعمل الحزبي في مصر في تلك الفترة أعتمد على النخبة والصفوة المثثقفة، وأنه باستثناء لحظات الاحتدام الثوري أثناء ١٩١٩ حيث اندفعت كتل النساء للمشاركة في التظاهرات والاضرابات، ظلت المساحة الأساسية للعمل هي الرائدات المثقفات وربما من طبقات بعينها. وكان مركزها الأساسي المدن الكبرى والعاصمة القاهرة. ولم تصل للريف المصري ولم تتماس مع نساء الطبقات الفقيرة إلا من خلال بعض الخدمات.

الحريم والزعيم

"إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما، وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير"

"سورة التحريم– آية ١٤"

في ١٦ مارس ١٩١٩ وقبل خروج النساء في مظاهرات وطنية احتجاجًا على نفي سعد زغلول، والتصاقًا بثورته الوطنية، دارت مكالمة حول الوطنية والنسائية، كان طرفها النساء في جهة بقيادة صفية زغلول وهدى الشعراوي، وأقطاب الوفد الذكور في طرف آخر، ووصل الأمر بالذكور لحد رفض الدور الوطني للمرأة! وإذا بصوت عبد العزيز فهمي يعلو: إني أعجب أن تقترح سيدة عاقلة، مثل صفية هانم مظاهرة النساء في الشوارع؟! ويذهب لبيت الأمة ويحاول أن يمنع ذلك ويعود خائبًا، فيقول في اجتماع موسع بالحزب: أنه يخشى أن تكون النساء قد أصابهن نفي سعد بهزة أثّرت على عقولهن!

وحقًا .. إذا كنت ترغب في قول شيءٍ ما اسأل الرجال؛ إذا كنت تريد فعل شيءٍ ما، اسأل امرأة." *كما قالت مارجريت تاتشر* .وظهرت عبارة لصفية زغلول قوية ومؤثرة: إن نساء مصر لسن أعضاء في الوفد،

ولا توجد امرأة تمثلهن في الوفد. ولهذا ليس من حق الوفد أن يصد الأوامر إليهن، إننا نخرج التزامًا بقضايا بلادنا ولا نخرج لنؤيد سياسة حزب!

وهرول "عبد الرحمن فهمي" متطوعًا أن يقنع صفية هانم زغلول؛ نظرًا للعلاقة الوثيقة بينه وبينها، وقال لصفية زغلول عبارة غريبة: إن سعد زغلول قد جعل "بيت الأمة" لكل المصريين، ولكنه بنى في بيته الذي تعيشين فيه "سلاملك" يستقبل فيه الرجال من باب خاص بهم، بينما تدخل السيدات من باب آخر إلى صالونات خاصة بهن، ولم يقل عبارة الحرملك– فاتركي الحال على ما هو عليه الآن حتى يحضر سعد زغلول، ويعيد تغيير الأبواب!

ولم ينم عبد الرحمن فهمي الليل! إنه لم يستطع أن يفهم لماذا تريد أن تخرج المرأة بنفسها في السياسة؟! وكان أكثر ما يزعجه موقف زوجة زعيمه سعد زغلول. إنها تريد أن يخرج النساء للشوارع، في الوقت الذي وقفت تحدثه من خلف الباب حين ذهب اليها! إنه لم يرها بل سمع صوتها فقط! فقط، وراء الحاجز! ولولا الحاجز! ولولا أنه يعرفها ويعرف صوتها، لاعتقد أنها غواية من الأخريات فإن كيدهن عظيم، ولكنه صوتها إنها صفية زغلول!

ولذا سارعت هدى شعراوي بتقديم استقالتها من "لجنة نساء الوفد"، واعتزرت عن الاستمرار عندما وجدت "سعد زغلول" غير مهتم بأن يكون النساء عضوات عاملات في الحزب، مكتفيًا بأن يعملن منتسبات من خلف أزواجهن أعضاء الوفد كتوابع.

رغم أن النساء عندما وقع الصراع بين عدلي وسعد، انضممن إلى سعد زغلول، حتى أن علي شعراوي باشا انضم إلى عدلي. وإذا به يفاجأ بزوجته هدى شعراوي تؤيد سعد وتهاجم خصومه ومنهم زوجها!

واعتقدت "هدى شعراوي" بأنه في لحظات الخطر لا يُبدي الرجل أي اعتراض لظهور المرأة بجواره، ولكنه لا يغير نظرته إليها، وكوّنت اتحادها النسائي منفصلة بقضية النسائية، جاعلة الوطنية من خلال رؤيتها الخاصة كأنثى، بدليل اهتمامها الواضح بأثار معاهدة ١٩٣٦ وقضية فلسطين.

وإن كان سعد زغلول قد أوضح بشكل مباشر للزعيمة الوفدية الجديدة، التي تولت لجنة نساء الوفد بعد هدى شعراوي– منيرة ثابت– إنه لا ينكر حركة المرأة وحقوقها ولكنه يؤجلها– وإن التأجيل لا يعني الإنكار، وإنما يعني الانشغال بما هو أولى– إنه شيء يشبه ما فعله عمر بن الخطاب في عام الرمادة– أوقف أعمال نص قطع يد السارق ولكنه لم يكفر بالنص– وطالبها بأن تضع التحولات الوطنية والأعراف والميراث الاجتماعى في الاعتبار. ولكنها أتعبته أكثر من هدى شعراوي فهي صغيرة وحاصلة على ليسانس الحقوق من السربون، وثائرة لحد التطرف، لقد فاجأته سنة ١٩٢٤ عندما ألّف أول وزاة شعبية بقولها أنها وزارة لا تمثل الشعب؟! وسألها الزعيم لماذا؟! إنها أول وزارة يدخلها الأفندية. وقالت له: وزارة بلا وزيرة امرأة لا تمثل الشعب! وقال الأزواج فيها نيابة عن الزوجات. وإذا بمنيرة ثابت تعارضه: أنا لم أتزوج بعد يا سعد بيه ولا ينوب عني إلا امرأة! وأنبرت للزعيم بلسانها الطويل "التقاليد منعت الأفنديات أن يصبحوا وزراء وأنت كسرت التقاليد، فلماذا لا تكسر التقاليد وتدخل

المرأة البرلمان، إنك رئيس وزراء ثورة".

واعتقد سعد زغلول أنه غيَّر العادات الشائعة، فإنه كان لا يجوز للمرأة أن تمشي وحدها في الشارع، يجب أن يتبعها خادم. فإذا كانت مع زوجها، تعمد أن يمشي أمامها، وتمشي هي خلفه. فإذا به يمشي مع زوجته ويخرج معها ويركبا الحنطور جنبًا إلى جنب. ومما يذكر أن صورة الزفاف لسعد زغلول وصفية، ظهر فيها العريس سعد جالسًا على مقعد، وكانت صفية واقفة وراءه! ولكن بعد الثورة بدأت صفية تظهر في الصور الفوتوغرافية جالسة إلى جواره أو واقفة بجانبه.

وحدث أن رفع سعد الحجاب عن وجه أبنة الشيخ علي يوسف في إحدى حفلات بيت الأمة، وكرر ذلك مع الآنسة "فكرية حسني" عندما ألقت خطابًا وعلى وجهها حجاب، فقال لها: إننا لا نسمع ما تقولين! ولكنه لم يحتمل ما فعلته "منيرة ثابت"، كيف يخرج رجل غريب مع آنسة غريبة في الشارع جنبًا إلى جنب؟! بل إنهما يتنزهان ويجلسان في الأماكن العامة؟! وفرض على منيرة والأستاذ عبد القادر حمزة – الزواج– مع أنهما كانا يعملان معًا في جريدة واحدة؟!

وبهت سعد زغلول من منيرة ثابت وهي تقول له: أنها موافقة على الزواج، ولكن الأستاذ عبد القادر حمزة متزوج وعنده أولاد، وهي لا تريد أن تكون لها ضرة، إنها ضد تعدد الزوجات.

والمعنى أنه عليه أن يطلق زوجته الأولى وقال لها سعد، لا تملكي تعديل نصوص القرآن يا منيرة، وقالت له أنا أتحدث بالشريعة: "ولن

تعدلوا"، وإذا بسعد يثور ويصيح إنك تفسرين القرآن بالفرنساوي الذي تجيديه! فقد اعتقدت منيرة ثابت أن الأربع كلمات السحرية، التي كررها "سعد زغلول" الدين لله والوطن للجميع، قد حيدت الدين عن نظر طموحات النسائية، وأن قبول الزعيم للسفور يعني قبوله للتبرج، وأنه إذا كان قد سمح لزوجته بقلع اليشمك، فإنه سيسمح للنساء ولها لخلع نصوص الدين!

وأسقط سعد زغلول "منيرة ثابت" من برجها العاجي، ومن ثورتها الفائرة وزوجها برجل متزوج، وقبلت أن تكون زوجته الثانية!

لقد أقنعها سعد زغلول بأنه لم يخلع الجبة والقفطان، ولكنه لبس فوقها الملابس الأفرنكي. وأن تحييد الدين الذي يفهمه سعد الأزهري، الأفندي، الفلاح، الثائر، الزوج بلا ولد، الأب لكل الشعب، السري، العلني، المنفي، الحاضر. هو التمهيد لدولة مصرية خالصة لا يقتلع فيها الدين من القلوب، ولكن يقتلع فيها "الباب العالي" من الحكم. دولة مدنية لا يتاجر في سياستها باسم الدين، وتهب حق المواطنة والتمثيل لمن يثبت صلاحه قبطي كان أم مسلم. إن عبارة الدين لله، لا تعني أنه لله وحده والناس لا علاقة لها به، وإنما تعني أن التقديس لله وحده والناس جميعًا عباده.

ويبدو أن صفية زغلول كانت تقر سعد فيما ارتضاه، فقضية المرأة متصلة بقضية وطنها ولا تنفصل عنه، فإذا قامت بدورها في "الوطنية" فعليها أن تعود وتجلس في بيتها، فقد رفضت من يقول أنها زعيمة الوفد بعد موت سعد. إنها تكمل رسالته ولا تعرف من أين تبدأ من بعد ما

انتهى، ويعتقد البعض كما سجلوا في كتاباتهم أن سفور صفية زغلول في إطار النسائية، ولكنها كانت تراه في إطار الوطنية وثورة ١٩!!

فلقد أدهش صفية زغلول أن "لجنة نساء الوفد"، عند المقاطعة المدنية لكل ما هو إنجليزي من بضائع، وتعاملات الذي قادته النساء الزغلوليات، إنهن يضع معظمهن "البودره" على وجوههن! وكانت إذا أرادت أن تصف فتاة بأنها مؤدبة، قالت: إنها لا تشرب القهوة ولا تضع ساقًا على ساق! وأذهلها عندما رافقتها "فهيمة ثابت" في سفرها لسعد زغلول في منفاه عند مرضه بجبل طارق، أن هذه المرأة الثورية التي تركت أسرتها وأولادها؛ لتكون في خدمتها وزوجها سعد لتقدمهما في السن- مدمنة قهوة وتدخن السجائر!

وبدى وكأنها تعيد أفكارها عن المرأة الفاضلة والمرأة الثائرة؟!

وحينما زارتها السيدة فاطمة نعمت راشد سنة ١٩٤١ مرتدية بنطلون، طالبة منها أن تكون رئيسة شرفية لأول حزب نساء في مصر، أسسته فاطمة نعمت راشد في ١٤٩٢، دار بينهما هذا الحديث:

صفية – لماذا لا تلبسين مثل النساء؟!

نعمت – تقصدين البنطلون.. إنه أكثر حشمة وحرية للمرأة العاملة.

صفية – ولكنه أكثر فتنة بالناس في الشارع، المرأة لا ترتدي البنطلون، إلا ذا خلع الرجل بنطلونه واعطاه لها!

وانصرفت فاطمة نعمت قبل أن تكمل فنجان الشاي، لقد سمعت

منها أنها لم ترفض زوجة النحاس لأنها مطلقة، وإنما لأنها تلبس البنطلون، وأنها لم ينطلق لسانها ضد امرأة بأنها سيئة السمعة. ولكن البنطلون يسيئ لسمعة المرأة "إنه يصفها يشفها"، ويبدو أن بنطلون فاطمة هانم كان من أنواع الأسترتش!

وفي حزبها الخاص قالت فاطمة نعمت: لقد كبرت وخرفت صفية زغلول، ذهبت لأكلمها عن أول حزب للنساء في مصر، فكلمتني عن البنطلون الذي جعل النحاس يترك أخت القاضي مصطفى حسن، ويتزوج بزينب الوكيل. أنها وقفت عند مسائل شكلية! وأسقطت المسائل الشكلية حزب فاطمة نعمت، حينما رأت أن من حق المرأة أن تكون ضابطة في القوات المسلحة؛ لأن من حقها دخول كل الوظائف، وسألوها إذن يمكن تكون مجندة وعسكري ومقاتلة، ولم ترد؟! ووزعت الجاتوه لتوقف الكلمات عن الألسنة!

فقصة سعد مع النساء ليست قصة غرامية مشتعلة– ولا فضحية صحفية صفراء – ولكنها جزء من تراث شعب. وقصة مستمرة كانت ولا تزال مثارة؟! وإن كان فيها كل ما يميز قصص النساء من تجاذب وتنافر، وعشق وهجران. فسعد زغلول زعيم مع مطالب الحريم، ولكنه زعيم أيضًا ضد تطرف الحريم؟! وهو مع حقوق المرأة العامة، التي تهمُّ كل النساء. ومستعد في ذلك أن يضع رأسه على كفه، ولكنه لا يتجاوز ذلك، ولا يتجاوب فيه!

وقد فعل سعد زغلول الكثير للنساء، وفقد وظيفة "وزير الحقانية" من أجل حقوق الأميرة "صالحة هانم"، فإحدى أميرات القصر الملكي، وهي صالحة كريمة الأمير إبراهيم حلمي عم الخديوي عباس حلمي الثاني. تزوجت من دبلوماسي روسي مسيحي هو "فلاديمير يوركومنيش"، وثارت ضجة حول هذا الزواج لأن الزوجة مسلمة، والزوج مسيحي. فأمر الخديوي بمحو اسمها من سجل أفراد أسرة مُحَمَّد علي، وتعيين قيد على أملاكها، ليقوم بتقديم كشف حساب عنها كل عام لوزير الحقانية، والذي كان وقتها "سعد زغلول"- وشعر سعد بأن هناك مؤامرة على ثروة تلك المرأة، وذلك لقيام القصر بالتدخل في إقصاء أمّها من الوصاية لصالح أبنائها من زوجها الأمير. واعترض سعد على اختيار السرايا الأول "مُحَمَّد باشا حسن"، وقال أنه لص تاريخه لا يؤهله للوصاية- فاختار الخديوي حسن محرم وكيل وزارة الحربية، الذي كان في نفس الوقت يد اللورد كيتشنر الإنجليزي وعينه على القصر! فلما راجع سعد زغلول هذا الحساب وجد فيه إجحافًا خطيرًا، فأمر بعزل حسين محرم وكان صديقًا حميمًا لكتشنر، وللسرايا أيضًا، فلما شكاه تحدث إليه كتشنر بأنه لم يعمل حسابًا لصداقة حسين محرم باللورد، وإقصائه من وظيفة تدر عليه دخلًا، وهو ما اعتبره سعد تدخلًا في صميم عمله كوزير..فاستقال.

ولكنه ضد نزوات النساء الخاصة، إنه لا يعتبرها تحرر وتقدمية، بل تخلف وعبودية. وذات يوم سمع "مصطفى وعلي أمين" سعد يتحدث غاضبًا عن سيدية اسمها "صفية" وبهت الطفلان، إن سعد يهاجم صفية هذه بعنف ومرارة، إنهما يعرفان أن ستهما اسمها صفية وهي زوجة سعد،

وهو يحبها كل الحب، ويحترمها أشد الاحترام، وإذا بالطفلين يبكيان في وقتٍ واحد حزنًا؛ لأن جدهما يشتم ستهما بهذه الألفاظ القاسية! وتنبه سعد إلى بكائهما ودهش، وسألهما عمّا يبكيهما؟ فقالا في صوتٍ واحد: لأنك تشتم ستي! وضحك سعد طويلًا وضحكت صفية زغلول، وقال سعد أنه لا يهاجم صفية زوجته، وإنما يهاجم صفية السادات أرملة صديقه الشيخ علي يوسف، وكانت هذه هي أول مرة يسمع فيها الطفلان سعد يقسو في الحديث عن امرأة!

وكان سر قسوته أنه سمع أن أرملة صديقه أحبت بعد وفاته ممثلًا مغنيًا اسمه زكي عكاشة، وأنها قد تتزوجه، وكان سعد ثائرًا على هذا التصرف، فقد رأى فيه عدوانًا على ذكرى صديقه، الذي أعطى هذه المرأة اسمه ومجده وحياته؛ فداست على كل هذا بالأقدام من أجل ممثل شاب! وهاجمت سعد زغلول "نبوية موسى"، و"منيرة ثابت"، و"روز اليوسف"، وقلن: إنها لم تخن زوجها ولكنها تتزوج بعد موته بـ٧ سنوات. ثم أنه عندما مات زوجها علي يوسف كانت صفية السادات في السادسة والعشرين، وقالت روز اليوسف: الآن زكي عكاشة مشخصاتي؟!

وقالت نبوية موسى: أخشى أن يفضل زعيم الوفد الطريقة الهندية في التعامل مع الأرملة بعد موت زوجها، فنحرقها حية مع جثة زوجها الميت!

وقالت منيرة: إن سعد زغلول يريد وفاء المرأة بعد الموت– ولا يعترف بوفاء الرجل في الحياة، أين وفاء الرجل إذا كان له زوجة ثانية وثالثة ورابعة؟!

ولكن سعد زغلول كرجل فلاح لم يتصور أن تنتهي قصة حب شهدها، هذه النهاية كان يعتبر أن "زكي عكاشة" نزوة. على صفية السادات أن تعلو فوقها وتتخطاها!

وكانت القصة التي أثارت سعد زغلول كل هذه الثورة، من الغرابة بمكان، فقد كان الشيخ علي يوسف فلاحًا فقيرًا في قرية بلصفورة في الصعيد، وجاء إلى القاهرة ودرس في الأزهر، ولكنه لم يستطع إتمام دراسته لشدة فقره. فعمل في الصحافة، وبرز فيها، وأصدر جريدة المؤيد، وأصبح الصحفي الأول في مصر. وكانت المؤيد تهاجم الإنجليز وتنشر مقالات مصطفى كامل، وكان سعد يساعد المؤيد ماليًا عندما تقع في صراعها مع الإنجليز. وأحب الشيخ علي يوسف الآنسة صفية السادات ابنة الشيخ السادات، وهو عميد أسرة عريقة تنتسب إلى سلالة الحسين أحفاد النبي. وتقدم الصحفي الأول إلى الحسيب النسيب يطلب يد ابنته. ووافق الأب في أول الأمر ثم تدخل خصوم الصحفي الأول، واقنعوا الأب بأنه لا يليق بكرامة أسرة السادات العظيمة أن تزوج ابنتها لصحفي وضيع الشأن من أسرة حقيرة، لا تنتسب للنبي ولا للخلفاء الراشدين. واقتنع الأب وصرف النظر عن الزواج، وإذا بالأنسة صفية تتصل سرًا بالصحفي الأول تبادله الخطابات الغرامية، وتتفق معه على أن تهرب من بيت أبيها وتتزوج منه. وفعلًا تم الزواج وفوجئ به الأب، ولم يكن سعد في أول الأم موافقًا على هروب صفية من بيت أبيها، ليتزوجها حبيبها الصحفي الأول. ولكنه لم يلبث أن وقف مع الصحفي علي يوسف، عندما رأى الرجعية كلها تقف ضده. فقد أوعز الإنجليز إلى الأب أن يرفع قضية أمام المحكمة الشرعية،

يطلب طلاق ابنته من الصحفي الأول بحجة عدم كفاءة علي يوسف لابنته؛ لأن نسبه حقير، وحرفته، وهي الصحافة: مهنة حقيرة بل أحقر الحرف، حرفة كلها عار وشنار لا يحترفها إلا كل متشرد آفاق، وكل من لا صناعة له، وكل من لفظته الأعمال الشريفة!

وفوجئ سعد بأغلبية الرأي تقف ضد الشيخ علي يوسف، وتقول أنه لا يجوز للصحفي الذي هو فلاح من أسرة غير منسبة، أن يتزوج من ابنة كبير الأشراف!

ووجد سعد نفسه في معسكر علي يوسف ضد أغلبية الرأي العام في مصر، إنه هو أيضًا فلاح مثل علي يوسف، إن أسرته لا تنتسب للنبي مثل علي يوسف. إنه كان صحفيًا مثل علي يوسف، ومع ذلك فقد تزوج من ابنة رئيس وزراء مصر، ولم يجرؤ أحد على أن يقول أن هذا الزواج غير متكافئ!

لم يصدق سعد زغلول أن صديقه– "الشيخ علي يوسف"، الذي صبر بعد حكم التفريق بينه وبين زوجته لمدة ثلاث سنوات، عاد بها يحمل البشوية– ووجد أن هذا الحادث قد أعاق زواج صفية السادات– فتزوجها مرة أخرى ومن يد أبيها الشيخ السادات، تنتهي قصته بأن تزوج أرملته من ممثل شاهدته وهو يؤدي دور روميو في مسرحية لشكسبير!

فإذا كان الطهطاوي تنبأ بفتح الباب للنساء ووقف ينظر من النافذة. وإذا كان الشيخ مُحَمَّد عبده لم يجد غضاضه دينية في فتح الباب، ولكنه أغلق على زوجته. وإذا كان قاسم أمين سهّل أمر فتح الباب وجعله مجرد

ستارة يسهل اختراقها؛ فإن سعد زغلول هو الذي قرر فتحه، ولكنه قرر أيضًا أن يبقي مفتاحه بيده. وتطورت نظريات الباب.. فاقترح فؤاد المهندس في مسرحية شهيرة له، أن نسكّ على البنات ونعطيهن المفتاح! وانتهى الأمر بأن نسكّ الباب ويبقى النساء في الشارع ومعهن المفاتيح! ولا يزال النساء يحلمن بباب مفتوح، وضياع المفاتيح!

ولذلك ولأسباب كثيرة آخرى قال سعد زعلول: مافيش فايدة!

المشاغبة .. صورة بحجرة الزعيم

١٨٥٥ -١٩٣٠

"يقول وأعود إلى زيارتي لبيت الأمة، أو بيت سعد زغلول، فقد لفتت نظري صورة معلقة في حجرة نوم سعد، وظننت في أول الأمر أن هذه الصورة هي صورة زوجته "صفية زغلول"، ولكن صديقي المؤرخ الفنان صلاح عيسى الذي كان يصاحبني في هذه الزيارة، قال لي: لا هذه صورة الأميرة المشاغبة "نازلي فاضل"، وتأملت الصورة جيدًا، وتعجبت أن تكون هناك صورة لأميرة في بيت زعيم الفقراء والثائر على الأمراء، أو "زعيم الرعاع" كما كان أعداء سعد يطلقون عليه تهوينًا لشأنه وتصغيرًا لمكانته، فالرعاع هم عامة الشعب، وهم الغوغاء في نظر الأرستقراطية التي كانت تضيق بشعبية سعد زغلول وحب الناس له".

رجاء النقّاش

وطرح السؤال نفسه من هي الأميرة نازلي التي وضع سعد زغلول صورتها الكبيرة في حجرة نومه. وأشتد إلحاح السؤال عندما قرأت هذا الحوار في كتاب "الهانم والزعيم" للكاتب الصحفي رشاد كامل، وجاء السفرجي يحمل الطعام، وتقدم به أولًا إلى "سعد زغلول" هكذا كانت التقاليد في ذلك الوقت، لكن السفرجي فوجئ بـ سعد وهو يشير إليه بتقديم الطعام إلى "صفية"، فوجئت "صفية" وكتمت دهشتها، لكنها

لاحظت أن ضيق سعد يتزايد، وكآبته تملأ وجهه وهموم الدنيا كلها تطل من عينيه، وبكل رقة وحنان سألته:

- مالك يا سعد؟! هل أنت مريض؟!

- رد سعد: ياريت.. بل هناك مصيبة أكبر من المرض!

دهشت "صفية" من الإجابة وعادت تسأل بقلق أكبر..

- خير يا سعد.. مصيبة إيه!

رد سعد وهو متجهم الوجه: السلطان فؤاد سيتزوج "نازلي"!

ولم تستطع "صفية" أن تخفي دهشتها وانفعالاتها، وربما فرحت وارتاحت وهدأ بالها، فلأول وهلة ظنت أن السلطان فؤاد سيتزوج "الأميرة نازلي فاضل"، غريمتها السابقة في حب سعد زغلول، لكنها سرعان ما أدركت أن الأميرة "نازلي فاضل" كانت قد توفيت منذ بضع سنوات! وعادت صفية لتسأل "سعد" بدهشة: "نازلي" مين التي سيتزوجها "السلطان فؤاد".

سكت "سعد" قليلًا وطال صمته، وخرجت زفرة حارة من صدره، وقال: نازلي خطيبة "سعيد زغلول" ابننا!

لم تملك "صفية" نفسها من الذهول وصدمة المفاجأة، وصرخت قائلة: مش معقول!! مش معقول!!

لكن "سعد زغلول" عاد يؤكد لها قائلًا: هذا ما حدث يا صفية!

ورغم تأكيد "سعد" لم تكن "صفية" تريد أن تصدق ما تسمعه، وقالت لسعد متسائلة وبدهشة: هل أنت متأكد يا سعد مما تقله الآن!

رد سعد وقد بدأ صبره الطويل ينفد: نعم يا صفية "السلطان فؤاد" سيتزوج نازلي بنت "عبد الرحيم باشا صبري"، والتي يريد سعيد ابننا خطبتها! وسكتت "صفية" من هول الصدمة!

وإذا كانت صفية زغلول سكتت من هول الصدمة، فقد تحركت من هول صدمة غير مباشرة أصابتني.

فرجاء النقّاش يقول: صورتها في غرفة نوم الزعيم وفوف رأسه في مخدعه؟!

ورشاد كامل يكتب: إنها غريمتها السابقة في حب سعد زغلول!

أما صلاح عيسى فيصفها: بالأميرة المشاغبة.

وإذا بقطع الميكانو تتجمع حينما ذكر كتاب "الأميرة التي هزت عرش الخليج؟!" عبارة: وفتنت"الأمير نازلي فاضل" الإمام مُحَّد عبده عن قضيته؛ فصار بينهما علاقة وثيقة وصلت لحد تبادل الرسائل الخاصة!

وبدأت البحث عن حبيبة الزعيم الأميرة المشاغبة التي وضع صورتها في حجرة نومه، ولأن سعد زغلول كان أكثر من صديق لعباس العقاد الذي قال في رثاء سعد زغلول:

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها   وأنثنى الشرق عليها فبكاها

والشمس هنا هي "سعد زغلول" في رأي العقاد. واعتقدت أن لوضع

الصورة هذه نفس معنى لوحة "الشهد والذباب"، التي طلبها العقاد من"صلاح طاهر الفنان التشكيلي المعروف"، طلب منه أن يرسم لوحة غريبة تحمل معاني الشعر الذي كتبه في حبيبته بعد أن هجرها، وهجرته فاتفقا على رسم فطيرة حلوة شهية يشتهيها الجائع والشبعان، ولكن حام حولها الذباب. فأصبحت هذه الفطيرة على هذه الصورة لا يقترب منها أحد، بل تعفّف النفس منها وتعزف العين عنها!

ووضع العقاد هذه الصورة في حجرة نومه.. وفوق سريره!

فقد عزف عن حبيبته كما تعزف العين عن هذه الفطيرة، والبعض يرون أنها ترجمة لأشعار للعقاد التي تقول:

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى	وأرتاد فيك اللهو بعد التعبد
وألقاك جسماً مستباحاً وطالما	لقيتك جم الخوف جم التردد
رويدك إني لا أراك مليئة	بلذة جثمان ولا طيب مشهد
جمالك سم في الضلوع وعثرة	ترد مهاد الصفو غير ممهد
إذا لم يكن بد من الحان والطلا	ففي غير بيت كان بالأمس مسجدي

إن نازلي فاضل، ومرجعي الأول هو بحث الدكتور الشناوي الصغير الممتع، هي: نازلي مصطفى فاضل ابنة الأمير مصطفى فاضل شقيق الخديوي إسماعيل، وعم الملك فؤاد، وقد كان المفروض أن يصبح مصطفى فاضل وليًا لعهد إسماعيل وحاكمًا لمصر من بعده، ولكن إسماعيل استخدم كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة من الرشوة والدسائس، وغير ذلك لكي يغير نظام الحكم للأكبر من أبناء هذه الأسرة، جعله مقصورًا على

أولاد إسماعيل وأحفاده، وبذلك تم استبعاد مصطفى فاضل من ولاية العهد، وأصبح الخديوي توفيق وليًا لعهد أبيه إسماعيل، ثم حاكمًا لمصر من بعده، وفي عهده وبمساعدته تم احتلال الإنجليز لمصر سنة ١٨٨٢، وقد حوّل مصطفى فاضل قصره إلى مدرسة أصبحت المدرسة الخديوية القديمة، وكان صاحب أكبر مكتبة خاصة في مصر، أصبحت فيما بعد هي دار الكتب المصرية، ومعظم كتبها كانت من عيون الأدب والتاريخ العربي التي كانت في حيازة الأمير مصطفى فاضل. وإذا كانت نازلي قد خرجت إلى الحياة العامة، بعد الاحتلال البريطاني والذي بسببه كان الشعور الشعبي يضطرم بالكره للسراي، فإن والدها – الأمير مصطفى فاضل– كان محبوبًا بين المصريين لموقفه من إسماعيل، ولانصرافه للعلم والأدب دون السياسة. وقد انعكس الجو الأدبي والفكري الراقي الذي نشأت فيه نازلي فاضل على سلوكها، ففتحت في قصرها الذي كان قائمًا إلى جوار قصر عابدين مكانًا، أو صالونًا يُلتقى فيه أهل العلم والأدب من صفوة المصريين الأصلاء في مصريتهم، مثل سعد زغلول وإبراهيم المويلحي والشيخ مُحَمَّد عبده، ولو لم يكن صالون "نازلي فاضل" يحتضن الفكر التحرري والتقدمي فقط، بل والثوري أيضًا. فكان يغشاه الفيلسوف والثائر جمال الدين الأفغاني، وتلميذه الصحفي "الشامي" الثائر أديب إسحق، يقول الدكتور الشناوي: "أنشأت الأميرة نازلي فاضل هذا الصالون داخل قصرها، فكان أول صالون أدبي في مصر الحديثة، وكان رواد هذا الصالون لا يكتفون بالحديث حول الأدب والشعر والأمثال والحكم، ولكنهم كانوا يتدارسون أحوال البلاد ذاتها سياسيًا وفكريًا وأدبيًا، كما كانوا يتصدون للكتب

الأجنبية التي تصدر عن مصر في الخارج، وتهاجم مصر والأحوال الاجتماعية فيها مثل كتاب "داركور" الفرنسي، الذي كان يعمل قاضيًا في المحاكم المختلطة المصرية، وهو كتاب عنوانه "سر تأخر المصريين"، فكانت الأميرة نازلي فاضل تدفع رواد صالونها لتفنيد هذه المزاعم بالحجج السليمة وبالأسلوب الأوروبي؛ أي الأسلوب المبني على الوقائع والبراهين العلمية والعقلية، وليس الأسلوب المبني على العاطفة والتعبيرات الإنشائية، وكانت الأميرة تدفع كل النفقات اللازمة لنشر آراء المصريين/ وردودهم على الذين ينتقدونهم ويستهينون بهم من الأوروبيين، سواء تم ذلك في كتاب أو في الصحف العربية والصحف الفرنسية.

"كل ذلك كان يتم دون أن تتباهى هذه الأميرة بما تفعل أو تمن به على شعب مصر"، ثم يقول الدكتور الشناوي: "إنه على عكس ما كان منتظرًا لهذه الأميرة النبيلة من التقدير والاحترام، فقد لقيت الأميرة تجاهلًا تاريخيًا يكاد يكون كاملًا، هذا فضلًا عن أن البعض تعرض لها ولعدد من أصدقائها، وعلى رأسهم الشيخ مُحَمَّد عبده بالتشكيك؛ لأن بعض الإنجليز كانوا من رواد صالونها، أو لأن كلمتها كانت ذات وزن وتأثير لدى السفارة البريطانية، والواقع أن الإنجليز كانوا يحترمونها ويقدرونها، وكانوا يرون في رواد صالونها هذا خلاصة الفكر الراقي بين الوطنيين المصريين الذين كان الإنجليز أنفسهم حريصين على تعرف نبضهم، ومحاولة استقطابهم إن أمكن، ولكن هل يمكننا إلا أن نشك في أن رواد هذا الصالون من أمثال سعد زغلول وقاسم أمين وقبلهم جميعًا مُحَمَّد عبده، كانوا مخلصين لمصر وفوق أي شبهة من شبهات العمالة للإنجليز، وأن تقرب

الإنجليز منهم لم يكن سوى سياسة وكياسة؟!

وهناك شهادة من رجل تثق في شهادته، ذكر فيها أنه كان زائرًا لصالون "مي زيادة" الأدبي – وصالون "نازلي فاضل"– الفكري، وأنه قد حضر قليلًا فى صالون نازلي وكثيرًا في صالون مي، ففي الأول الأرستقراطية والفرنسية. أما في صالون "مي" فنحن على سجيتنا نحلق مع لغة الضاد، وإن كانت مي تعرف أكثر من لغة "حددها العقاد لنا بخمسة". هذه هي شهادة الشيخ مصطفى عبد الرازق "١٨٨٥– ١٩٤٨"، والذي كان وزيرًا للأوقاف وشيخًا للأزهر وأستاذًا للفلسفة الإسلامية في جامعة القاهرة، وكان والده صديقًا للشيخ مُحَمَّد عبده، بل أن مصطفى عبد الرازق نفسه كان تلميذًا للشيخ الإمام، ومن أكثر الناس التصاقًا به ووفاء له ومعرفة بأفكاره، وقد كتب مصطفى عبد الرازق بحثًا عن أثر المرأة في حياة الشيخ مُحَمَّد عبده، يقول فيه: " إن صالون الأميرة نازلي فاضل كان مجتمعًا للعظماء، وقادة الرأي في مصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وقد اتصفت هذه الأميرة بصفات شخصية عالية، جعلتها تميز قيم الرجال، وتخص الشيخ مُحَمَّد عبده بمكانة تجمع بين الحب والإجلال.

وكتب بحثًا آخر عن صالون مي زيادة قال فيه: إن مي أميرة النهضة النسوية في الشرق، بل أميرة النهضة الشرقية على إطلاقها.

وشعرت من كتابات الشيخ مصطفى عبد الرازق أن الصالونين كانا متعاصرين، ولكن التاريخ يذكر أنهما كانا متعاقبين. صالون نازلي فاضل سابق، وصالون مي لاحق فقد بدأ صالون مي بعد وفاة الأميرة نازلي؛ فقد

توفت عام ١٩٤١. وفتحت مي صالونها في ذلك العام، ولمدة عشرون عامًا لاحقة، وتؤكد السيدة سيزا نبراوي في مذكراتها بأن "مي زيادة"، التحقت بالاتحاد النسائي شأنها شأن الكثيرات من المثقفات المصريات آنذاك– وكانت تؤيد اتجاهه السياسي والاجتماعي، وإن كانت تهتم أكثر بالموضوعات الأدبية – إلا أنها لم تعترض قط على عرضنا لأية قضية من قضايا المرأة – وبرغم أنها اطلعت على الكتب والمخطوطات التي سجلها صالون الأميرة "نازلي فاضل"، فإنها لم تكتب في الصحف إلا الموضوعات الأدبية والعلمية التي كانت مثارًا للجدل.

وأنها علقت على ما كتبه قاسم أمين حول كتاب المستشرق دراكور "سر تأخر المصريين"، في كتابه الأول "المصريون" بأنها محاولة جيدة لتحرير الرجل، فالمرأة تطالب بأن تكون متساوية بالرجل طالما أنها مثله في الواجبات والمسئوليات – فهل كل النساء مستعدات لذلك؟! وتساءلت "يا تُرى متى يرضى الرجل بتقرير هذه الحقيقة، أيُّها الرجل لقد أذللتني فكنت ذليلًا، حررني لتكون حرًا، حررني لتحرر الإنسان".

وأعود إلى صالون الأميرة نازلي فاضل، فعندما هاجم المستشرق الفرنسي "مسيو هانوتو" المسلمين والشرقيين، وانبرى الأستاذ الإمام مُحَمَّد عبده– مفتي الديار المصرية آنئذٍ– للرد عليه مركزًا على الجوانب العقائدية والتاريخية للإسلام، فإن "زينب فوّاز" قامت بالرد أيضًا متناولة دور المرأة في المعركة بين الشرق والغرب، ورفعت مبدأ نطالب به الآن، وهو تصميم السيدات على مقاطعة المنتجات الأوروبية، والتمسك بالمصنوعات المحلية

والوطنية. وقد أمسكت الأميرة نازلي بالقصاصات التي كتبتها زينب وقدمتها لقاسم أمين، وهي تقول له: انظر ما ترد به المرأة المصرية على الفرنسيين، ولكنك تهاجمنا مثلهم! والقصة الحقيقية لأفكار قاسم أمين ودور مُحَمَّد عبده والأميرة نازلي فاضل في تكوين هذه الأفكار، هي قصة تختلف تمامًا عمّا هو شائع: "عاد قاسم أمين في أواخر القرن الماضي من فرنسا، حيث درس القانون هناك، وكتب بعد عودته مباشرة عدة مقالات في جريدة "المؤيد"، ومن العجيب أن هذه المقالات التي كتبها قاسم أمين بعد عودته من فرنسا كانت قائمة على الهجوم العنيف ضد المرأة المصرية، والحطِّ من شأنها وطالب قاسم أمين في هذه المقالات أن تلزم المرأة المصرية بيتها، وأن يقتصر نشاطها على شئون أسرتها وألّا تخوض بأي شكل من الأشكال في الحياة العامة، تلك كانت هي البداية العجيبة لقاسم أمين الذي اشتهر بعد ذلك بأنه أكبر وأول داعي لتحرير المرأة، وتعليمها وخروجها إلى العمل والحياة العامة.

([3]) زينب أفندي فواز (١٨٤٥-١٩١٤) سبقت قاسم أمين وهدى شعراوي في تاريخ تحرير المرأة، اعتبرتها (درية شفيق معجزة المرأة المصرية التي لم ينتبه إليها أحد، وإن كان الأستاذ حلمي النمنم أصدر عنها كتابًا مؤخرًا ١٩٨٨م (لها أيضًا رواية بعنوان (حسن العواقب) منسية في تاريخ الأدب النسائي). ولها رأي يعتبر رائدًا في الحجاب، لا حجاب بيننا وبين درس العلوم واكتساب المعارف، فكشف الوجه واليدين ليس محرمًا على قول فريق عظيم من علماء الدين. ولكن العادة التي جرت على عدم كشفهما أخذت شكلًا عقائديًا، وهذا مكمن الخطأ فإذا كان النقاب عرفًا وعادة فلا قدسية له. وعلى علماء الدين ألا يجعلوا المرأة تنظر للدين كمسلمة من الدرجة الثانية، في مقابل الرجل المسلم الذي نراه يسهل له أشياء كريهة.

فماذا حدث بعد ذلك؟ "غضبت الأميرة نازلي فاضل بعد أن قرأت مقالات قاسم أمين ضد المرأة المصرية، وطلبت الأميرة من صديقها الشيخ مُحَّد عبده أن يصحح لصديقه قاسم أمين أفكاره، وأن يبلغه استياءها الشخصي وغضبها، وأنها مستعدة أن تناقشه فيما زعم بالحسنى قبل أن تهاجمه علنًا، فالمرأة المصرية في نظرها ليست بهذا السوء والضعف والتفاهة والانغلاق، وأن ما ينقصها هي الفرصة فقط وحرمانها من هذه الفرصة هو خطأ الرجال المصريين أولًا وأخيرًا، وهو نتيجة ظلم هؤلاء الرجال للمرأة".

حمل مُحَّد عبده رسالة الأميرة نازلي فاضل إلى صديقه قاسم أمين وقال له: إن المرأة المصرية متمدنة في فهمها للأمور، هو نفس فهم الرجل وإمكانياتها هي نفس إمكانياته، فقط اعطوها الفرصة، وأفرجوا عنها، ووجه الشيخ مُحَّد عبده إلى صديقه وتلميذه قاسم أمين دعوة إلى لقاء الأميرة نازلي في صالونها، ومن العجيب أن الشيخ مُحَّد عبده كان متزوجًا منذ صباه من سيدة أمّية لا تقرأ ولا تكتب، ومع ذلك كان متحمسًا لآراء الأميرة نازلي فاضل، مؤمنًا بها مستعدًا لتقديم الأدلة "الشرعية" على صحتها.

"ذهب قاسم أمين مع الشيخ الإمام إلى صالون نازلي فاضل، فوجد أمامه سيدة تتقن الفرنسية والإنجليزية والتركية كأبنائها، يحضر مجلسها قمم شامخة من رجالات مصر، ويجدون في هذا الصالون غذائهم الذهني والنفسي، وهي لا تجلس معهم فقط، ولا تتجاوز وتتجاوب معهم فكريًا وحسب، بل كانت أكثر من ذلك كله صاحبة رأيٍ مستقل ثاقب في الأمور الداخلية والشئون العالمية. ووجد قاسم أمين نفسه على حد قوله- أمام امرأة مصرية تدافع عن مصر ونساء مصر وحقوق مصر وكل ما يمت إلى

مصر بصلة، بل إنها تجادل الكتّاب الأوروبيين وتهاجمهم بشدة إذا تعرضوا لمصر بسوء، وهي تجادلهم في هذا كله جهادًا وعلانيةً عندما يزورونها في صالونها، وتفعل ذلك كله دون أى حرج وبلا مقابل تتوقعه، ودون طمع في أي مركز سياسي أو مكسب اجتماعي أو طنطنة إعلامية، إنها امرأة أصيلة إذن. خرج قاسم أمين من لقاء الأميرة ممسوسًا، وعلم من هذه الأميرة أن المرأة المصرية لو تعلمت لأصبحت خيرًا من المرأة الفرنسية، التي كان قد رآها وكتب متأثرًا برقيها وتقدمها ما كتبه ضد المرأة المصرية، كذلك عَلِمَ قاسم أمين من أستاذه وصديقه الشيخ مُحَّد عبده أن الإسلام يدعو إلى تعليم المرأة، بل ويجعل هذا التعليم واجبًا".

وهنا دفعت الشجاعة الأدبية قاسم أمين إلى مراجعة تفكيره، وكتابة ما يناقض أراءه الأولى ضد المرأة المصرية، وهكذا ظهر الكتابان الشهيران لقاسم أمين وهما "تحرير المرأة"، و"المرأة الجديدة" بفضل الشيخ مُحَّد عبده والأميرة نازلي فاضل معًا.

واستمر في لعبة المكانو ووضع الأجزاء في مكانها بحثًا عن سر الأميرة الغامضة، والصورة الغريبة لها الموجودة في منزل الزعيم سعد- حتى الآن- في بيت الأمة ولنسمع هذه الحكاية التي كتبها د. زكي مبارك في مقالة جميلة عام ١٩٣٠ عن سعد زغلول، بعنوان "غرام الزعيم" وبدأها بعبارة: إنني لم أقترف إثمًا، أو أسنّ سنةً سيئة، حيث أتحدث عن غرام رجل عظيم، فمن المحال أن تخلو قلوب العظماء من العواطف والأهواء. ليتحدث عن غرام سعد زغلول بعدها في فترة دراسته الأزهرية، وكيف أعجبته ابنة الشيخ الجوهري، الذي تصادف إن كان سكنه وقتها قريبًا منها، وأترك

الأمر لقلمه الجميل فيقول " إن سعدًا فلاحًا وابن فلاح، والفلاحون يخمدون نار الهوى بالزواج، فما الذي يمنع من أن يسلك مسلك الفلاحين الشرفاء، فيطلب القرب من أهل تلك المليحة الحوراء؟! ليسلم من نار هواه، وليعرف كيف يقبل على دروس الأزهر بعناية والتفات، تشجع الشيخ سعد فطلب يد ابنة الجوهري، فرده الجوهري برفق، وهو يجهل ما ينتظر عمامة سعد من سيطرة أدبية وسياسية على أبناء هذه البلاد. وهكذا قهر الهوى سعد زغلول، ورجع حزين القلب، كاسف البال، وقد خاب أمله في هواه إلى آخر الزمان، ثم نظر فرأى أن الفرار من الحي الأزهري واجب، لينجو من غمزات الذين شهدوا رده الأليم عن بيت هواه، وأبناء الريف تؤذيهم ثرثرة السفهاء. لابدّ من ترك الحي الأزهري ولكن أين يذهب؟ وماذا يصنع؟ إن أباه كان يرجو أن يصير من علماء الأزهر الشريف ومن أئمة الدين الحنيف، فكيف يخلف ظن أبيه بلا تهيب ولا استحياء؟

ثم بدا له أن الكرامة الذاتية من مقاصد الكرامة الدينية، فخلع العمامة والجبة والقفطان، ولبس الحلة الإفرنجية واحترف المحاماة، فأصبح اسمه "الأفوكاتو" سعد أفندي زغلول بشارع عابدين، وأمسى مكتبه سامرًا يلتقي فيه كرام الرجال، ولم يكن بد للقلب المجروح من دواء، وهل يداوى القلب المفطور بغير العمل الموصول؟

ويستمر د. زكي مبارك في مقاله "ثم عرف سعد التمهل والدقة بصلته بالشيخ مُحَمَّد عبده، فبدأ يوسع من دراسته للشريعة والسياسة. وعرفت قدماه مع شيخه الجليل طريقها لصالون شهير كبير يشبه صالونات فرنسا،

ويفوقها لأميره متحررة اسمها "نازلي فاضل" فإذا حاله ينقلب. ولسانه يعوج بدأ يتحدث الفرنسية، ويهتم بملابسه الأفرنجة، وأصبح عنده قبعة بجوار الطربوش وشعرت أنه داوى جروح القلب ودوخة العمل معًا!".

مرّ عام وعام وأعوام، وسعد يجاهد في سبيل المجد ليعرِّف من ردوه جاهلين أنهم أضاعوا "جوهرة"، لن يرى "الجوهري" مثلها ولو أضاع العمر في البحث والتنقيب، ثم استجاب الله لدعاء الوالدين الصالحين فاقترن سعد بفتاة هي "بنت مصطفى فهمي باشا رئيس وزراء مصر في ذلك العهد"، وهي الزوجة التي أصبحت معروفة في تاريخ مصر الحديث باسم "أم المصريين صفية زغلول". وتستمر القصة بعد ذلك حتى يصبح سعد زغلول زعيمًا للبلاد، ويعود من منفاه الذي فرضه عليه الإنجليز، فتقام له حفلتان لتكريمه في حي الأزهر. "أما الحفلة الأولى فكانت في دار البكري، وتردد فيها الهتاف بعبارة يحيا "الشيخ سعد"، أما الحفلة الأخرى فكانت.. أين كانت؟ كانت في دار الجوهري، الدار التي ردت سعدًا خائبًا قبل أعوام بعيدة. وجرى الهتاف لسعد في بيت الجوهري أيضًا بعبارة: "يحيا الشيخ سعد"، والتفت سعد ذات اليمين وذات الشمال، وسمح لعينيه بدمعتين محترقتين، هما التحية لهواه الذي ذهب إلى غير معاد". ويفجر د. زكي مبارك سؤال يضاف للأسئلة ما معنى: أن حال سعد زغلول تقلب ولسانه يعوج، وبدأ يتحدث الفرنسية ويهتم بملابسه الأفرنجية، وأصبح عنده قبعة بجوار الطربوش؟! إن الأمر يشبه أغنية شادية "يجي أبويا يعوز فنجان قهوة أعمله شاي وأسقيه لأمي.. وخيالك يجي على سهوا ما فرَّقش ما بين خلتي وعمي!"، إنه أقرب ما يكون لما استنتجه عمنا "رشاد كامل" في كتابه

الصغير "الهانم والزعيم"! وإذا كان الأمر كذلك، فكيف سمحت الزوجة الزعيمة الشدية القوى "صفية زغلول– أم المصريين" بأن تكون الصورة فوقها في غرفة النوم؟!

الأقرب للمنطق ما توصل إليه رجاء النقّاش في مقاله المنشور في الأهرام، بعنوان "الشيخ والصالون" وإن كان يقصد بالشيخ "مُحَمَّد عبده"، فيقول: بعد أن تعرَّف سعد زغلول عن طريق الشيخ مُحَمَّد عبده على الأميرة نازلي فاضل، أختارته الأميرة محاميًا لها، وكان لها في حياته أثر كبير جدًا "قد نصحته بدراسة اللغة الفرنسية، ودراسة الثانوية بالفرنسية، ثم هي التي زوجته من "صفية" كريمة مصطفى باشا فهمي –رئيس وزراء مصر لمدة ١٥ سنة– وكان سعد زغلول فلاحًا ابن فلاح، وكان مصطفى فهمي والد صفية تركيًا، وكان الرجل الأثير عند الإنجليز، والسياسي صاحب الكلمة المطلقة في مصر في عهد الاحتلال الأول، وإذا كانت "نازلي فاضل" هي التي دفعت سعد زغلول إلى تعلم الفرنسية، وزوجته– وهو الفلاح– من صفية ابنة مصطفى فهمي التركي الأرستقراطي المتعالي على الفلاحين، فإن ذلك كله يساعدنا على إدراك مقدرة نازلي فاضل الفائقة على حسن الاختيار والتمييز، وعلى فهمها الصحيح لمعادن الرجال؛ فقد أدركت قوة شخصية سعد واكتشفت في وقتٍ مبكر عناصر "الزعامة والعظمة" في هذه الشخصية. وبعد أن تزوجت صفية فهمي من سعد زغلول نسيت انتماءها التركي، وانتمت إلى زوجها الفلاح وساعدته أعظم المساعدة في كفاحه الوطني، وأصبح اسمها أم المصريين صفية زغلول، وهذا هو السبب في اعتزاز سعد زغلول بالأميرة نازلي فاضل، وحرصه على وضع صورتها في

حجرة نومه في بيته الذي سُمي باسم "بيت الأمة"، وأصبح متحفًا قوميًا بعد وفاة صفية زغلول سنة ١٩٤٦.

وما نعرفه عن حياة الأميرة نازلي فاضل التي يصفها صلاح عيسى بالمشاغبة، أنها تزوجت في صباها من أحد الأتراك، هو "خليل شريف باشا" الذي صحبها إلى باريس، حيث عاشت معه عدة سنوات– فيما يقال– وهناك اتصلت بثقافة باريس اتصالًا وثيقًا، عن طريق القراءة والتجربة معًا، ومن باريس وثقافة باريس وسحر باريس، تشبعت نازلي فاضل بفكرة "الصالون الأدبي"، فهذه الفكرة كانت شائعة في فرنسا في القرن العشرين؛ فقد انتقلت الصالونات إلى المقاهي الباريسية المشهورة التي لا تزل موجودة، ومن الواضح أن الفكرة الفرنسية عن "الصالونات"، قد تأصلت تمامًا في ذهن نازلي فاضل، فنقلتها من باريس إلى قصرها الذي كان يقع خلف قصر عابدين؛ أي أن صالون نازلي فاضل ببساطة ولد فكريًا في باريس، وتحقق واقعيًا في عابدين، بعد أن عادت الأميرة نازلي من باريس على أثر انفصالها عن زوجها الأول الثري التركي "خليل شريف باشا". على أن حياة الأميرة نازلي فاضل الشخصية بعد طلاقها من زوجها التركي "خليل شريف باشا"، توجد فيها صفحة غريبة أخرى، هي زواجها من شاب تونسي هو "السيد خليل بوحاجب"، وكان آنذاك رئيسًا لوزراء تونس، وقد كان وقتها زواجًا بين أميرة كبيرة وزعيم خطير!

وفي ألبوم صور سعد اللبّان وزير المعارف في وزارة علي ماهر، التي ألّفها مع قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، صورة فيها الأميرة نازلي بشعرها الطويل في فستان بكم في طول شعرها، ولكنها بدون حجاب يحفُّ بها سعد

زغلول، ومُحَمَّد عبده، وقاسم أمين، والشيخ عبد الكريم سليمان، وزوجها بوحاجب التونسي، ومجموعة من كرام التونسيين، وبالطبع لا تنتهي حكايتها– فقد عادت بعد ذلك إلى مصر دون زوجها، واستمر صالونها.

وفي سنة ١٩٨٠ ظهر كتاب استفز الجمعيات النسائية، عنوانه "الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار"، أذكر أنني ناقشت فيه السيدة "أمينة السعيد "، وقالت لي وقتها أن كاتبه مكانه مستشفى المجانين؛ لأنه يهذي بكلام لا يصدقه عاقل، لأنه كتاب ضد التاريخ، وفيه اتهم "دريّة شفيق" بأنها أسست حزب "بنت النيل"، ومجلتها من أموال السفارة البريطانية في مصر! واتهم فيه صالون الأميرة نازلي فاضل بالاستعمارية، وأنه كان يتلقى أوامره من اللورد كرومر شخصيًا "المعتمد البريطاني في مصر وقتها"، واعتبره الكاتب صالونًا ضد الآداب والتقاليد الإسلامية، وأنه سمح به بالاختلاط. وهاجم الكتاب أيضًا هدى شعراوي. وأذكر أن الأستاذة "أمينة السعد" دافعت بشدة عن هدى شعراوي ودريّة شفيق، وأذكر في ذلك ما قلته من أن درية شفيق حصلت على الدكتوراه من فرنسا، وموضوعها "المرأة في الإسلام"، وأنها كانت لا تجيد الإنجليزية ولكنها تعرف الفرنسية كأهلها، وكان الأكساه يخرج من فمها "باريسي". بل إنها كانت ثورية ضد الإنجليز، ولكنها أنهت إجاباتها وثورتها بدون كلمة بالإيجاب أو السلب في حق الأميرة نازلي فاضل؟!

وأذكر أن الكتاب أشار إلى اسم "رونالد ستورز" الذي كان مستشارًا شرفيًا للسفارة البريطانية، وأكد أنه عضو شرف دائم في صالون الأميرة نازلي!! وذكر الكتاب في وصف الرجل على لسان "السيد فهمي

الشناوي"، أنه "رجل استعماري خطير، وقد عمل في مصر منذ سنة ١٩٠٤، وكتب مذكّراته بتفصيل وتطويل كاملين لمدة ثلاثين عامًا، واشترك في صنع الوزراء والملوك والمؤامرات، و"ثورة لورنس" المسماة باسم "الثورة العربية الكبرى"، كما ساهم في إعادة الصهيونية إلى التاريخ بعد موتها بألفي عام، ولم تكن تفوته في تدوين مذكّراته، شأن كل السفراء الإنجليز وأعوانهم، أدق التفاصيل".

وعند العودة لمذكّرات "رونالد ستورز"، نجد ما يأتي "وهو جزء طريف عن الأميرة نازلي فاضل": "هي الأميرة الوحيدة من البيت المالك في مصر المتكلمة والمتحررة، وقد دخلت علينا في الساعة الثالثة وظلت تتكلم حتى الرابعة والربع في إنجليزية رائعة، دون أن تعطي فرصة لأحد في الكلام. لقد كانت جميلة يومًا ما، ولكنها الآن لمّاحة، ولها عينان فيهما نفاذ غريب، وهي لا تخفي الاستهانة بملوك أسرتها– أسرة مُحَمَّد علي– واحدًا وراء الآخر". ويصف "رونالد ستورز" قصرها فيقول: "تدخل قصرها حيث يوجد خلف البوابة عدد من الخدم الذين يسمون "بالأغوات"، وكل "آغا" يُسمى باسم زهرة أو حجر كريم. ثم تدوس على طرقات مفروشة بالظلط، ومغروس فيها أشجار ظليلة، وترقد تحتها "قطط ملكية"، ثم عليك أن تصيح "يا ساتر أو يا ستّار"، ومعنى ذلك أن رجلًا في الطريق، وأن على نساء البيت أن يحتجبن، وسرعان ما يجري عبد أو عبدان وهما يضحكان في خفة ولطف على السلم أمامك، ليبلغا "البرنسيسة" بوصولك. ثم تدخل إلى الصالون وتنتظر.. لابدّ أن تنتظر ولو دقيقة، ولكن لابدّ من هذا الانتظار حتى لو كان الموعد محددًا من قبل، وحجرة الصالون لو تأملتها

شعرت بالخوف، ولكنها على أي حال تعبر عن شخصية هذه السيدة".

وفي جزء آخر من مذكراته يقول: "كانت الأميرة نازلي وراء الثورة العُرابية وفتحت قصرها لضيافة رجالها، كانت تريد أن تنتقم لحق أبيها الضائع في العرش. بعد أن خلخل الخديوي إسماعيل أساس التوارث فيه.."، كان من الممكن أن تكون سيدة سياسية من الطراز الأول، ولكن وضع المرأة في مصر لم يكن يسمح بذلك، فوضحت رؤيتها الأوروبية لرجال أعتقدت بحكم ثقافتهم أنهم قادرون على تغير الواقع والتاريخ، وكانوا يسمعون لها وكأنها حورية أو جنية من قصصهم الغريبة في "ألف ليلة وليلة".

ويستمر ستورز"[٤]"في مذكّراته: "ولا شك أن الأميرة نازلي فاضل، كانت تستطيع أن تفجر في صالونها موضوعات تمثل المحرم عند المصريين، كالحب والمرأة، وكنت أعتقد أنها لن تستطيع أن تجد في ذلك نجاحًا، حتى أسمعتني في أحد الأيام قصة حب جميلة بين المحامي المصري قاسم أمين، وفتاة أحبها أثناء دراسته في فرنسا اسمها "سلافا"! وعندما تعرفت على قاسم أمين في أحد جلساتها شعرت بأنه يخدعها، فلا يمكن لرجل بهذا الخجل تكون له تجارب الحب التي سمعتها منها، وعندما تجاذبنا الحديث وجدته شخصية

---

(٤) أديب إسحق (سوري) عمل في الصحافة المصرية، ووصل إلى سكرتير البرلمان المصري في برلمان (توفيق– عرابي)، وحينما أسقطت الثورة العُرابية (وزارة رياض) قال لعرابي: لقد أسقطت ستورز أن رياض هذا (رياض ستورز) يتلقى أوامره منه– إن ستورز ليس مستشارًا للسفارة البريطانية، ولكنه مستشارًا لوزارة رياض! ولنا أن نتصور صالونًا واحدًا جلس فيه (أديب إسحق) بجوار (ستورز)؟!

منظمة جدًا حتى أنه كان يخص زوجته بساعتين يوميًا، وبشكل منتظم من الخامسة إلى السابعة، ويقضي بعدها مع كتبه ثلاث ساعات من السابعة حتى العاشرة، وحينما سألته وماذا بعد العاشرة. لم تكن عنده إجابة؟!"، ويقول: "ولمّا لم أفهم تفكهت الأميرة نازلي ففهمت أنه موعد نومه، قالت له: لماذا يا قاسم بيه لا تجعل لزوجتك نفس الساعتين من الثامنة إلى العاشرة؟! وضحكت وضحكت ولكن باقي الجالسين لم يفهموا ما قصدت!".

ويقول أستورز في موضع آخر "كنت أؤثر وبعض زملائي أن نزورها في غير مواعيدها التي حددتها لصالونها، حتى نستطيع أن ننعم بما عندها من أنواع فاخرة من النبيذ! ولكنها لم تكن تشاركنا".

أما د. آمال السُبكي في كتابها "الحركة النسائية في مصر"، فإنها تقرر أن صالون نازلي فاضل جعل الرجال الأفذاذ يفكرون في قضايا مختلفة، لم تكن تهمهم من قبل.

١- ضرورة رفع الحجاب.

٢- أهمية تعليم المرأة.

٣- تقييد حق الرجل في الطلاق.

٤- حق المرأة في العمل.

٥- كيفية الحد من تعدد الزوجات.

فهل حدث في صالون نازلي فاضل ما حدث في صالون مي؟! هل أحبها الفضلاء كما أحب مي الأدباء؟!

إن المرحوم "حسن أحمد حسن" المدرس بكلية الفنون الجميلة رسم مي زيادة، فجعلها تنام على الأقلام، على أسنة الأقلام كفقراء الهنود حينما ينامون على المسامير؛ أي جعل الجميع مشترك في تعذيبها، ولكن الأدباء يتحدثون أما الفضلاء فيصمدون. فلقد وجدنا جملة رسائل بين مي والأدباء في عصرها: عباس العقاد، أحمد لطفي السيد، أنطوان بك الجميل، الشيخ مصطفى عبد الرازق، جبران خليل جبران، ولي الدين يكن، أمين الريحاني.

وفي عام ١٩٧١ نشر عامر العقاد بعض رسائل مي والعقاد، وقال في فصل عنها لو جمعت الرسائل التي كتبتها مي، أو كتبت لها لكانت بضع مجلدات!!

ولقد وجد د.عثمان أمين أحد كبار المفكرين المعاصرين، الذين اهتموا بتراث مُحَمَّد عبده- خطاب بالفرنسية كتبته الأميرة بخطها إلى الشيخ مُحَمَّد عبده، تدعوه فيه إلى القدوم لرؤيتها، ونصه "صديقي العزيز: أرجوك أن تحضر لرؤيتي هذا المساء بعد الساعة السابعة، أنا آسفة إذا فاتتني رؤيتك أمس.. والتوقيع صديقتك المخلصة: نازلي".

وإذا كان هذا ما حدث مع الشيخ مُحَمَّد عبده علي سن ورمح، "صديقي العزيز/ الساعة السابعة/ نازلي"، فما نوع الخطابات التي يمكن تخيلها بينها وبين سعد زغلول- محاميها- ومكمن سرها؟!

إن العقاد له مقال جميل عنوانه "رجال حول مي"، يصف فيه أثر مي زيادة وصالونها على زوّارها، هذا المقال يبرز من خلال دقة الملاحظة ما كان عليه هؤلاء المترددون على صالون الأدبية "مي".

العقاد: لكل منهم أسلوبه في تعبيره "لطفي السيد وأسلوب الجنتلمان الفيلسوف. وعبد العزيز فهمي وأسلوب الصمت الخجول، كأنه الصبي في مجلس الفتيات القريبات. وشلبي شميل وأسلوب المصارع في حلبة الفكر والشعور. وسليم سركيس وأسلوب الدعاية للبيوتات في صالون مي أشهر صالونات البيوت. ومصطفى صادق الرافعي، وأسلوب المفاجأة بالكتابة الذي يغني الإطلاع عليها عن السماع. وإسماعيل صبري عبد الله وأسلوب الشاعر، الذي يعلم أن حق الغزل الصريح أولى بالرعاية من حق الكتابة والتلميح، وهو الذي كان يكتب الأبيات قبل يوم الزيارة مستئذنًا في الحضور.

إن لم أمتــع بمــي ناظــري غــداً لا كـــان صـــبحك يا يـــوم

ولأنيس منصور في كتابه "في صالون العقاد كان لنا أيام"، هذه العبارة القاسية: هل كانت مي زيادة غانية تتحدث في الأدب– أو أديبة تعرف الفجور– إنها لا هذا ولا ذاك، وإنما أوقعتها الأقدار في أوكار الذئب الفكري للرجل الشرقي، لقد حاول أن يجرب معها الجميع!

وحتى لا يحدث عندي وعندك تداعي أو استرسال أو رؤية تطابقية، بين الصالونين أتحدث عن النتائج. ما الذي فعله صالون الأميرة نازلي فاضل في القمم؟ الذين انضموا له ولها عن رضاء واقتناع وبقوة: رفاعة

رافع الطهطاوي، الشيخ مُحَمَّد عبده والزميلين سعد زغلول، وقاسم أمين في قضية تحرير المرأة، والأربعة للمصادفة البحتة أتقنوا الفرنسية! فإنه يحكي، وعاد قاسم أمين إلى مصر في صيف ١٨٨٥ ليعين في سلك النيابة، فيتعرف على أحمد لطفي السيد، ثم يعين بقرار واحد مع سعد زغلول ليكونا قاضيين بمحكمة الاستئناف. كان كل منهم مهمومًا بما اعتاد عليه الناس، أما قاسم أمين فقد أمضى سنوات طويلة يفكر فيما اعتاد عليه الناس في العلاقة بين الرجل والمرأة، وأدرك أن المجتمع المصري بضع الرجل والمرأة على أبعد مسافة ممكنة بعضهما عن بعض. وهنا لمعت فكرة كتابه "تحرير المرأة"، وعرض قاسم أمين على صديقه أحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوي مشاركته في الكتاب، ولكن الخوف تغلب على أحد شفيق، فاعتذر بقوله "الناس لم تتهيأ بعد لقبول مثل هذه الدعوة"، ثم انتهز فرص اصطيافه في جنيف مع أحمد لطفي السيد وسعد زغلول سنة ١٨٩٨، فعرض عليهما أفكاره وطلب مشاركتهما معه ولكنهما اعتذرا! إلا أن بعض الباحثين يرى أن كتاب "تحرير المرأة" ليس عملاً فرديًا لقاسم أمين، ولكنه عمل جماعي كتب فيه الشيخ مُحَمَّد عبده، الفصول الخاصة برأي الشريعة والإسلام في الزواج والطلاق والحجاب وتعدد الزوجات، وإن الأفكار الخاصة بالحرية كتبها لطفي السيد، وإن من يقرأ مذكرات سعد زغلول وهذا الكتاب يستطيع أن يلمح بصمات سعد زغلول عليه!

وفي سنة ١٨٩٩ استقر رأي قاسم أمين على شيء، لقد سأل نفسه: من الذي يحب صاحبه أكثر، أهو الذي يكشف الستار عن عيوبه، أو الذي يغض البصر عنها؟ وأختار أن يكون الصديق المكروه لا العدو

المحبوب، وكتب كتابه "تحرير المرأة"، وقال قاسم أمين: "إنه لا يجد نصًا في الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة، ولكنها عادة الدين منها براء"، وبعد أن جرد الحجاب من هذه الحماية الوهمية يرد قاسم أمين على نظرة المجتمع للحجاب، "هل الحجاب مانع من الفتنة؟ هل اعتبرت عزيمة الرجل أضعف من عزيمة المرأة حتى أبيح للرجال أن يكشفوا وجوههم لأعين النساء، ومنع النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال؟ إن أسباب الفتنة ليست فيما ظهر من أعضاء المرأة وما خفي، بل فيما يصدر عنها من أفاعيل في أثناء سيرها، والنقاب من أشد أعوان المرأة على ذلك، إذ هو يخفي شخصيتها، ولو كان وجهها مكشوفًا فإن كرامتها ونسبتها إلى عائلتها يشعراها بالحياء، والخجل في كل عمل يتوهم منه أدنى رغبة منها في استلفات الأنظار، ولكنه بعد ثلاث صفحات يضع تحفظًا آخر "إني لا أقصد رفع الحجاب دفعة واحدة والنساء على ما هن عليه اليوم، فإن هذا الانقلاب ربما ينشأ عنه مفاسد جمّة لا يتأتى معها الوصول إلى الغرض".

فلا نعرف أهو يهاجم الحجاب أم يهاجم منظر المرأة، وهي تبدو كخيمة تمشي على قدمين، خيمة لا يبدو منها سوى ثقبين يسمحان لعينيها بالرؤية! ورغم هذه المطالب المتواضعة المرتعشة، التي لو عرفتها الآن ابنتي "رانيا" في رجل لاعتبرته رجعيًا سلفيًا، إلا أن الدنيا قامت على "قاسم أمين" ولم تقعد، وصدر في مواجهة كتاب واحد له أربعون كتابًا آخر، بل إن الزعيم مصطفى كامل هاجمه في صحيفته واعتبره متآمرًا مع الشيخ مُحَمَّد عبده مفتي الديار المصرية!

ومن هذه الكتب المعارضة لكتاب "تحرير المرأة": الجليس الأنيس في

التحذير مما في تحرير المرأة من التلبيس، "والدفع المتين في الرد علي قاسم بك أمين"، وكان من ضمن ما قال قاسم أمين عبارة غريبة لم يلتفت إليها أحد، إلا أنه في عام ١٩٧١ التفتت إليها نوال السعداوي، فكتبت كتاب "المرأة والجنس"، أما العبارة: "إن المرأة التي تقدم لزوجها المتعة يجب أن تحس هي أيضًا معه بالمتعة، وإذا أعطت لابنها الحرية فيجب ألا تحرم منها، وإذا طالبناها أن تمنح الأسرة السادة فيجب أن تكون هي أول من يحصل عليها، ففاقد الشيء لا يعطيه، فيجب ألا يكون في قاموسنا الشعوري واللاشعوري مترادفات لكلمة المرأة، تعني النزوة والخيانة والسرير والشهوة والضعف".

ولكن قاسم أمين اعترف بأن ما يكتبه غريبًا: سيقول قوم إن ما أنشره اليوم بدعة!

وإذا بسعد زغلول يفعل ما جاء في الكتاب، بينما صاحب الكتاب نفسه قاسم أمين يعجز عن ذلك، أقلع سعد زغلول عن القمار، حتى يعطي لنفسه وقتًا يناغش ويسلي "زوجته"، واستمر قاسم أمين على الترابيزة الخضراء، حتى وقع خلاف بين الصديقين فيما بعد، حينما زاد توقيع سعد على ضمان ديون صديقة؟ علَّم سعد زغلول زوجته وأحضر لها مدرسًا، وأعطى لنفسه وقتًا للدراسة، واستولى قاسم أمين على أموال زوجته! ومات سعد على حضن امرأته، ومات قاسم وفي جيبه شيئًا واحدًا صورة لامرأة أخرى، هي إحدى المطربات الجميلات في ذلك العصر واسمها "وسيلة"، لقد أعتنق سعد زغلول قضية الأميرة نازلي فاضل أمام قاسم أمين فاكتفى بكتاباتها.

وفي مجلة "نصف الدنيا" مقالة جميلة للمبدعة "سناء البيسي"، توضح بالتفصيل كيف كانت زوجة قاسم أمين تذهب لمنزل سعد شاكية باكية، تلعن اليوم الذي عرفت فيه هذا الرجل؟! لقد أخذ فلوسها وأفلسها! ويكتب عن ذلك "مصطفى أمين" في كتابه: من واحد لعشرة. إن بعض الناس يسألون في دهشة: ما سر حماس هذا الرجل الفلاح الأزهري للمرأة المصرية؟! ما الذي جعله يشجع صديقه قاسم أمين على إصدار كتابه عن تحرير المرأة، ويقف إلى جواره في الحرب التي أعلنها الرجعيون ضد سفور المرأة؟ ما الذي جعله يؤيد سفورها في ثورة ١٩١٩؟ ويقول على لسان سعد زغلول نفسه "بعض الناس يعتقدون أن الفضل في آرائي التقدمية بشأن المرأة يعود إلى زوجتي صفية، وهذا غير صحيح. وبعض الناس يتصور أنني أخذت من زياراتي لباريس للحصول على ليسانس الحقوق، إيماني بالمرأة، وهذا غير صحيح أيضًا الواقع، إننى مدين بإيماني بحق المرأة في الحرية والمساواة لأمي "مريم بركات"، كانت أمي فلاحة لا تقرأ ولا تكتب، ومات أبي وتركني أنا وأخي فتحي وأختي أم رتيبة وسعيد أطفالًا، وكانت أمي صغيرة السن عندما أصبحت أرملة، وكانت جميلة، وكان أولاد أبي من زوجته الأولى أكبر منها سنًا. وحاول أعيان الناحية أن يتقدموا إليها عارضين الزواج، فأبت وقالت: إننى سأكرس حياتى لتربية أولادي، واستطاعت وحدها أن تقاوم الإغراء والضغوط من أسرتها، كي تتزوج مرة أخرى. وإذا بها وهي امرأة تصبح عميدة الأسرة كلها. لقد تمكنت بقوة شخصيتها أن تفرض احترامها على كبار الأسرة الرجال، ثم فرضت شخصيتها على القرى المجاورة. وكنت أرى الرجال يحضرون للاحتكام إليها

في خلافاتهم، وقد ورثت عن أبي اندفاعه وثورته، وورثت عن أمي حكمتها وحسن تدبيرها، فعندما أغضب فهذا هو أبي، وعندما أكون حكيمًا فهذه هي أمي، وحينما اندفع فهذه هي ثورة أبي، وعندما أتدبر أمري وأسوس نفسي، فهذه هي سيايسة أمي وحكمتها. وكنت معجبًا بشخصية أمي القوية وثباتها وصمودها، وهذا هو الذي جعلني أتمسك بإيماني بالمرأة، فإذا كانت أمي الفلاحة الأمية قد استطاعت أن تفعل كل هذا، فإن من حق المرأة المصرية أن تتساوى بالرجل"، وفي موضع آخر: "وكثيرًا ما كان سعد يدعو عبد الرحمن فهمي لتناول الغداء معه في بيته مع أفراد أسرته، وكان "الطفلان" يقصد علي ومصطفى أمين يلاحظان دائمًا شيئًا غريبًا. وهو أن عبد الرحمن لم يجئ مرة واحدة إلى بيت سعد مع زوجته، وكان متزوجًا لمرة الثانية. وكان الطفلان يلاحظان أن عبد الرحمن عندما يحضر للغداء، كانا يتخليان له عن المقعد الأول في المائدة على يسار سعد. ويتأخر مكانهما إلى المقعدين التاليين، وكانت صفية تجلس في المقعد المقابل له عن يمين سعد. وكان عبد الرحمن عندما يجلس يضع عينيه دائمًا في الطبق الذي أمامه، ولا يرفعها في وجه صفية، ولا في وجه والدتهما. وكان لا يوجه الحديث إلا لسعد باعتبار أن صفية ورتيبة غير موجودتين على الإطلاق! وكان غريبًا في تلك الأيام أن يُدعى رجل من غير أفراد الأسرة للجلوس على مائدة واحدة مع سيدات الأسرة، ولكن الفلاح الأزهري القديم سعد زغلول كان لا يجد غضاضة في أن يجلس أصدقاؤه المقربون مع أسرته لتناول الغذاء والعشاء".

وفي موضع ثالث: "وكانت هذه ظاهرة غريبة في بيت سعد زغلول! إن

معاصريه ما كانوا يسمحوا لزوجاتهم برؤية أصدقائهم، ولا يذكر أحد من أصدقاء عدلي يكن باشا أنه رأى وجه زوجته. ولا يذكر أقرب صديق لحسين رشدي باشا أنه تناول معه الغداء في حضور زوجته، بل الأغرب من هذا كله أن قاسم أمين زعيم تحرير المرأة، كان يتردد باستمر على بيت سعد زغلول ويتناول الغداء معه ومع صفية، ولكن زوجة قاسم أمين لم تحضر هذا الغداء الدوري مرة واحدة!".

ويذكر "مصطفى أمين" بعد وفاة قاسم أمين بعشر سنوات، أن زوجته كانت تأتي بين وقت وآخر لزيارة صفية زغلول، فلا تكشف وجهها أمامهما، بل إنها إذا تناولت الغداء مع صفية، كانت تعد لها مائدة في غرفة أخرى، ويتناول سعد الطعام وحده، ذلك أن قاسم أمين الرجل الذي دعا المرأة المصرية إلى نزع الحجاب، فشل في إقناع زوجته بأن تنزع حجابها، وظلت متمسكة بوضع الحجاب على وجهها إلى ما بعد أن نزعت أغلب المصريات حجابهن! على فكرة – مصطفى أمين– يتحدث بصفة عامة عن النقاب بمعنى الحجاب؟!".

وكان أكثر ما يؤلم قاسم أمين، أنه لم يفلح في إقناع زوجته التي تقيم معه في بيت واحد بالرسالة التي آمن بها!

ولقد سبب حماس سعد للمرأة المصرية كثيرًا من المتاعب له. فعندما أصبح وزيرًا للمعارف واهتم بتعليم البنات ثار عليه الخديوي، وهاجمته الصحف واتهمته بالخروج على الدين الحنيف! وكان من رأى سعد دائمًا أن أي ثورة في مصر لا يمكن أن تنجح، إلا إذا اشتركت فيها المرأة مع الرجل،

وكان هذا الرأي يلقى معارضة شديدة من أصدقائه، الذين يعدون معه للثورة وخاصة الشباب منهم؟ وكان سعد يردد دائمًا قصة وقعت أحداثها في مؤتمر عقد في مدينة بروكسل في سبتمبر ١٩١٠ برياسة الزعيم مُحَّد فريد. فقد وقفت الزعيمة الهندية المعروفة السيدة كاما وقالت للأعضاء، وهي لا ترى بينهم سيدة مصرية واحدة: "أيّها المصريون! إني أسألكم أين نصف سكان مصر؟ إذا كان النصف الأول من سكانها هم الرجال. فأين إذن الأمهات والأخوات والزوجات؟ إن الحرية لا تتحقق بنصف الأمة، إنها تتطلب جهدًا مشتركًا من الرجال والنساء!".

ولذا اعترف قاسم أمين بريادة سعد زغلول فأهداه في ١٥ أغسطس ١٩٠٠ كتابه "المرأة الجديدة"، كان الإهداء بهذه العبارة: ["إلى صديقي "سعد زغلول"..فيك وجدت قلبًا يحب، وعقلًا يفكر، وإرادة تعمل، أنت الذي مثلت إليّ المودة في أكمل أشكالها. فأدركت أن الحياة ليست كلها شقاء، وأن فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها.من هذا أمكنني أن أحكم أن هذه المودة تمنح ساعات أحلى إذا كانت بين رجل وزوجته، ذلك هو سر السعادة التي رفعت صوتي لأعلنه لأبناء وطني رجالًا ونساءً."]

في خطبة الجمعة دعى عليها أمام جامع سلطان أبو العلا

١٨٧٩-١٩٤٧

اسمها الحقيقي هدى مُحَمَّد سلطان وعند أخرين "نور الهدى مُحَمَّد سلطان"، ولها اسم حركي تاريخي، رائدة الحركة النسائية في مصر. أما النساء فيسمونها هدى هانم شعراوي. ولها اسم لا تحبه: أم مُحَمَّد، نادتها به "المطربة فاطمة سري، والزعيم النحاس باشا"، ولدت بالمنيا في ٢٣يونيه ١٨٧٩. وأبوها هو مُحَمَّد سلطان قائم مقام الخديوي توفيق، وخصم الزعيم عرابي، أما أمها فجارية بيضاء جميلة "ألبانية"، وهبها الخديوي إسماعيل لأبيها، فاعتقها، وتزوجها، اعتزازًا بهبة الخديوي له، وأعجب الخديوي ذلك ومنحه أرضًا بمكان بدمياط اشتهر بكفر البطيخ، فأنجبت منه فتاة بيضاء كأمها هي "هدى"، وأخيها "عمر" الذي أصبح "عمر سلطان باشا"، وتوفي أبيها وهي في الثامنة من عمرها، ونشأت وسط أمها وأخيها. وابن عمتها "علي شعراوي" الذي تولى الوصاية عليها، وعلى أخيها كوصية الأب. ولقد وفرت لها أسرتها نشأة كريمة وغنية وثرية، فتعلمت الفرنسية والعربية والموسيقى. وكان "علي شعراوي" في ذلك الوقت متزوج وأنجب ابنه الأكبر "حسن"، الذي أصبح كالعادة بين من يملكون الأرض والثروة "حسن شعراوي باشا". ويبدو أن علي شعراوي الذي كان يكبر هدى بثلاثين عامًا قد زار كيوبيد قلبه، فأحب هدى وكتم حبه وعف وبخاصة أنها

كانت تناديه "بير شعراوي"، وتعني بالفرنسية "بابا شعراوي"، إلا أن الأمور كانت تسير لصالحه فهو رجل طيب، يحبه الجميع, نظيف اليد ، عف اللسان، مهيب الطلعة، مستقيم السلوك من بدء حياته وحتى نهايتها. واستطاعت أم "هدى" أن تلمح في عيناه ما لا يخفى، فهو كريم معهم بما يزيد عمّا كان عليه الأمر في حياة زوجها مُحَّمد سلطان، وهو ضعيف أمام تلك الفتاة الدلوعة الناضجة، كبيرة الجسد بحكم الثراء وجودة الغذاء ورفاهة الكساء. إنها كما يقول الفلاحين "زرع بدري" أنوثة قبل الأوان، وكانت هناك مجموعة من المصالح أرضه وأرضها، وضياغه وضياعها، وكما يقولون المصالح تتصالح! والتقت الرغبات. بأن يتزوج "علي شعراوي" بـ "هدى سلطان" على عكس رغبة وإرادة هدى. فقد كانت رغبة من أمه "شقيقه مُحَّمد سلطان"، ورغبة من أم هدى نفسها في أن يكون طفلاها: عمر وهدى في كنف ورعاية "علي شعراوي" ليس بالوصاية فقط، ولكن برابطة أقوى "الزواج"، وقد تهلل "علي شعراوي" حينما وجد أبوه حسن باشا شعراوي، "الفلاح الذكي" الثري "عمدة المطاهرة" مركز المنيا، الذي لا يجلس أمامه إلا متهيبًا لا يمانع في هذا الزواج! بل إن حسن باشا إنما جعلها وكأنها وصيته الأخيرة؛ لأنه كان مريض فقد كان الرجل يكرر في أيامه الأخيرة شيئين: ثقة مُحَّمد سلطان فيه وفي أهله، حتى أنه جعل ابنه وصيًا على أسرته وثروته دون أحد غيره، رغم إن ثروة مُحَّمد سلطان وقتها كانت "اثنى عشر ألف فدان"، أما الشيء الآخر فهو جميل "مُحَّمد سلطان" أبو هدى عليه، فهو لا ينسى نفوذ شقيق زوجته ووقوفه معه حتى أصبح نائب المنيا في برلمان ١٨٦٦م. ثم كيف كانت له اليد الطويلة في وصول

ابنه "علي شعراوي" نفسه؛ ليصبح من بعده نائب المنيا في برلمان ١٨٨١م؟! وتوافقت الأوضاع الأسرية. وتزوجت هدى من علي تحت ضغط النساء والزن على الودان. ويقال أنه بعد سنتين من الزواج ضيق خلالها علي شعراوي على هدى الخناق في الخروج والزيارات، ونقلها معه إلى الإقامة في الريف، فانفصلا "ويقال في ذلك أن عقد الزواج اشترطت فيه هدى شعراوى ألا يكون لها ضرة، سواء "زوجة سابقة – أو لاحقة"، فأن وجدت فسخت عقدها واعتبر كان لم يكن"، ولم يستطع علي شعراوي أن يفي بالعقد، فبعد طلاقه لزوجته الأولى، عاد لها في السر وبقى معها حتى انجب منها ابنه حسن؟! فلم يكن تحول هدى سهلًا، كان عليها أن تحول احترامها لحب، وبنوتها إلى زواج، وحياءها إلى علاقة زوجية، ولا يعرف هل كان الانفصال بالطلاق، أم كانت فترة هدنة بعد أن فشلت التغيرات المتلاحقة بالصدمة والسرعة؟ والمفاجأة لجعل هدى عروسة صالحة للزواج بكل أبعاده ومراميه، والغريب أن هذا الانفصال استمر سبع سنوات؟! قضت هدى منها في الإسكندرية معظم الوقت؟ أما الباقي فسافرت خلاله إلى تركيا.

أما "علي شعراوي" فشغلته السياسة والوطن وقضايا كثيرة، ولظروف كثيرة عاد الود، فعادت هدى لزوجها. كان من هذه الظروف ترك علي شعراوي أمر الأرض لأخو هدى– عمر– فبارت وقل محصولها، وكان منها وفاة زوجة علي شعراوي الأولى. أما الأكثر تأثيرًا فهو هدى نفسها التي تغيرت، فصارت أنضج وأضيف لكمال الجسم أناقة غريبة في ما ترتديه. وملكت شخصيتها الإقناع بدلًا من الغضب والبكاء، الذي عانى منه علي

شعراوي في البداية، ووافق علي شعراوي على كل شروطها: السماح بالدخول والخروج والإقامة في القاهرة، ووضع ثروته كلها تحت تصرفها وكانت وقتها "تسعة آلاف فدان"، وأن يكون لها نشاط اجتماعي كما له نشاط سياسي؟! ورغم ذلك لم يكن زواج هدى شعراوي عسلًا كله. إنما كان فيه الخلاف والبعد والجفوة وترك البيت، فإذا كان علي شعراوي قد أرخى اللجام لهدى، فإنه لم يتركه من يده. فقد كان الرجل بطبعه فلاح ومسلم متزمت، وتُروى عنه أقاصيص تجعله يلحق بركب العارفين بالله، وكان أيضًا ثائرًا استطاع أن يكون في فترة قليلة أحد دعامات حزب الوفد.

ويكفيه ما قاله عنه "عبد العزيز فهمي": أما علي شعراوي فكان من خيرة الوطنيين المخلصين، بل إنه من أخلص رجال مصر، وأكثرهم حبًا للوطن، وكان جريئًا في الحق، يقول ما يعتقد ويحافظ على كرامته لأقصى حد. وقد تعجب في أن هدى شعراوي كانت لا تواجه زوجها مباشرةً بما تريد من عمل أو نشاط، وإنما تستعمل عبارة: صفية زغلول، بتقترح: سعد باشا زغلول بيقول! وكانت موافقته التزامًت حزبيًا أكثر منها رضاء زوجي! بل إننا لا نعجب إذا عرفنا أن علي شعراوي كان معارضًا لخروج نساء الوفد في ثورة ١٩١٩! وعارض بشدة في أن تكون لزوجته سكرتيرة ذات ثقافة فرنسية، وجذور مسيحية "سيزا نبراوي"، وقال لها: يا ستي شوفي واحدة ريفية! وثار ثورة غريبة عليهما، حينما أعلنت في أحد اجتماعاتها إرسال "أحمد الصاوي مُحَمَّد" ليتعلم في السربون على نفقتها الخاصة؛ لأنها شعرت أنه ظلم من النظم الموجودة بالجامعة. لم يكن معترضًا على الفعل وإنما على الشكل، فهو على استعداد أن يرسل الصاوي ومعه خمسون

للسريون على نفقته، ولكن لماذا تفعلهما امرأة؟! وزوجته؟! إنها تقبض منه لتنفق على نشاطها أضعاف ثمن بعثة "الصاوي"، فلماذا يظهر مالها الخاص الآن! وبعبارة زوج فلاح قال علي شعراوي: إشمعنا الصاوي؟! ما عندك البنات! وفي عبارة أكثر غضبًا "يا ستي شوفي ابنك "محمد""، ولكن هدى شعراوي استمرت في عنادها حتى أنها عند زواج الصاوي، جعلت الزفاف في بيتها واختارت له أجمل عروسة في مصر "دريّة شفيق". وتم ذلك في تكتم، لم يفضحه إلا جريدة الأهرام.

أما الثورة الكبرى ففي سنة ١٩٠٦ حينما فوجئ علي الشعراوي أثناء صلاة الجمعة بإمام جامع سلطان أبو العلا. يسب ويصب لعناته وويلاته على امرأة تدعو للفسق والفجور، قال الشيخ: أفي المحروسة والإسلام بين أظهرنا، تخرج بدعة. بإنشاء نادي خاص للنساء لمزاولة الرياضة واللعب والسباحة، ما يتبع ذلك من هرج وسفور ومرج وتبرج، وأنهى الشيخ خطبته بأنها بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، وغضب علي الشعراوي مع الغاضبين ودعا مع الشيخ والداعين:

- اللهم أسكت كلمتها وأوقف بدعتها.
- آمين.
- اللهم رد دعوتها ومن يدعون معها بها وأرجعهم خائبين مدحورين.
- آمين.

وعاد الشعراوي لمنزله وعلى مائدة الغذاء سمع زوجته هدى شعراوي، وفوجئ بأنها صاحبة الفكرة إيّاها، زوجته المصونة والجوهرة المكنونة، تدعو

لنادي خاص للنساء يلبسن فيه الشورت والمايوه، ويلعبن السباحة! وسألها زوجها: سيزا نبراوي زنت على ودانك كعادتها! لكن الروايات تجمع على أن حب "هدى شعراوي"كان قويًا ومؤثرًا على "علي شعراوي"، فكان يعترض عليها ولكنه لا يستطيع الفكاك منها. يثور ويكسر الأطباق ويترك المنزل للريف الذي أحبه، ولكنه لا يعرقل مسيرتها ولا يهدم أعمالها ولا يقف ضدها. وتتفق الروايات على أن جرائة هدى شعراوي، كانت وراء دفع "علي شعراوي" في حزب الوفد. وأنها سعت بقوة ليكون زوجها مشاركًا بشكل تاريخي في الحركة الوطنية، ولعل يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ كان بداية إيمان علي شعراوي " بزوجته هدى "، فقد كانت وراء أقدامه على مشاركة سعد زغلول، وعبد العزيز فهمي في مفاوضات الإنجليز مع "سير رونالد"، وعرض القضية على مؤتمر الصلح في "فرنسا" وبأسماء الثلاثة وقع المصريون على عريضة تاريخية، وغريبة عليها ثلاث ملايين توقيع، بأن الثلاثة ممثلين للأمة في قضية الاستقلال مع الإنجليز. وقامت هدى بدور مؤثر من خلال "لجنة الوفد للسيدات" في جمع هذه التوقعات، وبالطبع وجدنا على العريضة أسماء إناث ونساء لم تتح لهن الظروف كتابة أسماءهن من قبل. كن ينظرن لأسمائهن مكتوبة وكأنهن يرونها لأول مرة. لها أثر وفعل ووضع سياسي ومصيري في حياة أمتهم. ويذكر أن بعض الريفيات قالوا لهدى شعراوي: إننا لا نعرف الكتابة لكننا نريد سعد وزملاؤه؟! وبينما كانت العريضة بها بعض بصمات الرجال، كات هدى شعراوي تجمع النساء وتدربهن على كتابة الاسم. فهي لا تحب أن يرى الإنجليز المرأة المصرية مجرد بصمة! وبالرغم من نضج نشاطها في عامي

١٩٠٧– ١٩٠٨ وسفرها وحضورها مؤتمرات خاصة بنشاط المرأة، ساعدها في ذلك حيويتها وأموالها. فإنها حينما دخلت الوفد بجانب زوجها ومارست من خلاله نشاطها، تدخلت السياسة وأسمتها هدى شعراوي بدلًا من هدى مُحَمَّد سلطان. وهو ما حدث من قبل مع زوجة الزعيم سعد زغلول سموها صفية زغلول، بدلًا من صفية مصطفى فهمي. فقد كان لكل من الأبوين، مُحَمَّد سلطان ومصطفى فهمي، علامة وتاريخ متين مع الإنجليز! فلقد أراد الوفد أن يكسبها بلا أي انتقادات– فأبوها مُحَمَّد سلطان كان موضع هجوم شديد من الشيخ مُحَمَّد عبده أستاذ سعد زغلول. وكان يرى قتله لخروجه على الخط الوطني وانضمامه إلى الخديوي توفيق ضد عرابي، وكان سعد زغلول نفسه مع ثورة عرابي يؤيدها على عكس ما كان الوضع في الحزب الوطني، الذي كان يعتمد على تركيا "الباب العالي". فقد حمل مُحَمَّد سلطان قرار السلطان العثماني بعصيان عرابي ورفاقه إلى "العربان"، بالإضافة إلى بعض المال ومنشور الخديوي نفسه وبعض مساعدات الإنجليز. الأمر الذي كان له أثره في خيانة عرابي في المعارك التي دخلها، بل إنه قام مقام الخديوي نفسه عندما احتجزت أحداث الثورة العرابية الخديوي توفيق في الإسكندرية. فأدار الأمر كما يريد الإنجليز وفي هذه الفترة فتح ديليسبس قناة السويس، بعد أن ضمن لعرابي حياد القناة، وخانه فتحولت ثورة الرجل الثائر عرابي إلى هوجة عرفت باسم "هوجة عرابي"!

وحتى لا يظهر الأمر على حقيقته سميت نساء لجنة الوفد بأسماء أزواجهم السياسيون المشاهير؟! "ولأننا لا نسيئ أو ننظر للأمر بلون واحد

نذكر ما قاله "د.عبد العظيم رمضان": فهو يقول بأن البرلمان الأول في عصر توفيق "نوفمبر ١٨٩١"، كان تحت رئاسة "مُحَمَّد سلطان باشا" والد هدى شعراوي، وهو الذي سماه ببرلمان " توفيق- عرابى" وأن حركة الجيش التي قام بها عرابي وزملاؤه، بدأت بعيدة عن الحركة الوطنية التي قام بها الزعماء الدستوريون مُحَمَّد سلطان باشا، ومُحَمَّد شريف باشا وغيرهم التي كان تستهدف إقامة حكم دستوري. أما حركة الجيش فقامت لأسباب خاصة تتعلق بسوء أوضاع الضباط المصريين، بالنسبة لضباط الشراكسة. وأنه عندما استعجل الخديوى وألقى القبض في يناير ١٨٨١ على أحمد عرابي وزميليه: علي فهمي وعبد العال حلمي وحبسهم في ثكنات قصر النيل، أسرع أفراد من الجيش وأطلقوا سراحهم، وكانت الخطة أن يهرب عرابي ويختفي مع رفيقيه خوفًا من بطش الخديوي، ولكن عرابي أظهر شجاعة نادرة إذ قرر أن يتجه لقصر عابدين بهذه القوة، ليتحدى عباس رفقي وزير الحربية وقتها، وفي فبراير ١٨٨١ قدم عرابي للخديوي طلب خاص بالجيش بتعيين سامي البارودي وزيرًا للحربية، وبالرغم من أن حادث قصر النيل لم يقصد منه التمرد على الخديوي، ولا مواجهة النفوذ الأجنبي. فإنه كان له أثره على الرأي العام، فأكسب الحادث عرابي شهرة باعتباره استطاع أن يتحدى حكومة رياض باشا، ويرغمها على تغيير الوزراء الأمر الذي جعل القادة الدستوريون يسعون إلى الجيش"، وأخذت تعقد الاجتماعات للاتفاق على برنامج عملي سياسي، وأخذ المسرح السياسي يستعد لمظاهرة عابدين يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١! واتضح التنسيق في أهداف عرابى التي قدمها للأمة؛ فقد وضع الدستوريون مبادئهم في مطلبين

من أربعة لعرابي:

١- إسقاط الوزارة المستبدة.

٢-تشكيل مجلس نواب على النسق الأوروبي.

وبغير هذا التنسيق لم يكن مُحَمَّد شريف باشا ليختار لتأليف الوزارة الجديدة. وإنه لا ينكر أحد أن "مُحَمَّد سلطان باشا" في ذلك الوقت وهو رئيس للبرلمان، خرج حتى على الدستوريين، حينما طلب شريف باشا ألا يكون لمجلس النواب حق مناقشة الميزانية وإقرارها، وحينما قال شريف باشا "مناقشات البرلمان في هذا ستعطي إنجلترا وفرنسا حق التدخل"، وقال له "مُحَمَّد سلطان" ونحن لن نسمح لهم.

إلا أنه بسقوط وزارة شريف باشا. وظهور وزارة شبه عسكرية برئاسة محمود سامي البارودي في فبراير ١٩٨٢، وفيها عرابي وزيرًا للحربية ظهرت العين الحمراء لفرنسا وإنجلترا في مصر. ورغم ما يقرره د: عبد العظيم رمضان، فإن المصريين لم ينسوا دخول الإنجليز على خيولهم ومعهم مُحَمَّد سلطان باشا يرحب ويهش وينش لهذا الاحتلال؟! ولم ينس ذلك لا سعد زغلول ولا الشيخ مُحَمَّد عبده.

قبض الإنجليز على سعد زغلول يوم ٨ مارس ١٩١٩ وقامت الثورة في اليوم التالي، ولكنها كانت في إسبوعها الأول ثورة رجال فقط. واجتمعت في بيت سعد زغلول: صفية زغلول وهدى شعراوي وحرم مُحَمَّد محمود باشا. وقالت هدى شعراوي إنها كتبت برقية احتجاج باسم سيدات مصر إلى زوجة المندوب السامي البريطاني. وأن زوجها علي شعراوي أخذ

البرقيات وعرضها في اجتماع الوفد وعاد لها متهللًا، لقد أعجب الوفد ببرقيتك حتى أننا قررنا حفظها في محضر الجلسة، وقالت صفية: البرقيات لا تكفي يجب أن تخرج المرأة المصرية إلى الشارع، فقالت زوجة مُحَّد محمود: إننس لم أضع قدمي في الشارع منذ زواجي، ولكنني موافقة على الخروج ولو ضربني الإنجليز بالرصاص، وقالت هدى شعراوي: إذن نحن في حاجة لمظاهرات نسائية تهتف بسقوط الاحتلال، ولو قتل الإنجليز منّا واحدة فسوف تلتهب مصر كلها، اتركوها لي.

واتصلت هدى شعراوي بزوجها علي باشا تعرض عليه الفكرة فذُهِل! كيف تخرج السيدات المحترمات إلى الشارع! ولكنها استعملت طريقتها قائلة: إن صفية زغلول ترى ذلك، وهي ترى أن هناك سلبية من الوفد في معالجة أمر القبض على سعد زغلول، زعيم الأمة فأعرض أمرها في اجتماع الوفد الذي ترأسه باعتبارك رئيس الوفد بالنيابة. وعند عرض الأمر على اللجنة وقف عبد العزيز فهمي .ومن أخطرك بذلك ياشعراوي؟! فقال الشعراوي: زوجتنا المصونة التي كانت في زيارة لأم المصريين، وكان معها حرم مُحَّد محمود باشا، فسأل عبد العزيز فهمي مُحَّد محمود باشا: هل علمت بذلك من زوجتك؟!

فقال مُحَّد محمود فهمي: لا. وأني أسجل من الآن رفض الفكرة، ولن تخرج زوجتي من منزلها، ولن تزور أحد بعد اليوم، وإذا بعبد العزيز فهمي ينظر شرزًا للشعراوي ويقول: إني أعجب أن سيدة عاقلة مثل صفية هانم تقترح مظاهرة النساء في الشوارع؟!

وضاق علي شعراوي بما قاله عبد العزيز فهمي، فمعنى ذلك أن زوجته صاحبة الفكرة وأنها المجنونة الوحيدة بين النساء الثلاثة، فقال: ولماذا لا نسأل صفية زغلول؟!

ويقول عن ذلك مصطفى أمين في كتابه "من واحد لعشرة"، اتصلت هدى شعراوي بزوجها علي شعراوي باشا تعرض عليه الفكرة فُذِهل! كيف تخرج السيدات المحترمات إلى الشوارع! وكان علي شعراوي باشا رجلًا وقورًا في السبعين من عمره، يطلق لحيته ومن أهالي المنيا المحافظين المتمسكين بالتقاليد، ولكنه كان أكبر بأربعين سنة من زوجته، وكان يحبها حبًا يقرب من العبادة، فلم يستطع أن يقاوم تصميمها على المظاهرة، وخاصة بعد أن أخبرته بأن هذا رأي صفية زغلول وحرم مُحَمَّد محمود باشا، فوعد بأن يعرض فكرة مظاهرة السيدات على أعضاء الوفد في الاجتماع، ويبلغها بالنتيجة. وعقد الوفد اجتماعًا وما كاد يعرض علي شعراوي باشا الفكرة حتى هاج وماج كل الأعضاء، ورفضوا خروج النساء في مظاهرة، وكان من رأي الأغلبية أن هذا الفعل وقاحة وقلة حياء. وكان من رأي الأقلية أنها مع تقديرها للوطنية، التي أملت هذه الفكرة الجريئة. إلا أن الأغلبية العظمى للشعب تستنكر خروج النساء إلى الشوارع، وأن هذا سوف يقسم الرأي العام في مسألة فرعية، بينما هو مجمع لأول مرة على مسألة واحدة هي مسألة الاستقلال، فخروج النساء للشارع سيجعل البعض يعتبر الثورة خروج على الدين الإسلامي، وبذلك تنفض أغلبية الشعب عن الثورة، وكانت الأغلبية التي تعتبر خروج المرأة إلى الشارع وقاحة، وقلة حياء مؤلفة من علي باشا شعراوي نفسه، وعبد العزيز فهمي، ومُحَمَّد علي علوبه وجورك

بك خياط وحسين باشا واصف وعبد الخالق باشا مدكور، ومحمود أبو النصر بك وعبد اللطيف المكباتي بك. وكانت الأقلية التي رفضت رفضًا دبلوماسيًا خشية انقسام الأمة من أحمد لطفي السيد بك، ومصطفى النحاس بك وسنوت حنا بك وعلي ماهر بك ودكتور حافظ عفيفي.

وذهب عبد العزيز فهمي للسيدة "صفية زغلول" ووجد منها إصرارًا، واعتبار منع ذلك تخازل. وأنهى عبد العزيز فهمي الحديث وهو يحاول جاهدًا أن يمسك أعصابه، ويقول: تأكدي أنني أحترم المرأة وأقدرها.

فقالت له صفية: لو كنت تحترم المرأة لما حاولت أن تحرمها من شرف الدفاع عن بلادها! وأسرع عبد العزيز فهمي بك إلى زملائه، وقال لهم أنه يخشى أن تكون صفية هانم قد جنت. وأن صدمة نفي زوجها، أثرت على عقلها! وسمع عبد الرحمن فهمي بما حدث، فتطوع بأن يتولى إقناع صفية هانم نظرًا للعلاقة الوثيقة بينه وبينها. ولكن صفية انقضت عليه كما انقضت علي عبد العزيز فهمي. وقالت له إن نساء مصر لسن أعضاء في الوفد، ولا توجد امرأة تمثلهن في الوفد. ولهذا ليس من حق الوفد أن يصدر الأوامر إليهن! وتحمست السيدات المصريات لتحدي قرار الوفد، واجتمعت مئات السيدات في بيت الأمة، تولت هدى شعراوي الاتصال تليفونيًا بعدد من صديقاتها، وراحت السيدة أستر فهمي ويصا وهدية بركات وعطية أبو أصبع وفكرية حسن وإحسان القوصي، يتصلن بمعارفهن وصديقاتهن وقريباتهن للاشتراك في مظاهرة حدد لها يوم ١٦ مارس، بعد سبعة أيام من قيام الثورة. واتفقت السيدات على أن تجتمع عدد منهن في بيت الأمة، وعدد ثان في منزل أحمد بك أبو أصبع في ميدان الإسماعيلية

"ميدان التحرير الأن"، ثم يتجمع الفريقان في لحظة واحدة بحديقة جاردن سيتي، ومن هناك تتحرك المظاهرة الكبرى. ولم ينم عبد الرحمن فهمي الليل! إنه لم يستطع أن يفهم لماذا تريد أن تزج المرأة بنفسها في السياسة! لماذا تريد أن تفسد بتصرفها وقار الثورة؟ وكان أكثر مما يزعجه موقف زوجة صديقه وزعيمه سعد زغلول، إنها هي التي تنادي بأن تخرج المرأة المصرية إلى الشارع. وفي الوقت نفسه عندما استقبلته ليناقشها في هذا القرار لم تقابله وجهًا لوجه. بل إنها وقفت تحدثه من خلف الباب! إنه لم يرها بل سمع صوتها فقط من وراء الستار! أي أنها حرصت على ألا تظهر بوجهها له في غياب زوجها، بينما كان يتناول معها الغذاء والعشاء وهي سافرة في حضور سعد، فإذا كان هذا هو مبلغ حرص صفية على التقاليد فما الذي جعلها تخرج عليها، وتصر على خروج النساء إلى الشارع متظاهرات!

وماذا يحدث لو أن الأزهريين اعتدوا على النساء المتظاهرات! وماذا يحدث لو أن بعض الشبان تعرض لهن وألقى عليهن الكلام إيّاه!! وفي ١٦ مارس ١٩١٩ عقدت نساء مصر اجتماعًا في الكنيسة المرقصية، وتم انتخاب اللجنة التنفيذية للنساء الوفديات برئاسة هدى شعراوي ونظموا مظاهرة ضد الاحتلال. وأعلنت هدى شعراوي أن شهيدات الثورة هن: شفيقة مُحَمَّد "أول مصرية تسقط صريعة برصاص الإنجليز"، وفهيمة رياض وعائشة وحميدة خليل عدا أخريات مجهولات.

وعندئذٍ فقط آمن عبد الرحمن فهمي بأن صفية وهدى على حق في إصرارهما على اشتراك المرأة في الثورة. وبطبيعة "عبد الرحمن فهمي"

العسكرية أعجبه التكتيك الحريمي، فقد كان الضابط الوحيد في ثورة ١٩١٩م. ورغم إلحاحه على حاجة الثورة إلى الضباط الوطنيين، فإن سعد زغلول لم يوافق على ضم ضباط إلى القيادة؟! فقد كان يرى مكان اجتماع النساء في الكنيسة المرقصية فكرة عسكرية، ضمنت سلامتهن وعدم التعرض لهن؟! وسأل علي شعراوي عن ذلك فقال له: استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان؟! ولم يقل شيئًا.

وسجلت هدى شعراوي "خروج المرأة المصرية لأول مرة"، في مذكراتها فقالت: تشكلت لجنة مركزية كان لي شرف رياستها، وعملت تلك اللجنة على تنظيم صفوف المرأة في هذا الجهاد العظيم، ولما قام الإنجليز يصبون نيرانهم على الثائرين– قررت اللجنة إعداد مظاهرة كبيرة تخرج فيها النساء رغم قيود الأحكام العرفية التي تحرم المظاهرات، وتعرض القائمين بها لرصاص الجيش وإلى ما تبع ذلك من عقوبات السجن والتعذيب .هذا كله لم يثنِ من عزم نساء مصر. فطلبت لجنتنا من السلطة المختصة الإذن بهذه المظاهرة السلبية. فرفض طلبها ولكننا قررنا القيام بها حسب الخطة التي وضعناها، وهي أن نبدأ السير من منتزه "قصر الدوبارة" القريب من المفوضية الأمريكية لنقدم لها احتجاجنا أولًا، وبينما كنت أتأهب لمغادرة منزلي في ذلك اليوم للاشتراك في المظاهرة، بادرني زوجي بالسؤال: إلى أين تذهبين والرصاص يدوي ويتساقط في أنحاء المدينة؟ فأجبته للقيام بالمظاهرة التي قررتها اللجنة. فأراد أن يمنعني، فقلت له: هل الوطنية مقصورة عليكم معشر الرجال فقط. وليس للنساء نصيب فيها؟ فأجابني: هل يرضيك إذا تحرش بكن الإنجليز. أن تفزع بعض النساء ويولون "يا لهوتي"، فقلت له:

إن النساء لسن أقل منكم شجاعة أيها الرجال؟! وتركته وانصرفت ولحقت بالسيدات اللاتي كن في انتظاري، وغادرنا عرباتنا وشكلنا أول مظاهرة نسائية منظمة نحمل فيها لافتات كتبت عليها عبارات وطنية، وحمل بعضهن أعلام جميع الدول إلا علم الإنجليز، وسارت المظاهرة في جلال قاصده المفوضية الأمريكية أولًا حسب البرنامج، وكانت تقابل من الجمهور بالتصفيق، وتنثر عليها الأزهار من نوافذ المنازل، وعلمنا أنه أمام قنصلية فرنسا وقف جمهور من الفرنسيين، معهم باقات الزهور استعدادًا لتحيتنا، وكان المقرر أن نمر بها وبباقي المفوضيات، وتنتهي بيت سعد. ولكن للأسف عندما وصلت المقدمة إلى شارع سعد زغلول، دهشت إذا رأيت الموكب يتحول عن الخطة المرسومة قاصدًا بيت سعد أولًا. فأرسلت إلى الدليلات أذكرهن بالاتجاه المتفق عليه، فقلن إنه في آخر وقت انفصلت بعض سيدات المقدمة، على أن تبدأ المظاهرة من بيت سعد، ولا أدري إن كان هناك تدبير مبيت لذلك؟ وعندما وصلنا بيت سعد وجدنا أنفسنا محاصرات بالجيش البريطاني، كأنه كان في انتظارنا هناك. ولما أردنا اقتحام صفوفهم تحرش بنا الجنود، وارتكز أحدهم وصوب بندقيته نحوي فتقدمت إليه، وإذا بإحدى صديقاتي تسحبني من الخلف، فقلت لها بصوت مسموع: اتركيني فإني أريد أن تقع في مصر اليوم "مس كافيل" أخرى.

ولكن الغريب أن عبد الرحمن فهمي عندما يسجل مذكّراته، فيما بعد يتجاهل شجاعة "هدى شعراوي" ويقرر بأن الذي قالت: "اتركيني فإنني أريد أن تقع في مصر اليوم مس كافيل أخرى"، وواجهت بنادق الإنجليز

بشجاعة الفرسان إحدى المتظاهرات"[٥]"؟! وإن كانت"د.آمال السُبكي" في كتابها الحركة النسائية في مصر، تقرر بأن لديها تسجيل ذكرت فيه هدى شعراوي أنها قائلة تلك الكلمة وصاحبة هذا الموقف.

ويصف الرافعي مظاهرات ١٦ مارس ١٩١٩ في كتابه "ثورة ١٩١٩، ص١٢٠ القاهرة ١٩٤٧م".: لم تشأ المرأة المصرية أن تحجم عن المساهمة في تلك الثورة التي اشتد لهيبها، فأرادت أن تحظى بشرف هذا العمل المجيد، حتى تبرهن للغاضب المحتل على أنها ليست أقل قوة وعزيمة عن اختها الغربية. وحتى تذكي نار الحماسة الوطنية في قلوب الرجال، ففي ١٦ مارس أنطلق كثيرات من عقائل العائلات الراقية يجبن أنحاء القاهرة، هاتفات بحياة الحرية والاستقلال، مناديات بسقوط الحماية. وقد مررن بموكبهن بدور القنصليات ومعتمدي الدول الأجنبية، والناس من حولهن

---

(٥) هذا الرأي يقول به أيضًا أيمن نور (من حزب الوفد الجديد)، ويرى أن هناك مظاهرتين للنساء بارزتين ومعاصرتين لثورة ١٩١٩:

- الأولى: مظاهرة النساء في ١٦ مارس ١٩١٩ وقادتها هدى شعراوي، وهي شبه رسمية لنساء الوفد، واقتصرت على (النساء الوفديات في اللجنة التنفيذية للحزب).
- الأخرى: مظاهرة النساء في ١٠ أبريل ١٩١٩ وقادتها امرأة لا تذكرها الأجيال، ولا تعرف حياتها في الحركة النسائية في مصر هي: (شفيقة مُحَمَّد عشماوي)، وكانت أرملة من شياخة غباشي بالخليفة– قادت ثلثمائة سيدة إلى مقر المعتمد البريطاني، تطالب باستقلال البلاد وتدافع عن قادة ثورة ١٩ في المنفى، (وهي صاحبة عبارة مس كافيل)، وإن (شفيقة مُحَمَّد) تعقبها جنود الإنجليز وقتلوها بالرصاص عند انصرافها وسط هتاف نساء مصر: تحيا الحرية، في ذمّة الله يا شفيقة.

يصفقون لهن ويهتفون، والنساء من نوافذ بيوتهن يزغردن ويهتفن، فكان ذلك منظرًا جميلًا رهيبًا يأخذ بمجاميع القلوب. ولكن لم يكن للسلطة أن تترك مثل هذا الموكب الرائع دون أن تشوّه من جلاله، فضرب الجنود الإنجليز نطاقًا حولهن، وسدود إليهن فوهات بنادقهن وحرابهن، على أن السيدات لم يرهبن هذا التهديد، ولم يفت عضدهن مشهد أولئك الجند المسلحين، بل تقدمت واحدة منهن إلى جندي كان قد وجه إليها بندقيته، وقالت له بالإنجليزية: "أطلق بندقيتك في صدري لتجعلوا في مصر مس كافيل ثانية"، فخجل الجندى وتنحى للسيدات عن الطريق، بعد أن لبثن في وهج الشمس أكثر من ساعتين. فهل نقل عبد الرحمن فهمي عن الرافعي، أما أنه كان لا يرى في نشاط المرأة السياسي في الوفد فائدة، وقد فجرته هدى شعراوي منذ بداية الحركة الوطنية الجديدة تحت قيادة سعد "نوفمبر ١٩١٨"؟!

على كل حال فقد استمرت انتقادات عبد الرحمن فهمي اللاذعة لهذا النشاط. فلقد اعتادت اللجنة المركزية لسيدات الوفد أن تحتج ببرقية على كل ما لا يروقها. وتنهي برقيتها بتوقيعات للسيدات المشاركات بالاسم ثلاثي، بالطبع تبدأ التوقيعات برئيسة اللجنة "هدى شعراوي". وكثرت هذه البرقيات وأصبحت تشغل جزء من اجتماعات الوفد– وفي أحد المرّات قال عبد الرحمن فهمي أثناء الاجتماع: وأية أخبار اللجنة المركزية للبريد! وكان يقصد بالطبع اللجنة المركزية لسيدات الوفد!

ولكن هدى شعراوي استمرت في حركتها وحيويتها. وفي ١٣ ديسمبر ١٩١٩، اجتمعت مع عدد كبير من نساء مصر في اجتماع سُمي "بالكاتدرائية

المرقصية"، وأعلنت هذه المرة عن مغزى التكتيك، الذي يهتم به عبد الرحمن فهمي، "لأن المكان له دلالته إذا لم يشعر المصريون باختلاف المذاهب الدينية بين مسلمين وأقباط"، وناقشوا وكان احتجاجهن على:

١- نفي الزعماء المنتخبين إبان الثورة.

٢- المعاملة القاسية للشعب طوال الثورة.

٣- لجنة ملنر.

٤- الوزارة المعنية بمساعدة الإنجليز "وزارة وهبة باشا".

٥- رفض مطلب مصر بحضور مؤتمر الصلح وضرورة إعلان استقلال مصر.

وحينما علم سعد زغلول أعجب "بهدى شعراوي" وبمبادئها السابقة، وأدهشه بأن ٧١ سيدة وقعن بيان ١٣ ديسمبر ١٩١٩، وبأسمائهن مباشرة فقد تخلت المرأة فيه عن كتابة توقيعها بحرم فلان العلان!! وسألها لماذا هتفن بالإنجليزية في مظاهرة ١٦ يناير ١٩٢٠؟! فقالت هدى شعراوي: ليفهم الإنجليز إننا جميعًا نريد الاستقلال، الرجال والنساء.

فقال لها: اهتفوا بالعربية وارفعوا علم مصر، يجب ألا يعتقد المصريون أنكن نبت غريب.

وكتب عن ذلك عبد الرحمن فهمي في مذكراته: قامت بعض السيدات المصريات بمظاهر لطيفة في ميدان المحطة إلى لوكاندة شبرة. وهناك هتفن لسنيوت حنابك المقيم هناك، وللوفد المصري ورئيسه، وللاستقلال التام لجريدة مصر. ولما وقع نظر السيدات على بعض الضباط الإنجليز،

أخرجت كل واحدة علمًا مصريًا صغيرًا، وصحن بأعلى أصواتهن تحيا مصر حرة مستقلة. الاستقلال التام أو الموت الزؤم. يحيا سعد باشا زغلول يسقط ملنر، وكل هذه النداءات باللغة الإنجليزية. على أن أهم ما في الموقف هو أن عبد الرحمن فهمي، يسجل في تقرير له للوفد مؤرخ في ٢ مارس ١٩٢٠، أن لجنة السيدات التي ترأسها السيدة حرم شعراوي باشا، تحتج على مشروعات ري السودان، وغيرها، ونراه هو يقصد شعراوي باشا لا يهتم بمثل ذلك. ولعلّ ذلك يفسر بداية تباعد "علي شعراوي" عن زعيم الحركة الوطنية "سعد زغلول"، ذلك الموقف الذي تبلور عام ١٩٢٢ في تأييد الشعراوي للانشقاق الكبير، الذي عرف بحزب الأحرار الدستوريين. فقد عانى الرجل من وجوده وزوجته هدى شعراوي في حزبٍ واحد. ثم أنهكه الوفد.. أخذوا ثروته فهو أغنى رجل في الصعيد. وكلما عبر عن رؤية مختلفة اتهموه بأنه رجعي التفكير، ومتعصب ضد الأقباط.

أما هدى شعراوي فقد بدأت تمارس نشاطات خاصة: دعت لجمع تبرعات لإنشاء جمعية لرعاية الطفل، وتحمس الناس للدعوة وتم جمع التبرعات، لكن الحكومة أوقفت المشروع. وكانت النظارة في ذلك الوقت تحت رئاسة "الحضرة الفخيمة الخديوية" عباس حلمي، وسنة ١٩٠٨ بدأت الدعوة لمحاضرات ثقافية على السيدات في قاعة من قاعات الجامعة الأهلية، ووافق الأمير أحمد فؤاد على تخصيص قاعة لمحاضرات السيدات يوم الجمعة من كل أسبوع. وفي سنة ١٩١٠ اتفقت "هدى شعراوي" مع الأميرة "عين الحياة"، وعدد من الأميرات والسيدات على إنشاء "مبرة مُحَمَّد علي" لعلاج الأطفال. وعلى إنشاء مدرسة للبنات وفي مايو عام ١٩١٤

أسست "هدى شعراوي"، بمعاونة الأميرتين "عين الحياة" و"أمينة حليم" جمعيتي "الرقي الأدبي للسيدات والمرأة الجديدة"، وقد توقف نشاط هذه الجمعيات أثناء الحرب العالمية الأولى. ثم تحولت متحمسة مستقلة عن الوفد منذ ١٩١٦. ثم بدأت مترددة في علاقتها بالوفد من بداية عام ١٩٢٢، فهي لا ترى أنها حققت نصرًا سياسيًا للمرأة من خلال الوفد، وفي نفس الوقت لا تستطيع أن تنكر حماس ورعاية سعد زغلول لحركة تحرير المرأة.

وفي مارس ١٩٣٢ وفي يوم ١٦ ذكرى مظاهرة ١٦ مارس ١٩١٩، أصبحت هدى شعراوي جبهة مستقلة بتكوين الاتحاد النسائي المصري، الذي استطاع أن يضم بالفعل عناصر من لجنة الوفد المركزية للسيدات، فقد أحست المرأة في قرارة نفسها ومنذ بداية الإفراج عنها، والأخذ بيدها نحو الخروج الكبير من قفص الحريم- أن الرجل هو صاحب الفضل- وبالتالي فهو لن يتركها لترسم لحياتها بباقي المعالم خارج الحرملك. لن يسمح لها أبدًا أن تتخطى الدور الذي رسمه لها.

تبلور هذا الإحساس رويدًا رويدًا منذ أن علمت بموقف رجال الوفد، الذي رفضوا الاعتراف بها في بداية الأمر، وباللجنة المركزية التي رأستها هدى شعراوي، وعلى الفور رأت اتخاذ بعض المواقف التي من شأنها توصيل هذا الإحساس للرجل، ومن ثم رفضت بشدة أن تكون مجرد بديل للرجل أو مقلده له ولسياسته، بل أكثر من ذلك عبرت عن هذا الرفض بشكل واضح وصريح، حين أصرت عضوات اللجنة المركزية لنساء الوفد أن يكن عضوات كاملات العضوية، وأن يكون لهن الحرية في التعبير،

رافضات الطاعة العمياء للرجال، لمجرد تحقيق الإجماع في الآراء خلال الأزمات. وتجلى هذا الرفض أكثر، حين انتقدت المرأة شروط الاستقلال التي وافق عليها من قبل رجال الوفد! إن الإحساس بضرورة الاعتماد على النفس، بعيدًا عن إرادة الرجل، قد تجلى أيضًا وبصورة مثيرة- في قرار نساء مصر بضرورة إنشاء اتحاد نسائي للمرأة المصرية. واقتنعت هدى شعراوي أن قضية المرأة.. قضيتها وقضية مصر، وأن سعد زغلول بما أعطاها من تأييد قد كسب بها خطوة للأمام، ولكن الوفد كسب بها عدة خطوات في طريقه السياسي، ولكنها اقتنعت أيضًا بأنها لن تحقق نصر سياسي للمرأة عن طريق الأحزاب. بل إنها أمّنت بأن كل التحركات الجيدة، والتي سمح بها "للجنة نساء الوفد"، كانت في فترات نفي سعد زغلول حينما كانت صفية زغلول تتولى الأمر. ولم يكن اقتناع هدى شعراوي بذلك نابع من طرحها أي قضية لها علاقة بالمرأة، وإنما نابع من التجاهل الذي رأته في قضية السودان، التي تنبتها داخل الوفد- كقضية سياسية، وتؤيد هذا الرأي "أمال السُبكي في كتابها" "الحركة النسائية في مصر ما بين الثورتين ١٩، ٥٢".

أرسلت هدى شعراوي الاحتجاجات السباقة، وظلت تعمل في لجنة نساء الوفد إلى أن اختلفت مع سعد باشا بعد عودته من المنفى، نظرًا لموافقته على البند الخاص بالسودان، الذي رمى إلى مناداة الملك فؤاد بملك مصر دون السودان في البيان، الذي ألقاه توفيق نسيم باشا عند توليه الوزارة، فما كان من سعد باشا إلا أن أرسل يهنئه على بيانه. ولم يتطرق مطلقًا إلى هذا التجاهل، فثارت هدى شعراوي ولم يعبأ سعد باشا

بثورتها، بل إنه عندما اجتمع بالوفديين في الاحتفال السنوي للوفد في ١٣ نوفمبر ١٩٢٢، لم يدعوها لحضور الاحتفال رغم أن العادة جرت على حضورها، ولجنة الوفد المركزية للسيدات منذ ثورة ١٩١٩. وفي الوقت الذي أصدر بيانًا عن الاحتفال، يشكر فيه كل الوفديين على موقفهم أثناء وجوده بالمنفى. فما كان من هدى شعراوي إلا أن أرسلت رسالة إليه شخصيًا، تخطره فيها بالرغبة في عدم العمل معه في اللجنة السابقة كما قدمت استقالتها.

فقد كانت هدى شعراوي أصدرت من خلال لجنة الوفد المركزية للسيدات في ٢٦ يناير ١٩٢٠، اعتراضها على ما تمخضت عنه المفاوضات في مشروع ري السودان ورفضت ذلك لثلاث نقاط:

أولًا: لأن الإنجليز هم الذين وضعوه باعتبارهم أصحاب الشأن في السودان مع أن مركز انجلترا هناك غير شرعي، ولا يختلف في بطلانه عن مركزها في مصر، فإن كليهما قطر واحد لا يقبل التجزئة وحقهما في الاستقلال لا يمكن إنكاره.

ثانياً: لأن هذا المشروع ثبت ضرره بدليل ما نشره الأخصائيون من كبار المهندسين المصريين والإنجليز.

ثالثاً: لأن البت في مثل هذه المشروعات من اختصاص المجلس النيابي، الذي يمثل مصر والسودان معًا، وليس لإنجليز.

على العموم طورت هدى شعراوي خطواتها؛ فدمجت جمعيتي "الرقي الأدبي للسيدات المصريات وجمعية المرأة الجديدة" في جمعية واحدة، هي

المرأة الجديدة تحت رعاية شرفيه للأميرة "أمينة حليم"، وجعلت مجلس الإدارة برئاسة حرم محمود صدقي، أما أمانة الصندوق فأسندته إلى فهيمة ثابت، وكان ذلك في ٢٢ أبريل ١٩٢٠. أما اللجنة المركزية للسيدات فقد تركتها لوكيلتها شريفة فاضل، التي لم تقم بأي عمل في اللجنة، بل إنها انضمت لاحقًا إلى الاتحاد النسائي الذي أنشأته هدى.

وركزت هدى شعراوي نشاطها على إلقاء المحاضرات في الفنون والأدا،ب وأقامت الحفلات الموسيقية لأشهر العازفين، وسمحت بالغناء والتمثيل في بيتها، وركزت نشاطها في الصحة والعناية بالأطفال، ووجهت المرأة إلى فنون الإدارة المنزلية. ومن المعروف تاريخيًا أن بعد فشل مفاوضات "عدلي- كيرزن" ١٩٢١، التي كانت بين الحكومة المصرية والإنجليز، عاد عدلي يكن وقدم استقالته – وعادت الثورة من جديد، وامتنع الساسة من المصريين عن تشكيل الحكومة، وألقت انجلترا القبض على سعد وزعماء الوفد، وتوسعت انجلترا في القبض حتى وصلت إلى القيادة الخاصة في الوفد. ثم تم نفي سعد زغلول وبعض زملاؤه للمرة الثانية إلى جزيرة سيشل. في هذه الفترة ظهرت المرأة المصرية في ثورة بيضاء سلمية، قائمة على المقاطعة لكل ما هو إنجليزي "البضائع- السفن- البنوك"، وكان إقبال الشعب على المقاطعة رائعًا. وبدأت تفلس أكبر المحلات التجارية البريطانية في القاهرة، أفلس محل "ستاين" ثم محلات "مورنج" وأحدًا أثر واحد، وبدأت البنوك البريطانية تغلق فروعها، ثم تغلق أبوابها، خرج الناس ينفذون المقاطعة بإرادة غريبة. كانت بعض المحال التجارية البريطانية تخفض أسعارها إلى النصف؛ لتغري الفقراء ومتوسطي

الحال بالخروج على قرار المقاطعة، وصمد المصريون للإغراء، فضلوا أن يشتروا البضائع غير البريطانية الغالية على البضائع البريطانية الرخيصة. طلب الوفد من الشعب أن يسحب أمواله من البنوك البريطانية، ويودعها في بنك مصر، وفي يوم وليلة خرجت الملايين من الخزائن البريطانية، ودخلت بنك مصر. نشطت الصناعات المصرية أصبح كل مصري يتباها بأنه يرتدي حرير اللوزي، أو قماشًا من صنع المحلة.

أصبح محل تجارة حامد المواردي في العتبة أعظم محل تجاري في القاهرة. كبر فجأة وتغلب على شيكوريل وشملا والبون مارشيه وأورزدي باك. فشلت كل محاولات لورد اللنبي، والحكومة لإفساد المقاطعة، ويصاب الإنجليز في مصر بانهيار، ويلحون على لورد اللنبي بضرورة التسليم للثوار، ويبرق اللورد إلى حكومته في ذعر "إن الثورة تزداد اندلاعًا. هذا الموقف الخطير لا يمكن أن يستمر، إما أن نضم مصر العنيفة العداء للإمبراطورية، وإما نستسلم استسلامًا تامًا!"

وعبثًا حاول الإنجليز أن يعرفوا أين تطبع منشورات المقاطعة، ولم يتصوروا أن نساء مصر هن اللاتي يتولين هذه الحرب الخفية. ولم يتصوروا أن مقابلات السيدات في بيوت مختلفة في الصالونات، هي اجتماعات سرية توضع فيها خطط المقاطعة. إلا أنه في عام **١٩٢٢** حدث ما لم تتوقعه هدى شعراوي؟! فقد حضرت صحفية أمريكية تُدعى "جريس تومسون"، لترى نساء مصر بعد أن أصبح تعلقهم ومظاهراتهم مع الوفد محل نظر الدنيا، وكتبت كتابًا اسمه "الزغلوليات" أي نساء ثورة مصر زغلول. والتقت في ذلك الوقت بالسيدة صفية زغلول والملكة نازلي، وإذا

ببعض السيدات تخطر هدى شعراوي بأن صفية زغلول لم تذكر عنها شيئًا، رغم تحدثها باستفاضة عن غيرها من نساء الوفد، وأنها تنسب فكرة المقاطعة لنفسها، وفي لحظة غضب أعلنت هدى شعراوي السر: لقد اجتمعنا في منزلي وبعيدًا عن لجنة سيدات الوفد سبع عشر سيدة برئاستي، وطرحت فكرة المقاطعة وانتخبنا عزيزة فوزي والسيدة جميلة عطية والأنسة سيزا نبراوي سكرتيرتي، ووضعت خطة للمقاطعة بنفسي من عدة بنود:

أولًا: رفع احتجاج الجمعية على سياسة إنجلترا نحو مصر والسودان إلى مندوب هذه الدولة بمصر، وإلى وزارة خارجيتها بلندن وتبليغ ذلك للحكومة المصرية.

ثانيًا: العمل على انتخاب لجان فرعية في المدن والمحافظات لترويج هذه الدعوة.

ثالثًا: نشر نداء للشعب تستحثه على تأييد مبدأ المقاطعة والعمل على تنفيذها.

رابعًا: نشر نداء للتجار وأرباب الصناعات تستحلفهم بحق الوطن عليهم، ألا يستوردوا بضائع جديدة أو آلات صناعية من إنجلترا.

خامسًا: أن تعقد جلسات اللجنة كل أسبوع يوم الجمعة بعد الظهر، بمنزل الرئيسة إلا إذا طرأت ظروف مستعجلة، وقالت عبارة رنانة.

ولم يكن المشروع إلا هودج ركبته أم المصريين! وكتبت سيزا نبراوي في مذكراتها: أن المقاطعة كانت بدايات أعمال الاتحاد النسائي في ذلك الوقت، أما تاريخ ١٦ مارس ١٩٢٣ فهو تاريخ التأسيس بعد الإجراءات

الإدارية. وإذا كانت صفية زغلول اعتبرت حرم بهي الدين بركات باشا "أركان حرب المقاطعة"، فالحقيقة أن هدى شعراوي "فيلسوفة المقاطعة وصاحبة الاقتراح".

وظهر كتاب "جريس تومسون" لأول مرة مترجمًا للعربية عام ١٩٧٠ كشف عنه النقاب "محمود عوده"، وجاء فيه: لقد دهشت أن الشرقيات كما يصورهن خيالنا الغربي المريض، قد انقرضن والحوريات المضطجعات في استرخاء يعرضن فتنتهن على أرائك ناعمة من الحرير، وحولهن الجواري يعزفن العود لم يعد لهن وجود إلا في كتب الأساطير، لقد وجدت مدام زغلول، وهي سيدة تبدو للناظر من الوهلة الأولى ذات شخصية قوية وذات كبرياء ووداعة، فلقد أُعتقل زوجها زغلول للمرة الثانية إلى جزيرة سيشل في ٢٢ ديسمبر ١٩٢١، بعدما رفض أن يعتكف في عزبته، وشهدت صفية هانم اعتقاله وظلت هادئة ساكنة، حتى غادر زوجها البيت. وكما قالت لها: أن سعد سجين سيشل، ولكنني هنا روحه الثانية وزوجته التي تصون مكانه. كذلك ردت بعنف وبثقة على المندوب السامي، عندما عرض عليها إمكانية مصاحبتها لزوجها بسيشل، حيث قالت: إنني سأظل في القاهرة وسأعمل كل ما في وسعي؛ لأتم عمل زوجي، وأنتم تستطيعون أن تنفوا جسمان سعد، ولكنكم لن تستطيعوا أن تنفوا روحه؛ لأنها تعيش وستظل تعيش، وفي بيته سأكون سعدًا حتى يعود. وهو سيعود لأن الشعب لن يرضى بغيابه، ولن يمكنكم من إبعاده طويلًا، وحتى لو مات سعد فسيأتي كثيرون غيره، وسيتقدمون الصفوف، وسأفعل كل ما أستطيع لإشعال روح الثورة في سبيل استقلال مصر.

كما أعدت صفية زغلول ولجنة الوفد للنساء منشورًا، وذاع في كل أنحاء البلاد، بعنوان "نداء حرم الرئيس" قالت فيه: لئن كان سعد شيخًا فثقوا أن هذا النفي لا يهد من عزيمته إلا شيئًا واحدًا، هو أن يعلم يومًا أنكم اعتراكم الضعف ولو للحظة واحدة. وبدأت عقلية الرئيس وزعماء الوفد في المنفى، وزعماء الصف الثاني في السجون صفحة كفاح مجيدة لسيدات مصر، وقد بدأ احتجاجهن يأخذ شكله العملي بتنظيم مقاطعة البضائع البريطانية، وانضم إلى السيدات عدد كبير من سيدات المرأة الجديدة. وجمعية مُحمَّد علي الارستقراطية للكفاح من أجل استقلال حقيقي للبلاد.

ولم تكن صفية هانم في الحقيقة سوى أم لكل المصريين، ولهذا لقبت "بأم المصريين" فكانت الزعيمة الروحية للنساء والرجال خاصة من عينة زوجها، كانت الرئاسة الفعلية للجنة السيدات في يد سيدة مصرية ثانية عظيمة، هي السيدة "هدى شعراوي" وكانت سيدة هادئة رزينة وزعيمة وقائدة بكل معنى الكلمة، وهي تحمل في وجهها شخصيتها تلك القوة الصافية المتدفقة، التي تحسها أمام النيل ونهر مصر العظيم ووراء مظهرها المهذب الشامخ، يحس الإنسان أيضًا أن هناك عقلًا مرتبًا، وإرادة صلبة. ولم تسمع هدى شعراوي شهادة تقديرها الحقيقية، وتركت نفسها لأوهامها التي صنعت الجفاء بينها وبين الوفد، والمقاطعة الحريمي بينها وبين صفية زغلول. وقد تطورت أحاسيها المبالغ فيها حتى أنها اعتقدت بأن صفية زغلول، هي التي أوعزت إلى سعد زغلول بالعناية "بمنيرة ثابت"، لتحل محلها في الوفد بعد ما أظهرته أختها فهيمة ثابت من وطنية بسفرها معها. كوصيفة عند مرض سعد زغلول في المنفى!

ولكن علي الشعراوي ما أن استراح لاستقالة زوجته من الوفد، حتى فوجئ بقصره يتحول إلى ملهاة ثقافية–غناء– وتمثيل واجتماعات و... و... لقد أرخت هدى شعراوي العنان، وتركت نفسها لنشاط فني وبدأت تهيم بالموسيقى، التي تعلمتها في الصغر وتركتها وراءها، كانت لا تستطيع أن تفر من ذلك، وقد أصبح يشرف على جمعيتها "المرأة الجديدة" الهوانم السيام، اللاتي دخلن في ركاب الأميرة الطيبة المهذبة "أمينة حيلم"، التي وضعت جزء من ثروتها لهذا النشاط.

وفجأة تفجرت قنبلة اسمها "فاطمة سري"، قيل أنها تزوجت عرفيًا من "مُحَمَّد شعراوي" ابن هدى هانم شعراوي، بورقة سرية في ١ سبتمبر ١٩٢٤!! ولم تكن فاطمة سوى مطربة أعتادت هدى شعراوي، أن تجعلها تحي حفلات جمعيتها "المرأة الجديدة"، وذلك لحسن حظها وذوقها الرفيع في الملابس، فقد قال لها يوسف وهبي: فاطمة سري فنانة مستقيمة من المسرح للبيت ومن البيت للمسرح– إنها بنت ناس!! وكان غريبًا أن تثق هدى شعراوي في يوسف وهبي دون جوان الفن؟! وجاء ذلك في وقت ظهور الاتحاد النسائي المصري ككيان سياسي تحت رئاستها، وتضمن برنامج الاتحاد النسائي مطالب شاملة فقد طالب باستقلال مصر والسودان، وحياد قناة السويس حتى لا تستخدم في الحروب وضد مصالح مصر، كما يوكل لمصر حق الدفاع عنها ورفض تحمل ديون تركيا القديمة، وطالب بإلغاء الامتيازات الأجنبية، كما نادى بوضع قاعدة للمفاوضات مع بريطانيا، ثم طالب بإدخال تغيرات على دستور مصر أهمها وضع الديمقراطية السياسية موضع التنفيذ، بأن تمنح المرأة حق الانتخاب وبإلغاء

القوانين الاستثنائية والرجعية، وقانون التضمينات، وكذلك الاهتمام بتحسين الجيش المصري؛ لأنه أهم وسيلة للدفاع عن الوطن الحبيب، والسعي لتطوير كافة وسائل المواصلات السلكية واللاسلكية. هذا في المجال السياسي، أما المجال الاجتماعي فقد دعى إلى نشر التعليم الابتدائي بصفة إلزامية، وطالب بالإكثار من البعثات العلمية وفتح باب التعليم القانوني، والعالي أمام الجنسين ودون التقيد بسمة معينة، مع تعليم الطلاب الصحة العامة والقانون والموسيقى، لتهذيب النفوس وزيادة الوعي والحث على استكمال الجامعة المصرية، وتشجيع حركة الترجمة لما لها من أثر بارع في نقل نفائس الكتب وأمهات المعرفة، وطالب بتطوير الصناعة وفتح باب الأسواق أمامها، وحمايتها من المنافسة الأجنبية وتشجيعها أمام المصريين خاصة بكافة الوسائل، وأخيرًا محاربة المسكرات والمخدرات. أما ما يخص الجانب النسائي، ففي مجال التعليم المطالبة بجعل الوظائف الإشرافية للمرأة، والمطالبة بحقوقها المهضومة وقانون الانتخاب، والسعي لحل المشاكل الأسرية بطريقة عادلة تضمن للمرأة حريتها وإنسانيتها، وضع قانون يمنع تعدد الزوجات والمطالبة بجعل الطلاق أمام القاضي، إلزام المطلق بالنفقة وزيادة سن الحضانة للأطفال وغيرها من قوانين الأحوال الشخصية.

واستطاع اتحاد هدى شعراوي أن يجذب إليه أنشطة الجمعيات الأخرى، وخاصة بعد رحيل سعد زغلول، الذي قدم السند الأدبي الكبير لحركة المرأة المصرية. وفي مارس ١٩٢٣ ظهرت هدى شعراوي في المؤتمر النسائي بروما ممثلة للمرأة المصرية، حيث ألقت كلمة عن أوضاع المرأة في

مصر، فرقت فيها بين أصول الدين، وما كفله للمرأة من حقوق، وبين الأوضاع الاجتماعية السائدة التي تكرس الوضع الدوني للمرأة. وانضم الاتحاد النسائي المصري للاتحاد النسائي الدولي على أساس المطالبة بحقوق المرأة السياسية، والمدنية والعمل على نشر مبادئ السلام.

وفي عام ١٩٢٤ اجتمعت نساء الوفد مع جمعية الاتحاد النسائي المصري، وأصدرت كتيبًا يشمل تصورًا شاملًا وعامًا به قسم سياسي عن موقفهن عن القضية المصرية، وقسم عن تعديل الدستور، وقسم آخر عن الأوضاع الاجتماعية، كما ضم الكتيب قسمًا نسويًا يطالب بحقوق المرأة مثل المساواة في التعليم، وزيادة مدارس البنات الثانوية، وفصل إدارة تعليم البنات عن تعليم البنين، وإحلال خبيرات من النساء محل الرجال في فروع التعليم النسوي، واشتراك النساء في حق الانتخاب، وإصلاح قانون الأسرة بسن قانون يجعل تعدد الزوجات للضرورة فقط، وأن يكون تطليق المرأة أمام القاضي الشرعي، وقد أرسل هذا الكتيب والذي يكاد يضم برنامجًا كاملًا لحزب سياسي نسائي إلى رئيس مجلس الشيوخ والنواب، والصحافة وعدد كبير من المواطنين والمواطنات.

وعادت هدى شعراوي لقصرها سعيدة قريرة العين ليفاجأها زوجها بما تنشره الصحف، ووقفت هدى شعراوي مذعورة، مما كتب من قلم جوعان وقلم غلبان وقلم كرباج وقلم هلفوت وقلم حوت وقلم ملطوط. فما الذي تنشره مجلة "فتاة النيل" و"الصباح"، ولكن ما أدهشها صورها، وهي تمثل سافرة مندمجة في الدور! وغاص علي شعراوي في مقعده، حينما قالت هدى: هذه الصور حقيقية، ولكن كيف خرجت من البيت؟! وعرف علي

شعراوي أن زوجته "سبع صنايع"– اكتشف أنها شاعرة وكاتبة، وأنها تحسن التمثيل كما تحسن العزف على البيانو! واكتشف أن في منزله معمل صغير لصناعة العطور، تبتكر بداخله أصنافًا جديدة تهديها هدى هانم لصديقاتها. وبالتحري وجد في حديقة قصره استديو خاص، تحمض فيه الصور وتكبر اللقطات– وأن زوجته كونت فرقة من الصديقات، تقوم فيها بدور المخرج ومهندس الديكور، وأن الممثل الوحيد فيها من الجنس الخشن هو نجله "مُحَمَّد بك شعراوي".

أما الرجل الذي وجده في الصورة المنشورة لزوجته، هي سيزا نبراوي، وقد اندمجت مع هدى شعراوي في دور روميو العاشق الولهان، بعد أن تنكرت ولبست ملابس الرجال؟! وحطم علي شعراوي استوديو التصوير وقرر أن يغلق باب القصر بسلسلة وقفل! ولكن الرجل وجد طلاب صينيين على باب القصر، وسأل في ثورة: إيه دول كمان؟! وعرف أن زوجته تعطف على هؤلاء الطلاب الذين يدرسون في الأزهر، وأنها قد جعلت لكل منهم مكافأة شهرية، وفتح الباب وكسر القفل وجلس يعطي لهم

ولكن هدى لم تخرج وأهتدت إلى أهمية الصحافة، وجلست لتعد لمشروع إصدار جريدة مصرية بعيدة عن الإسفاف والحياة الشخصية، وأصدرت بالفرنسية التي تجيدها "الأجيبسيان "، وأسندت رئاسة تحريرها إلى السيدة سيزا نبراوي مرافقتها الدائمة وسكرتيرتها الخاصة. وكان مقالها الأول عن: لماذا لم يفي سعد زغلول وعده بدخول المرأة البرلمان، واشتراكها في الحياة السياسية، وكان سعد زغلول وقتها يقود الوزارة! وإذا بعض الصحف ترد عليها بمقال: لماذا لا يتزوج الأبناء على سنة الله ورسوله؟!

ووجدت أن موضوع ابنها مع فاطمة سري قد تطور، فأرسلت علي بك سعد الدين لها بألف جنيه، فقالت له هذا لا يرضي الله؟! وأعتقدت هدى أنها تطمع في المزيد، فأرسلت المحامى الهلباوي بك بأربعة آلاف جنيه؛ فألقتها فاطمة سري في وجهه..

وقالت له إنت محامي أم قواد؟!

وإذا بفاطمة سري تعلن أنها حامل من ابن هدى هانم، وبدأت حركة نسائية كبيرة استعملت فيها الملاية والحياني والطماطم والبيض الفاسد، وبينما كانت معركة "هدى- فاطمة" دائرة، إذا بخطاب يصل من باريس يطالب الاتحاد النسائي المصري بالمشاركة في المؤتمر النسائي الدولي العاشر عام ١٩٢٦، وتحصل هدى شعراوي على تأييدات عربية من النساء؛ لتكون ممثلة عن مصر ونساء العرب "العراق- سوريا- فلسطين- لبنان- شرق الأردن"، لتعود من هذا المؤتمر وقد فكرت في الاتحاد النسائي العربي، فقد هالها الموضوعات المعروضة في مؤتمر باريس، والتي كانت تسمع عنها لأول مرة: الأم غير الزوجة، جنسية الزوجة، منع تجارة الرقيق، دور المرأة في السلام العام، بينما كانت في جعبتها موضوعات: فوضى الطلاق، بيت الطاعة، وضع حد لتعدد الزوجات.

وحينما عادت من المؤتمر وجدت نفسها قد حصلت على نيشان الكمال من لبنان. وأصبحت منذ ذلك الوقت رئيسة للاتحاد النسائي العربي، "واستمر هذا الاتحاد حتى بعد وفاة هدى شعراوي، وفي سنة ١٩٥٦ تولت رئاسته د. سهير القلماوي، واستمرت رئيسته حتى ٧٩

وعلقت عضوية مصر فيه. وألغى الاتحاد النسائي المصري، وقالت عنه د. سهير القلماوي أنه اتحاد من ١٦ دولة عربية، يحاول أن يعمل للتعارف بين البلاد العربية بأنشطة نسائية، ولكنه في الحقيقة ليس له تأثير سياسي أو إلزام دولي".

وفكرت هدى شعراوي في أهمية إصدار مجلتها "المصرية" باللغة العربية، حتى تستطيع أن تكون بمثابة منبر ليس للاتحاد النسائي المصري، ولكن الاتحاد النسائي العربي وعرضت رئاسة التحرير على د. سهير القلماوي، "الأنسة سهير القلماوي وقتها" وتقول عن ذلك: بدأت في الإعداد، ولكني فوجئت بأن هدى شعراوي تريدها ترجمة لمجلتها الفرنسية "الأجيبسيان "، فرفضت ولم أجد ديمقراطية في هدى شعراوي، وشعرت بأنه اتحاد هدى وهوانمها وليس اتحاد للمرأة!

ومنذ عام ١٩٢٦ ظهرت علامة غريبة بين الاتحاد النسائي المصري، والحركة النسائية في أمريكا، وبدأت مجموعة من الزيارات لهدى شعراوي إلى أمريكا "حتى الآن لم يكشف عن تلك العلاقة ومداها، ولم أجد شيئًا بخصوصها في المراجع"، إلى أنه اتبع ذلك زيادة نفقتها على تعليم الفتيات في مصر والخارج، حتى أن المثال مختار اسماها "إيزيس"، فقد تبنت فنّه وجعلته يتفرغ له.

وبعد عقد معاهدة ٣٦ لم تتفق هدى شعراوي مع النحاس باشا، وظل هجومها مستمرًا عليه – ولم يأخذ الرجل الأمر بجدية، وإنما حكى حكاية

عن فاطمة[٦] سري، وكيف قابلها في النمسا حينما هربت لتضع مولودها

---

(٦) وأعلن الصراع بين المطربة والزعيم ولكن الغريبة تبادل الأسلحة، المطربة تستخدم المبادئ التي تنادي بها هدى شعراوي، وهدى شعراوي تستخدم أسلحة المغنواتية (نعم.. يا عمر.. وهات يا ردح)، أنا اسمي فاطمة سري، ولم أغير اسمي لفاطمة شعراوي كما فعلت حماتي (اسمها نور الهدى سلطان)، وتزوجت علي باشا شعراوي فأصبح اسمها هدى شعراوي! وإذا كانت تدعي أني لا أحب مُحَمَّد شعراوي، فلتقل لى هل كانت تحب هي علي باشا شعراوي الذي تزوج قبلها، وكان فرق السن بينهما ٤٠ سنة! إذا لم أكن ربيت، فأنت لم تحسني تربية ابنك، لقد خطفني في سيارة وأنت تلعمين، وقال هدى شعراوي: القذرة.. بتاعة مين.. ومين إنها لها ملف في الآداب.

وكتبت فاطمة سري خطابًا إلى هدى شعراوي، أما نصه فقد نشره مصطفى أمين في كتابه (من واحد لعشرة)، وأعاد نشره عدة مرات. سيدتي: سلامًا وبعد.. أنا اعتقادي بك وبعد لك، ودفاعًا عن حق المرأة، يدفعني كل ذلك إلى التقدم إليك طالبة الإنصاف، وبذلك تقدمين للعالم برهانًا على صدق دفاعك عن حق المرأة، ويمكنك حقيقة أن تسيري على رأس النساء مطالبة بحقوقهن، ولو كان الأمر مقصورًا علي لما أخرجت مركزك، إنك أم تخافين على ولدك العزيز أن تلعب به أيدي النساء، وتخافين على مستقبله من عشرتهن، وعلى سمعته من أن يقال أنه متزوج امرأة كانت فيما مضى من الزمان تغني على المسارح، ولك حق أن عجزت عن تقديم ذلك البرهان الصارم على نفسك؛ لأنه يصيب من عظمتك وجاهك وشرف عائلتك، كما تظنون يا معشر الأغنياء، ولكن طفلة مسكينة هي ابنتي وحفيدتك، ابنة نجلك العزيز، والله يعلم، وهو يعلم، ومن يلقي عليها نظرة، واحدة يعلم ويتحقق من أنها لم تدنس ولادتها بدم آخر، والله شهيد، وطالبت بحق هذه الطفلة المعترف بها ابنك كتابيًا، قبل أن يتحول عني وينكرها وينكرني، فلم أجد من يسمع لندائي وما مطالبتس بحق وحقي كزوجة طامعة في مالكم، كلا! والله فقد عشت قبل معرفتي بابنك، كنت منزهة محبوبة كممثلة تكسب كثيرًا، وربما أكثر مما كان يعطيه لي ابنك، وكنت متمتعة بالحرية المطلقة وأنتِ أدرى بلذة الحرية المطلقة التي تدافعين عنها، ثم عرفت ابنك فاضطرني أن أترك عملي وأنزوي

"ليلى"، الذي حملت به من مُحَمَّد علي الشعراوي ابن هدى شعراوي، وأثبتت الولادة في القنصلية المصرية في فيينا، وكيف أنه وقف معها، لأن يقف مع الحق.. وعرف أنها واقعة تحت تهديد؛ فنصحها أن تذهب إلى محل زنكوغراف وتحصل على صورة مطابقة للإقرار، وعندما تيأس من المقاومة تسلم صورة الإقرار وتحتفظ بالأصل. وأن أم مُحَمَّد "يقصد هدى شعراوي" لم

في بيتي، فأطعته غير طامعة بأكثر مما كان يجود به، وما كنت لأطمع أن أتزوج منه، ولا أن ألد منه ولدًا، ولكن هذه غلطة واسأليه عنها أمامي، وهو الذي يتحمل مسئوليتها، فقد كنت أدفع عن نفسي مسألة الحمل مرارًا وتكرارًا، حتى وقع ما لم يكن في حسابي، هذه هي الحقيقة وانتهى الأمر). وفي الجمعيات النسائية كان النساء يقلن بخلق من ظهر العالم فاسد (هدى شعراوي) تنجب ولدًا بهذا السوء .وتضع هدى شعراوي كل قوتها في قضية امام القضاء؟! وتحدث تدخلات، وقضاة يصمدون للإغراء، ومحامون يتصيدون الأدلة والمستندات، وإذا بالمحكمة الشرعية العليا تحكم بأن ليلى هي ابنة مُحَمَّد شعراوي، وفي الحال قررت هدى شعراوي أن تطلب بنوة الابنة، ونجحت في ذلك ففتحت لها سرايتها وضمتها إلى صدرها وكأنها تعتذر لها– أما أمها فقد أبقتها خلف الأسوار. وقالت لمحمد انسى الموضوع. لا عودة للماضي، وقالت لها فاطمة سري أخذتى رجلي الذب أحببته على مهلي.. حتى ضعفة أحببته والآن تأخذي ابنتي، وقالت لها أو لم تقل كان هناك الخادم النوبي يوصلها إلى الباب، والمعنى الزيارة انتهت. وفي الحديقة تمتمت المطربة بدعاء يتنظر إلى السماء، وفي الوقت الذي كانت فيه ليلى مُحَمَّد شعراوي في أمريكا تتعلم، كان أبوها يدخل في قصة جديدة.. إنه يعشق الفن، وهذه المرة مع الراقصة أحلام، وزواج على سنة الله ورسوله بفرح ورزق منها بثلاثة أولاد. وقال الناس آه لو عرفت هدى شعراوي.. اللي ما يرضى بالخوخ.. يرضى بشرابه!!).ولم تعلم هدى هانم بالكارثة الجديدة، فقد ماتت بالسكتة القلبية وهي جالسة تكتب بيانًا فس فراش مرضها، تطالب فيه الدول العربية بأن تقف صفًا واحدًا في قضية فلسطين.

نغفر لها ذلك! واستعمل عبارة قلبها أسود!

وفي كتاب "د. آمال كامل السُبكي" سابق الذكر، ذكرت أساس هذه المعارضة وموقف هدى شعراوي، لقد رأت هدى شعراوي أن هناك ثمة تعارضًا أو تناقضًا ما بين المادة التي تنص على إنهاء الاحتلال العسكري البريطاني، والمادة التي تقضي بإبقاء الجنود البريطانيين في بعض المناطق الهامة في مصر، ثم أرسلت هدى شعراوي تحتج على التكاليف الباهظة التي ستدفعها "المحروسة"، بناءً على نصوص معاهدة سنة **١٩٣٦** في الوقت الذي يطالب فيه الشعب النحاس باشا بخفض النفقات.

ظلت هدى شعراوي مستمرة في هجومها علي النحاس باشا، والوفد بعد عقد المعاهدة وبعد مؤتمر مونترو. ولكن البعد الكامل عن الوفد تجلى في موقفها المؤيد للسعديين والمتعاطف معهم، فعندما أخرج النحاس باشا كلًا من النقراشي وأحمد ماهر نشرت مقالًا ضد الوفد تحت عنوان: "أخطاء السياسة الداخلية في عام"، عابت فيه على النحاس باشا سياسة الذاتية، رغم كونه زعيمًا للأغلبية، واتهمته بأن الاستقلال في نظره لا يعدو أن يكون استقلالًا بالحكم واضطهاد لمعارضي الوفد، كما عابت عليه إسرافه في منح الرتب والنياشين والترقيات لمناصري سياسته، وتلك المحسوبية التي لم تنج منها في نظرها سوى وزارة المواصلات، التي كان النقراشي وزيرها وكذا ميزانية مجلس النواب، التي أشرف عليها أحمد ماهر.

ثم كان في تأييدها لاتهام النقراشي للنحاس باشا في موضوع الزعامة المقدسة، ما يثبت هذا النهج الجديد في سياستها المؤيدة للسعديين،

وأحزاب الأقليات والرامي إلى أبعاد الوفد بعد أن انتهت مهمته، كما رأت بعقده لمعاهدة سنة ١٩٣٦ ويتضح ذلك من قولها. "يطالب النحاس الجميع بالطاعة العمياء لزعامته باعتبارها زعامة معصومة من الأخطاء، ثم يطالب أن يفنوا أشخاصهم في قدسية زعامته دون أن يسألوه عما يفعل".

واستمرت هدى شعراوي تحتج على وجود كتائب "القمصان الزرقاء"، رغم ما أعلنه الوفد مرارًا بأن الباعث لوجودهم هو حماية الديمقراطية من عبث القوات الأخرى، مثل "القمصان الخضراء" التي كونتها "مصر الفتاة"، وكتائب الكشافة التي أعدها الإخوان المسلمون، وطلبة النضال أو كتائب المقاومة التي نظمها اليسار، والتي نزلت أثناء حوادث فبراير سنة ١٩٤٦ وقال النحاس لها "أعلم أن الملك فاروق مصلتك عليّ بس القمصان باقية".

كان احتجاج هدى شعراوي سببه أن تلك الكتائب أصبحت أداة إرهاب في البلاد، ومنبع قلاقل وكثيرًا ما سببت رعبًا للجماهير باعتداءاتها المتكررة عليهم، كذلك الخسائر التي يحدثونها بتعديهم على المحال التجارية والمكاتب والمنازل،وهذا في الحقيقة يتعارض مع الديمقراطية، التي يقول الوفد أنه حاميها. واستمر عداء هدى شعراوي للوفد حتى قالت عنه أنه ميراث تبدد، وثوب تهلهل، والميراث الذي تبدد في نظرها هو تركه سعد زغلول السياسية، التي ورثها النحاس باشا فبددها، وأما الثوب الذي تهلهل فهو ثوب الوفدية الذي ورثه النحاس باشا مع التركة السياسية المهلهة فأوسعه تمزيقًا، ثم أشارت إلى اختلاف برنامج الوفد عن باقي الأحزاب السياسية، لذلك لا مبرر لبقائه في الحكم. لم تتوقف هدى

شعراوي عن مناهضتها للوفد، حتى أنها تقدمت باحتجاج باسم الأمهات المصريات استنكرت فيه اعتداء البوليس على الطلبة، كما احتجت على خنق حريات الجماهير، إذا واجب الحكومة هو احترام الدستور الذي يكفل حرية الرأي للشعب وإن كانت الوزارة عاجزة عن القيام بهذا لتترك الحكم لغيرها.

وفي بداية الأربعينات، وقفت هدى شعراوي مع نبوية موسى في مناصرة القصر، والملك فاروق بعد حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ضد النحاس والوفد والانجليز، وأصبحت أحد "المعتمدة" عند أحمد حسنين باشا "رجل القصر والملك"، حتى أنه لجأ إليها في بعض مشاكل فاروق مع زوجته "الملكة فريدة"، ولذلك حصلت على الوشاح الأكبر من نيشان الكمال من الملك فاروق في حفل الاتحاد النسائي. وعند وفاتها أرسل الملك فاروق والإمبراطورة أخته فوزية والأميرة فايزة مندوبين عنهم للتعزية، وكذلك الهيئات التي كان يشرف عليها أميرات القصر مبرة مُحَمَّد علي وسيدات الهلال الأحمر.

وقد كانت هناك حربًا باردة بين "منيرة ثابت" ومجلة "الأمل"، التي أسسها الوفد عام ١٩٢٥ لتكون مناصرة لأرائه، بعد تأسيس هدى شعراوي لاتحادها النسائي- فكان من الطبيعي أن يكون التنافس بين الاثنين لاختلاف الآراء والأهداف. إلا أنه سنة ١٩٣٣ دعتها هدى شعراوي والاتحاد النسائي للاحتفال بأول دفعة من خريجات الجامعة، وكن أربعة فتيات ثلاثة من كلية الآداب، ومنيرة ثابت نفسها باعتبارها حاصلة على ليسانس الحقوق من غير الجامعة المصرية، وكما تقول سيزا نبراوي أن

سبب دعوتها هو ضمها إلى الاتحاد النسائي؟! ولم تتجه منيرة ثابت إلى الاتحاد النسائي وتشارك فيه، إلا عندما اهتمت هدى شعراوي بقضية فلسطين، "عرضت القضية في مجلة المصرية لإضراب شعب فلسطين١٩٣٦، وظهرت فيه مبادئ الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين- وأوضحت التحقيقات المنشورة أنه أطول إضراب عرفته البشرية لاستمراره ٦ شهور"، أصبحت فلسطين موضوع أساسي في مجلة المصرية منذ إنشاء المجلة باللغة العربية. ولم تجذب قضية فلسطين منيرة ثابت وحدها – وإنما وجدنا زينب الغزالي "الإخوان المسلمون"، تقبل الاشتراك في نشاطات هدى شعراوي في "هذه القضية وحدها".

وفي الفترة بين ١٥ و١٨ أكتوبر سنة ١٩٣٨ عقد "المؤتمر النسائي الشرقي" في القاهرة، وهو من أهم المؤتمرات التي عقدت لنصرة فلسطين، قالت هدى شعراوي فيه أن "فكرة إيجاد وطن قومي لليهود، ليست ناشئة عن مجرد عطف بريطانيا العظمى عليها وحبها لها، وإنما هي وليدة مطامع استعمارية خطيرة خلفتها سياسة طائشة، أرادت أن تلعب بالنار لتحقيق مآرب سياسية لها خطورتها على الأمم الشرقية، والسياسية العالمية". وقالت هدى شعراوي "أن نساء مصر يسوءهن تصرف بريطانيا، هذه وإن كان هناك معاهدة تحالف قد عقدت بين بريطانيا ومصر، فقد فعلت مصر بعد أن ساعدت بريطانيا بلاد الحبشة الضعيفة ضد إيطاليا، وسياستها الاستعمارية في شرق أفريقيا، ولم تكتفِ بعقد المعاهدة بل دفعتنا الحماسة إلى السخاء في التنازل لها عن كثير من حقوقنا، نظير دفاعها عن جارتنا وانتصارها للأمم الضعيفة. ولقد استطردت هدى شعراوي بأن هذا رياء

ومظاهر لا حقيقة لها، لعبة من ألعاب الدول القوية فهي تعترف أخيرًا بالاحتلال الإيطالي على الحبشة، ثم بعد ذلك تتخلى رويدًا عن حماستها وتعضيدها للحبشة، وتضحي بصداقة روسيا وتستلم لمطالب هلتر، وتفسر هذا التراجع بأن اليابان كانت تخطط لتحقيق فرصة اشتباك إنجلترا في الحرب، لتهاجم المستعمرات البريطانية. ومن ذلك نرى أن بريطانيا العظمى لا تستأسد إلا على الأمم الضعيفة، ولا تحترم إلا القوة على اختلاف أنواعها، ولا يخفى على حضراتكم ما لليهود من قوة مالية، ثم اختتمت كلمتها بقولها "إن القوة المعنوية التي كانت وما زالت تملكها العرب، لها الغلبة دائمًا على القوة المادية؛ لأن القوة الغاشمة تخرب وتدمر، والقوة المعنوية تبني وتعمر، وهذه القوة تملأ والحمد لله نفوسنا فأبشركن سيداتي بأن الأمة العربية تستعيد مجدها بإذن الله، وربما كانت هذه المآسي والتضحيات درسًا لنا وبشيرًا لخاتمة حسنة لم تكن في الحسبان". أما عن مثلات مصر في هذا المؤتمر فكن السيدة هدى شعراوي رئيسة ونفيسة حرم مُحَمَّد علي علوبة باشا، أمينة حرم الدكتور فؤاد بك سلطان، بسيمة حرم عبد الرحمن رضا باشا، جميلة حرم حسن بك أبو شنب، عزيزة حرم الدكتور حسين هيكل باشا، علية حرم محمود خليفة بك، بهيجة حرم حسن رشدي، أنصاف حرم منصور فهمي بك، سيزل حرم مصطفى نجيب، دريّة حرم أحمد فكري، منيرة ثابت، ماري كحيل، إلين صرف، حواء إدريس إيفا حبيب المصري، حنيفة أحمد علي علوبة، تحية مُحَمَّد، نعيمة الأيوبي، زينب الغزالي.

وبالإطلاع على مذكرات هدى شعراوي المنشورة بكتاب الهلال،

وجدنا مسطورًا بيدها "عندما زرت بيت الله الحرام تصدقت بأموال من مالي، ومن سيدات فضلات في الاتحاد النسائي وبعض الجمعيات الأخرى، وتقابلت مع سمو الملك عبد العزيز آل سعود، وعرضت عليه في وقتها إنشاء مدرسة لتعليم الفتيات فحازت الفكرة القبول لديه"، وفي مجموعة من الدراسات ذكر: أسست هدى شعراوي قبل وفاتها جمعية خيرية من جميع البلاد الإسلامية لرعاية فقراء المسلمين، الذين نزحوا من بلادهم للإقامة في مكة والمدينة بعد أن لاحظت حالتهم المليئة بالشقاء والحاجة، ولقد بلغت قيمة التبرعات والمساعدات التي كانت هدى تمد بها المحتاجين والفقراء خمسة آلاف جنيهًا سنويًا.

ويبدو أن فكرة إنشاء جامعة الدول العربية، هي وليدة للمؤتمر النسائي العربي، الذي نظمته هدى شعراوي في القاهرة في أكتوبر عام ١٩٣٨، للدفاع عن قضية فلسطين "كما سبق ذكره"، وكان آخر ما كتبته هدى شعراوي ونشر بالأهرام يوم وفاتها هو تلك البرقية.

تلقت رئيسة الاتحاد "النسائي العربى" برقيات من رئيسات الاتحادات النسائية في الأقطار الشقيقة: العراق- سوريا- فلسطين- لبنان- شرق الأردن- بمناسبة انعقاد جامعة الدول العربية، يفوضنها في اتخاذ القرارات الحاسمة لنصرة فلسطين، وتأييد الجامعة في نضالها كما عبرن في هذه البرقية عن تنظيم جهودهن لجمع المال وإعداد الكساء، وقيد أسماء المتطوعات للإسعاف، والاستعداد الكامل للجهاد مع إخواتهن العرب جنبًا لجنب.

كانت خلاصة آرائها بالنسة للمرأة منبثق من إيمانها الكامل بكفاءتها،

ومساواتها للرجل في كل القدرات– لذا استطاعت رفع السن الأدنى لزواج الفتاة إلى ١٦ عام وللفتى ١٨ عام، وقد رأت أن نجاح الارتباط يأتي من الاقتناع الكامل المبني على المعرفة الجيدة قبل الزواج، من خلال الاختلاط في محيط الأسرة، كما آمنت بأنه لابدّ من وضع قيود أمام الرجل، للحيلولة دون الطلاق خوفًا على سلامة بنيان الزوجية، كما اعتبرت أن عدم تعليم المرأة تعليم عالي، وفتح كافة آفاق المعرفة أمامها مثلها في ذلك مثل الرجل سيؤدي حتمًا إلى تأخر المجتمع وتخلفه عن ركب الحضارة.

بقت نقطة دار حولها الجدل، واتهمت فيها هدى شعراوي بالانحلال! هل خلعت هدى شعراوي الحجاب، وألقته بالأرض في ثورة ١٩؟! لقد رأيت بمراجعتي أن هدى شعراوي خرجت في مظاهرتين ١٦ مارس ١٩١٩، ١٦ يناير ١٩٢٠ ولم يذكر شيئًا عن خلعها الحجاب؟!

فالحقيقة أن هدى شعراوي وسيزا نبراوي لم يخلعا الحجاب الشرعي، الذي يكشف عن الوجه والكفين، وإنما خلعا النقاب، ولم يكن ذلك أثناء المظاهرات– وإنما عرف عنهما ذلك في الوقت الذي كان النقاب منتشرًا بين النساء، وفي آراء هدى شعراوي أنها مع السفور الذي لا يخالف الدين ولو خالف التقاليد، وقد قررت "المستشرقة مارجو بدران " ذلك بقولها: أدركت المرأة المصرية آنذاك أن النقاب ليس فريضة دينية، ومع ذلك فقد أدركت النساء الضريبة الباهظة التي ستضطرهن هن أو أبنائهن لدفعها، إذا ما جاهرن بهذه الدعوة، ومن هنا رأين أن يكون التغيير تدريجيًا من خلال الفعل لا القول، لقد تنبأت ملك حفني ناصف وهدى شعراوي بانحسار النقاب، ومع ذلك لم تدع أي منهما لنبذه، على العكس فقد حذرت

كلتاهما من ذلك في تلك الفترة، مع ذلك فبعد ٢٤ عامًا من نشر كتاب تحرير المرأة ووفاة قاسم أمين، نزعت هدى شعراوي وسيزا نبراوي النقاب باعتباره رمزًا للقوة الغاشمة، والنظام الذي دعا قاسم أمين لمقاومته. وتستطرد لو كان فعل خلع النقاب من "هدى شعراوي" وزميلتها فعل مرتبط بثورة ١٩١٩. لما أحتاج سعد زغلول لمحاولة تكراره للتأكيد عليه – وبخاصة أن سعد كان أزهريًا في الأصل. فقد رفع سعد اليشمك عن وجه ابنة الشيخ علي يوسف في إحدى الحفلات الدينية في بيت الأمة– ولم يقلع النساء عنه. ووقفت الآنسة فكرية حسني تلق خطاب على وجهها البرقع. فتقدم سعد أمام الألوف ورفعه– وأصبح هذا أمرًا من قائد الثورة بنزع ما يخفي الوجه – وليس الحجاب. وأعتقد أن ما وصلت إليه "مارجو بدران"، هو الراوية السليمة، فقد ذكر مصطفى أمين في كتابه "الكتاب الممنوع" ج٢، ص٨، طبعة دار المعارف ١٩٧٥

" أما موقف سعد زغلول الحاسم تجاه الحجاب، فقد تجلى عام ١٩٢٣ حينما عاد من منفاه، واستقبلته مصر كلها استقبال الغزاة الفاتحين. كانت معه صفية زغلول قالت له قبل وصول الباخرة إلى ميناء الإسكندرية، ألم يحن الوقت لكي أنزع البرقع الأبيض؟

فالتفت إليها سعد زغلول ثم إلى شابين كانا معها، هما واصف غالي وعلي الشمسي، ثم سألهما رأيهما وإذا بهما يعترضا بحجة ألا تكون هي البادئة بنزع الحجاب.

وإذا بسعد يقول: هذه ثورة ارفعى حجابك.

ورفعته صفية زغلول ثم ظهرت للجماهير لأول مرة بوجه سافر مكشوف، وإذا بنساء مصر يتشجعن ويرفعنه بعدها كمظهر من مظاهر الحرية، التي رافقت مسيرة المرأة آلاف السنين.

فحتى مصطفى أمين لم يعرف الفرق بين البرقع والحجاب؟! وأعتقد أن وقوف المرأة بوجه سافر يعتبر نزعًا للحجاب!! مع أن إظهار الوجه والكفين في إطار الحجاب الإسلامي السليم. وقد ركز الإخوان المسلمون على ذلك فمثلًا في كتاب مُحَمَّد قطب "قضية تحرير المرأة" جاء فيه: عندما احتلت إنجلترا مصر فشلت فشلًا ذريعًا في غزوها ثقافيًا. لذا تسللت عن طريق المرأة فظهر عميلها قاسم أمين، وطالب بتعليم المرأة باعتبارها نصف المجتمع، ولما نجحت حملته بدأ يطالب بخلع الحجاب، فواجه ثورة كبرى إلا أنه أثناء ثورة ١٩١٩ شاركت النساء في مظاهرات ضد الاستعمار الإنجليزي، وكانت أول مشاركة للمرأة في الحياة السياسية، وشعر الرجال بمدى بطولتهن، وفي إحدى المظاهرات بميدان الإسماعيلية، وأثناء الهتاف بسقوط الاستعمار فوجئ الجميع بقيام النساء بخلع النقاب، وإلقاءه في الأرض ثم سكب البنزين عليه، واشتعلت فيه النيران وعندئذٍ أطلق على الميدان اسم ميدان التحرير، تخليدًا لذكرى تحرير المرأة "فهل فرضت إنجلترا الحجاب على النساء أم فرضه الله من فوق ٧ سموات قبل ١٤ قرن"؟!

وعن نفس الموضوع تكتب دريّة شفيق في كتابها "المرأة المصرية من الفراعنة حتى الآن".

قالت: كان ذلك حوالي عام١٩٢٣عندما كانت السيدة "هدى

شعراوي" قادمة من فرنسا، وهي لم تبلغ بعد العقد الرابع من العمر، بمصاحبة كريمتها وزوج كريمتها المرحوم محمود باشا سامي، وسكرتيرتها السيدة "سيزا نبراوي" وكانت على ظهر الباخرة، التي يعود عليها الزعيم سعد زغلول من فرنسا بعد شفائه، وكانت هدى شعراوي لا تزال تفكر في النظرة التي تقابل بها المرأة المصرية، حتى أنهم كانوا حين يرون هدى شعراوي وزميلاتها بلا يشامك ولا براقع، يتشككون في مصريتهن، وفي ذلك المؤتمر الأخير بالذات كانت مندوبات الدول المختلفة. ينكرن على السيدة هدى شعراوي مصريتها، ولا يكون يتعرفن إلا بمصرية واحدة، كانت تصر على حضور المؤتمرات آنذاك محجبة لا تكشف شيئًا من وجهها، وهي المرحومة "نبوية موسى".

حينئذٍ قالت هدى شعراوي: ما دمنا نظهر في مؤتمرات فرنسا سافرات الوجه، بدون أن يكون في هذا ما يخدش الحياء والشرف، فلماذا لا نظهر سافرات في بلادنا أيضًا!

- ولكن التقاليد في مصر لا تسمح بالسفور!
- ولماذا لا تتطور هذه التقاليد مع الزمن؟!
- وماذا نصنع نحن في هذه التقاليد؟
- لابد أن يكون لدينا من الشجاعة ما يجعلنا نقوم بدور إيجابي في ذلك.
- ولماذا لا نبدأ نحن فتتبعنا الأخريات؟

وقد كان.. فحين وصلت الباخرة إلى الميناء، بدأت هدى شعراوي،

ومن معها من النسوة في رفع اليشامك والأنقبة. وتحكي هدى شعراوي عن ذلك بقولها ".. ورفعنا النقاب أنا وسكرتيرتي، وقرأنا الفاتحة، ثم خطونا على سلم الباخرة مكشوفتي الوجه، وتلفتنا كي نرى تأثير الوجه الذي أصبح سافرًا لأول مرة بين الجموع، فلم نجد له تأثيرًا أبدًا".

ثم نجد روايتين "لسيزانبراوي" الأولى شفهية، سجلتها مارجو بدران في رسالتها للدكتوراه، والتي عنوانها "هدى شعراوي وتحرير المرأة المصرية" في حديث أجرى بينهما، انضم الاتحاد النسائي المصري إلى التحالف الدولي مع التزام أعضائه في إطار الحركة النسائية الدولية، بالحصول على الحقوق السياسية، التي سلبت منها جنبًا إلى جنب مع الحقوق الاجتماعية والاقتصادية. وعند عودتهن من الاجتماع النسائي نزعت كل من هدى شعراوي وسيزا نبراوي الحجاب في محطة القاهرة، وقبل النزول من القطار، وذلك أمام حشد كبير من السيدات المهللات، وجاء هذا العمل بمثابة إعلان رسمي من قبل رائدات الحركة النسائية بإنهاء نظام الحريم، ووضع حد لعزلة المرأة، والفصل بين الجنسين وبداية الحركة النسائية الرسمية والعلنية في مصر، وفي نفس هذا الأسبوع ولأول مرة في التاريخ ظهر وجه المرأة المصرية في الصحف المحلية، "وذلك بعد مضي حوالي نصف قرن منذ سماع صوتها لأول مرة في الصحف". مما أعاد تأكيد بشكل رسمي من جديد وضع حد نهائي لاحتجابها وإنعدام شخصيتها.

والثانية سجلتها في مذكراتها، ويبدو أن سيزا نبراوي داهية الحركة النسائية المصرية، فهي كانت سكرتيرة هدى شعراوى، ثم قفزت من سكرتيرة لمؤسسة في الاتحاد النسائي، وتولت رئاسة تحرير المصرية

بالفرنسية، وظلت وراء الحركة في الخلف، مكتفية بالدور الثاني السنيد، واستمر حالها كذلك مع درية شفيق. أما ما سجلته في مذكراتها:

ففي صيف عام ١٩٢٣ عندما كان رئيس حزب الوفد سعد زغلول، وزوجته صفية زغلول في طريق عودتهم إلى مصر، على نفس الباخرة مع هدى شعراوي، لاحظ رئيس الوفد أن الحجاب كان مرفوعًا عن وجه هدى شعراوي، ولكنه كان يغطي شعرها "طبقًا لما يقضي به الإسلام"، فطلب منها أن تساعد زوجته على وضع الحجاب مثلها، وكانت صفية زغلول تهم بمغادرة الباخرة في الإسكندرية دون حجاب، عندما رأها رجال الوفد واعترضوا بشدة مصممين على أن الشعب لن يقبل ذلك. وغادرت صفية زغلول وزوجة رئيس الوفد الباخرة بالحجاب، بينما غادرت هدى شعراوي رئيسة اللجنة المركزية نساء الوفد الباخرة بدون يشمك على الوجه.

أقول للرجال ولن تعدلوا.. ولو حرصتم ؟!

١٩٠١-١٩٦٩

اعتقلت السلطات البريطانية الزعيم سعد زغلول مرتين: الأولى في ٨ مارس ١٩١٩ ونفته مع ثلاثة من رفاقه هم: حمد الباسل ومُحَمَّد محمود وإسماعيل صدقي إلى مالطة، كان هذا العمل بمثابة الشرارة التي فجرت مستودعًا من البارود. ففي اليوم التالي انفجرت الثورة الشعبية في كافة أنحاء مصر، اشتركت فيها كل طوائف الشعب من مسلمين وأقباط ورجال ونساء وعمال وفلاحين، وطلبة وأثرياء وفقراء، مما جعلها ثورة فريدة في تاريخ الأمم والشعوب.

وبعد الإفراج عن سعد ورفاقه في ٤ إبريل– أي بعد أقل من شهر– لم يعد "سعد" إلى مصر، وإنما أبحر إلى فرنسا ليعرض قضية استقلال مصر على مؤتمر الصلح المنعقد في فرساي، وعند عودته إلى مصر في ٢١ مارس ١٩٢١– بعد عامين من اندلا ع الثورة– استقبلته الأمة استقبالًا لم يحدث لفاتح من الفاتيح، فكان توكيلًا جديدًا أبلغ من التوكيلات المكتوبة، التي قدمتها الأمة لتفويض "سعد" في المطالبة باستقلال البلاد، ورغم أنه قد صار شيخًا جاوز الستين، إلا أن عزيمته الصلبة وشكيمته القوية لم تدفع به إلى الهدوء والسكون، فاستأنف الجهاد والنضال وكأنه شاب في الثلاثين، وحرك الأمة من أجل التمسك بحقوقها وصارت مصر معه شعلة من

الكفاح الوطني، فكان الاعتقال الثاني في ٢١ ديسمبر ١٩٢١وفي هذه المرة كان معه ثلاثة من المسلمين هم: مصطفى النحاس، فتح الله بركات وعاطف بركات واثنان من الأقباط هما: مكرم عبيد وسينوت حنا، وتم نقلهم من السويس إلى مستعمرة "عدن"، ومنها إلى جزيرة سيشل بالمحيط الهندي ومنها إلى مستعمرة جبل طارق، ولم يفرج عنهم إلا في ١٩٢٣..

وهنا بدأ اتصال السيدة "فهيمة ثابت" "بصفية زغلول" عقب مظاهرة السيدات الأولى في مارس ١٩١٩، وبعد اعتقال "سعد زغلول" ورفاقه سارت المظاهرة النسائية، وهي تهتف وتندد بالإنجليز، وسرعان ما تم حصار هذه المظاهرة بمجرد وصولها إلى "بيت الأمة"، وصعد عدد كبير من هؤلاء النساء إلى لقاء "أم المصريين"، ثم هبطت إحداهن وهي تخطب في النساء قائلة: " إن أم المصريين وهي تحيي حضراتكن ترى من اللائق التزام جانب الهدوء والسكينة، بعدما سجلته المرأة المصرية بموقفها من الجهاد لإنقاذ وطنها العزيز". بعد ذلك تم تنظيم مظاهرة نسائية ضخمة طافت شوارع القاهرة بالسيارات، وقدمت النساء احتجاجات إلى قناصل الدول ثم عدن إلى بيت الأمة، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تلتقي فيها السيدة "فهيمة ثابت"، بأم المصريين! ثم تمضي "فهيمة ثابت" تقول في مذكراتها بعد ذلك: "في صبيحة يوم الاعتقال دق ناقوس الهاتف من منزل، إحدى صديقاتي فقالت إن السلطة اعتقلت "سعد" ونقلته في عربة مقفلة، ولا يعلم إلا الله أين هو الآن؟!" فاستولى علينا الذعر لذلك أسرعنا إلى بيت الأمة، حيث تلتقي جماعتنا لمواساة أم المصريين، التي راحت بدورها تروي للنساء الحوار، الذي دار بينها وبين اللورد اللنبي عندما فاجأته بقولها: إني طلبت إليكم أن

تعتقلوني مع قريني سعد لأتولى السهر على راحته؛ لأنه مريض ويحتاج لعنايتي فلم تقبلوا! ولمّا علمتم أن الوفد يجتمع في بيت الأمة، أرسلت تصرح لي بالسفر واللحاق به، فاعلم إذن أنني أرفض السفر!! وسأقوم مقام سعد وسأقود الحركة الوطنية بنفسي، وسيظل منزلي مفتوحًا إلى آخر نسمة من حياتي، والقوة لها أن تفعل ما تشاء!

ثم تضيف "فهيمة ثابت": وقادت أم المصريين الحركة الوطنية بإيمان وثقة مدة إقامتها في مصر، ولما نقلوا الزعيم من "سيشل" إلى "جبل طارق"، وهو معتل الصحة أرسل إليها برقية للشخوص إليه "السفر"؛ فلبت نداء الواجب فسافرت إليه في الحادي العشرين من سبتمبر ١٩٢٢، وذهبت السيدة "فهيمة ثابت" لحضور الاجتماع المنعقد في بيت الأمة؛ للاستفسار عن صحة "سعد زغلول"، وتضيف "فهيمة" لتصف ما جرى فتقول دنوت منها فسمعت إحدى الزميلات تقول لها : ألم ترد رسالة من الزعيم؟! وكيف كانت صحة معاليه بعد مغادرته "سيشل" إلى "جبل طارق"؟! فأجابت "أم المصريين" متأثرة: نعم، قد وصلني منه خطاب يرجوني فيه أن أمضي إلى جبل طارق لأنه مريض. وفي هذا الخطاب يقول كذلك: "إذا سمحت ولم يكن السفر يتعبك فأقدمي إليّ الآن؛ لأني محتاج لعنايتك". فما أنبل شعورك يا سعد! وقد أجبت في الحال بأني قادمة في أول باخرة، وصممت على السفر ولو اشتد مرضي؛ لأن الواجب يناديني أن أكون بجانبه أتولى مواساته وأشاطره عبء النفي في سبيل الوطن، ولكنني أشعر بمسيس الحاجة إلى أن تصحبني إحدى المواطنات؛ لأني تعبة مجهدة، وأحب أن تكون معي في رحلتي مصرية مخلصة لتؤنسني وتسري

عني، ولم يسعدني الحظ حتى الآن بهذه الأمنية، مما اضطرني إلى استدعاء ممرضة أجنبية غير أبي رفضت أن تصحبني هذه الممرضة أيضًا، وكان ذلك في وقت متأخر بعد أن تمت إجراءات استخراج جوازات السفر، إذا تبين أنها تريد أن يكون معها في هذه الرحلة رجل تقول إنه خطيبها! وأنهت "صفية زغلول" حديثها بقولها: والآن تجدينني في حيرة إذ لم يبق سوى خمسة أيام تبحر بعدها الباخرة!

وتقدمت عشرات السيدات تعرض كل منهن السفر معها، لكن صفية شكرت لهن هذه العاطفة النبيلة، وقالت: أنا لا أحب أن تبتعد سيدة عن قرينها، وضميري لا يرتاح إلى ذلك!!

كانت السيدة "فهيمة ثابت" وحسب كلامها تسمع ذلك كله دون أن تبدي ما يدل على شيء، وبعد أن عادت إلى منزلها تحدثت مع أفراد أسرتها، وتبادلوا الرأي والمشورة بعد أن شرحت لهم كل ما دار بالتفصيل، ثم كان اقتراحها بأن تسافر مع أم المصريين، وأن لا تدعها تعاني ألم الغربة والوحدة، وكان جواب الأسرة بأنه "ليس لديهم ما يمنعهم من التشجيع على واجب وطني نحو أم المصريين، بل نحو مصر أم الجميع".

وعلى أثر ذلك أوفدت شقيقتي إلى بيت الأمة؛ لإبلاغ رغبتي فإن صادفت قبولًا أسرعت إلى مقابلة أم المصريين في غير خجل، وقد قالت عصمتها لشقيقتي: "كيف تتمكن من ذلك، وماذا تصنع بفراق نجليها؟ فأقنعتها بأنهما في رعاية عميهما، وخالتيهما في حياة لا ينقصها من الراحة شيء"، فتقبلت أم المصريين ذلك قبولًا حسنًا، وعندما علمت الكثيرات

من ذوي قرابتها أبدين السرور والارتياح؛ لأن أكون صاحبة الشرف في مرافقتها من مصر،كان وراء هذا القرار أخت فهيمة ثابت طالبة كلية الحقوق الفرنسية "منيرة ثابت"، التي قررت أن تقوم برعاية أولاد أختها باعتبارها خالتهم. وهي التي ذهبت لبيت الأمة وأقنعت صفية زغلول تمامًا بقبول أختها، وهددت بأنها ستسافر هي وتقطع دراستها إذا لم تذهب أختها فهيمة مع أم المصريين تحت أي ظروف، وانطلقت الباخرة في طريقها إلى جبل طارق.

وتقول "فهيمة ثابت": "أخذنا نتجاذب أطراف الحديث، وانتبهنا على قدوم سيدة تمد يدها لمصافحة "أم المصريين" على غير تعارف سابق، سوى أنها سمعت بالشيء الكثير عن مكانتها، فرحبت بها وأجلستها بجانبها وأكرمتها، ثم دعت السيدة قرينها وقدمته إلى أم المصريين، وهو وزير الأفغان المفوض بدمشق في طريقه إلى منصبه الجديد، وقالت إنه يكن لمصر أنبل العواطف، ويعلم الله نحن في بلادنا وقلوبنا معكم"، ثم أقبل أحد السوريين وأدى التحية كذلك وقال: "بلادنا تحييكم وتدعو لكم بالنصر، وترجو لكنَّ عودًا سعيدًا مع زعيم مصر"، باختصار شديد جاء العشرات يحيون ويصافحون أم المصريين، مما دعا "فهيمة ثابت" المرافقة لها إلى القول: "استبشرت خيرًا مع أني كنت ذاهبة في هذا السفر معتزمة أن أمضي بقية حياتي في المنفى، وقلت لأم المصريين: إن الله سيكرمنا وسنذهب إلى جبل طارق لنرجع بصحبة الزعيم الجليل، فقالت: إن شاء الله.. وبعد سبع ليالٍ وصلت الباخرة إلى جبل طارق.

وتكمل "فهيمة ثابت" قائلة: "قيل لنا إن الباشا ينتظرنا في حجرة

مرتفعة داخل المرفأ تشرف على البحر، ثم صعدنا فرأينا الباشا واقفًا في وسط الحجرة وهو يقول: "أهلًا أهلًا، كنت أحب مقابلتكم على الشاطئ، لولا أنهم يمنعونني بلطف، وقد أجلسوني هنا في انتظاركم حيث أراني الله وجوهكم جميعًا بخير، والحمد لله على سلامتكم". كان سعد زغلول تبدو عليه آثار التعب والمرض، وبعد الاستراحة قليلًا نهضنا ومضينا ثلاثتنا إلى المنزل في عربة الحاكم، وزعيمنا يقص علينا بعضًا من أخباره، ثم ألتفت إلى وقال: لماذا أنت صامتة يا ابنتي؟! ألا تقصين علينا شيئاً من أنباء مصر المحبوبة؟! فقلت "أي فهيمة ثابت": إنني فضلت الإصغاء إلى معاليكم، أما مصر والأمة المصرية جميعًا فهي تقدم عظيم إخلاصها، وثقتها لرئيسها وزعيمها المضحي بحريته في سبيلها!

فقال لي: أنتِ يا ابنتي تحسنين الحديث بعقل ورويّة – هل سبق أني عرفتك في مصر؟! وهل تذكرين أني أعرف أحدًا من أسرتك؟!

قلت: نعم إنك تعرف والدي، فهو صديقك "حسين ثابت" بك وكيل محكمة الزقازيق سابقًا، وربما تتذكر معاليك يوم العودة من فرنسا، حين اشتركت في تحيتكم مع وفد السيدات! فقالت أم المصريين: هي من السيدات العاملات في السياسة منذ البدء في الحركة الوطنية، ومن المؤسسات لجمعية المرأة الجديدة! وابتداءً من يوم الإثنين أول يناير سنة **١٩٢٣**، تبدأ "فهيمة ثابت" في كتابة مذكراتها يومًا بيوم وحتى أول أبريل **١٩٢٣**. اليوميات جاءت بمثابة تسجيل دقيق وأمين ومثير لحياة سعد وصفية في المنفى، ومتابعتهما لما يحدث في مصر من أحداث سياسية وتطورات هامة، لكن هناك أيضًا عشرات القصص والحكايات والمواقف الإنسانية.

في يوميات الأربعاء ٣ يناير تقول "فهيمة ثابت": ذهبنا إلى النزهة المعتادة وكنا نتمشى ثلاثتنا، سرنا في صمت قطعه علينا غناء صبي صغير، تبدو عليه المسحة الإنجليزية، وهو يردد الأغنية المصرية المعروفة "يا عزيز عيني أنا بدي أروح بلدي"، فلفت سمعنا الباشا قائلًا: انصتوا إلى هذه الأغنية. ثم مرّ الصبي بجانب الباشا، وهو يمتطي صهوة جواده ووالده بجانبه يسير مبتسمًا، أما الصغير فقد غنى المقطوعة ورددها وهو يضحك، ناظرًا للباشا ثم رفع يمينه بالسلام المصري، وكذا أومأ والده برأسه فتفاءلت أم المصريين بذلك.

وفي يوميات الخميس ٤ يناير تقول "فهيمة ثابت":ذهبنا إلى الرياضة المعتادة، وهناك تحدثنا في السياسة قليلًا، وانتقلنا إلى العلم والقرآن فقلت: لو كنت من الأغنياء لأنشأت جامعة للفتيات ومعهدًا للسيدات، أدربهن على الفروسية وحمل السلاح والألعاب الرياضية، والعلم من فقه وأدب وهندسة، فقال سعد: إن علي شعراوي بنفسه لم يتحمل ذلك من هدى زوجته دعت لإنشاء نادي خاص للنساء للرياضة والسباحة.

وتمضي باقي السطور في رواية أحاديث سياسية تتعلق بالأوضاع في مصر، وفي يوميات ٥ و٦ و٧ يناير تقول:"لم تتم رياضتنا إلى نهايتها إذا هبت الرياح فجأة وأنذرت بالعاصفة، فعدنا مسرعين وجلسنا طيلة النهار ندرس ونكتب، ولم نتكلم إلا قليلًا عند الظهيرة؛ فأنشد الرئيس بيتًا من الشعر، ثم قال: "البر شيء هين.. وجهٌ طليق وكلام لين"، وكان معاليه قد ذكرها في مناسبة حسن معاملتها للناس، وبعد الظهر مضينا إلى السوق وقد أحضرت "أم المصريين" أشغالًا يدوية لتعمل وسائد، وبعض الأشياء

الصغيرة، وفي آخر اليوم كنا متعبين فنمنا في أوائل المساء، وفي السادس من يناير وأصلنا دراستنا واسمعتني أم المصريين ماحفظت من القرآن، كما أسمعتها بعض المقطوعات الفرنسية وبعض جمل من تاريخ الأدب!

وخلال هذه الرحلة عرف سعد زغلول وحرمه كل شيء عن فهيمة ثابت وأسرتها. وما قدموه له وللحركة الوطنية، وتردد بالطبع اسم أختها "منيرة" الثائرة الهادرة، طالبة الحقوق التي تريد أن تهب نفسها لقضية بلادها كمصطفى كامل، وعرف أن والدها كان معه يتلقى العلم من الشيخ مُحَّد عبده، وكيف وقف معه موقف الرجل أثناء ثورة عرابي، حينما أُعتقل سعد زغلول، وكان حسين ثابت نائبًا عن الحكومة في المرافعة، فلم يتهمه بشيء وترافع بطريقة كانت نتيجتها في صالح سعد زغلول. وقد رأت صفية زغلول في الفتاتين"منيرة، وفهيمة" ما كانت تتمناه وتحلم به، ولم تستطيع تحقيقه. وشعرت أنهما "ابنتاها" التي تمنت أن تنجبهما، ولكن القدر لم يمنحها نعمة الأمومة!

كانت "فهيمة" نعمة الوصيفة لها ولسعد زغلول في المنفى. وكانت خطابات "منيرة لها" تثلج قلبها وهي تستهل رسائلها بعبارة: أبي سعد زغلول أمي وأم المصريين صفية هانم، وأخيرًا أختي وشقيقتي الحبيبة فهيمة. ولذا فإنه كان سهلًا ومتوقعًا بعد أن استقالت السيدة: "هدى شعراوي" من رئاسة لجنة الوفد المركزية للسيدات، التي تولت رئاستها السيدة "شريفة رياض" سكرتيرة اللجنة بعدها، ولقد اتسمت بالطابع الهادئ في العمل. بل لعلّنا نقول أن نشاطها تركز في إعلان تأييدها للوفد في مواقفه السياسية، دون أي نشاط آخر حتى في المجال الاجتماعي، ولم تلبث أن ماتت اللجنة

بموت سعد زغلول، وانضمت باقي عضواتها سواء في أثناء وجود سعد زغلول، أو بعد وفاته للعمل في الاتحاد النسائي الذي رأسته هدى شعراوي. فلقد شعر الوفد أنه في حاجة إلى شخصية نشطة لتتولى الدفاع عن مواقفه في المجال النسائي، فتم اختيار السيدة "منيرة ثابت"، لتؤلف جمعية الأمل ومجلة تحمل نفس الاسم وسارت على نهجه. وكانت مجلة الأمل إسبوعية سياسية أدبية اجتماعية من أجل الدفاع عن حقوق المرأة، واستهلت عددها الأول بأبيات من الشعر الطريف قالت فيه:

أمـل ألقيـه في الـوادي الخصـيب   وبـــذور في ثـــراه لا تخيـــب

هـــا أنا اليـــوم أنمـــي غرســـه   وليبـــارك فيـــه عـــلام الغيـــوب

وقالت منيرة: إن مبادئ الأمل مستمدة من مبادئ الوفد. ففي المجال السياسي يتم حل القضية الوطنية من خلال مفاوضات مباشرة مع الإنجليز، واتباع المنهج السلمي المشروع لتحقيق ذلك. أما في المجال النسائي فقد نادت بالسعي لترقية التعليم الابتدائي للبنات، وتوسيع نطاق تعليمهن الثانوي واشتراكهن في التعليم العالي كالبنين سواء بسواء، والسعي لتحرير المرأة المصرية من قيود جميع العادات، والتقاليد على اختلاف أنواعها، والسعي لنشر السفور المحتشم وتعضيده بشتى الوسائل، والسعي لتقرير تمتع المرأة باستقلالها الشخصي. ولقد اتسمت "منيرة ثابت" بالثورية والجرأة في مطالبها النسائية، أو السياسية حتى أن أختها "فهيمة"(٧) رغم

(٧) أصدرت فهيمة ثابت كتابًا عن رحلاتها مع الزعيم وأم المصريين بعنوان (الزعيم الخالد وأم المصريين في منفى جبل طارق)، وقد أطلعت على نسخة صادرة من مطبعة الشمس الحديثة بالقاهرة ١٩٤٨.

أن المجال كان أمامها في الوفد، فضّلت الاستمرار مع "هدى شعراوي" في جمعيتها المرأة الجديدة. بعدما نادت أختها بثورة على التقاليد أساسها تغيير قانون الميراث، بمعنى أن تتساوى المرأة والرجل في قيمة ما يحصلان عليه من الميراث، ثم طالبت بمنع تعدد الزوجات، وأن يكون ذلك في أضيق نطاق وبرضاء الزوجة الأولى.

وظهرت حنكة منيرة ثابت القانونية حينما أخرجت وزارة "زيور باشا" وتقول د. آمال السبكي في كتابها السابق الإشارة إليه: "كان باكور عمل "الأمل"، هو الانتقاد الصارخ لقانون الجمعيات السرية"، الذي أصدرته وزارة "زيور باشا" إذ لامت فيه الحكومة على إصداره، بل وشككت في صحة هذا القانون على اعتبار أنه لم يصدر من الهيئة التشريعية. ولم تتوخ فيه مبدأ الفصل بين السلطات، فلا يخول مجلس الوزراء سلطة قضائية، فالقانون ليس إذن إلا إجراء استبداديًا، أرادت الوزارة أن تتحكم به في وجود الأحزاب السياسية، – ولكن يظهر أن هذا القانون قد ألهم الأحزاب والهيئات المصرية بمجرد صدوره فكرة الإضراب السلبي عن تنفيذه، وعدم الرضوخ له كما جاء في قرار الحزب الوطني،– ولا شك أن هذا الإجماع خليق أن يشل القانون، وقد اختلفت الآراء في تقرير علاقة الإنجليز، بهذا القانون إذ أن الوزارة لا تجرؤ على إصدار قانون كهذا بغير أن نستوثق من تأييدهم. وانتهت إلى التأكيد بأن قانونًا كهذا يدفع إلى تأليف الجمعيات السرية. ولقد شككت المجلة التي ترأسها "منيرة هانم" في وطنية وزارة زيور، ورأت أنها حليفة للإنجليز وأنها أداة لها ضد مصالح الشعب، ولامتها على هذا الموقف غير الوطني. وكفى أن هذا القانون منح

مجلس الوزراء سلطة قضائية يتحكم بها في كيان خصومة السياسين.

وقد كانت "منيرة ثابت" سابقة لعصرها وعلى جانب كبير من الوعي والنضج والثقافة العالية، ولكنها لم تكن تتلقي الثقافة من ينابيعها الشرقية، واعتمدت على ما تقرأ عن فرنسا، وما أحدثته الصالونات الأرستقراطية فيها، ولذا فلم تعلن السفور الذي لا يتنافى مع الدين كهدى شعراوي، وإنما غالت ومالت إلى تقليد الغرب، فخلعت الحجاب وظهر منها شعرها وصدرها ومالت إلى الملابس الأوربية. وفتحت النيران على الحجاب بمعناه الشرعي واعتبرته عادة رزيلة. ويكشف سكرتير "سعد زغلول" عن جوانب أخرى في حكاية "منيرة ثابت" فيقول:"جاءت الأنسة منيرة ثابت إلى بيت الأمة تسبقها هاتان الثورتان: دخول السيدات زائرات إلى مجلس البرلمان، والمطالبة بالمساواة بين الجنسين، فاحتلت مكانًا مرموقًا لدى "سعد" وأم المصريين، وظلت وثيقة الصلة بهما. وأذكر أنها كانت دائبة قبل مجيئها إلى بيت الأمة على إرسال الكتب إلى الرئيس في شتى شئون المرأة، سياسية أو اجتماعية، وكنت بحكم وظيفتي أطلع على رسائلها، وأبلغها ردود الرئيس عنها ردودًا مملوءة بالعطف والتشجيع، ورحب بها "سعد" و"أم المصريين"، وعرفها أنها صاحبة الرسائل الثائرة التي كانت تمطر بها بيت الأمة من الإسكندرية حيث كانت تتعلم، أو من ريفها في إحدى قرى مديرية "محافظة" البحيرة. وقد ساهمت الأنسة "منيرة ثابت" في الخدمة العامة، وشرعت تجاهد بالدعاية للزعيم ولحركته، تكتب المقالات في الصحف، وتذيع المنشورات، وتقوم بقسط وافر من الجهود أحرى أن تقوم به لجنة كاملة. ولقد أصابني في تلك الفترة من مشاغباتها التي كانت طابعها فيما

تكتب، وابل من العتاب والحساب فكانت تلصق بي تهمة كل تصرف لا يعجبها صدوره من اللجان النسائية الوفدية، وكانت تلقى علي مسئولية الأخطاء اللغوية والأسلوبية، بل الأخطاء الموضوعية التي كانت تبدو لها في محررات تلك اللجان، لأني أقوم بتوزيع هذه المحررات على الصحف. وكنت أقبل هذا العنف منها لأني أعرف أنها ثائرة تحت كنف سعد؟

وذات يوم قرأت "صفية زغلول" في صحيفة الأهرام مقالًا ناريًا لمنيرة ثابت، وبعد فراغها من قراءته طلبت من زوجها "سعد زغلول"، أن يقرأه لأهمية ومنطق ما جاء فيه! ففي هذا المقال المنشور يوم ٣ مارس سنة ١٩٢٤، قالت منيرة ثابت تخاطب رئيس الوزراء سعد زغلول قائلة: "قرأت أن الحكومة تنوي أن تقيم حفلة شائقة لافتتاح البرلمان المصري الجديد، وقد بت أتحرق شوقًا لحضور هذه الحفلة فتساءلت مرارًا: ألا يكون للسيدات المصريات مقاعد في هذه الحفلة؟! إني لأوجه اليوم هذا السؤال علنًا إلى صاحب الدولة رئيس الوزارة السفوري الجليل، "تقصد الذي يساند سفور المرأة"، إنه حقًا لمن الغبن الفاحش أن تحرم مندوبات الجنس اللطيف من الاشتراك في الاحتفال، بافتتاح البرلمان المصري. لقد كان للمرأة المصرية نصيب في الجهاد لا يقل عن نصيب الرجل، فمن حقها أن تشترك معه في حفلة افتتاح المجلس النيابي، الذي هو ثمرة ذلك الجهاد المشترك".

وراقت الفكرة لـ سعد زغلول وقرر تنفيذها على الفور!

وتقول د.آمال السُبكي: وكان من أهم مطالب "منيرة ثابت" تخصيص

رفات للمرأة في مجلس النواب، ولقد أيّدها سعد زغلول في دعوتها، هذه وقالت عنه ذلك: "لست أذكر هنا أني كنت الصحيفة المصرية الوحيدة، التي اقتحمت شرفة الصحفيين في مجلس النواب، وإنما يسجل "الأمل" فقط أن صاحبته، هي التي أوجدت فكرة تخصيص مكان للسيدات مع الزائرين في البرلمان عندما أفتتح سنة ١٩٢٤،" وأهملت السكرتارية أمر السيدات" وأن دولة زغلول باشا ليشهد بما كان آنذاك لصاحبه الأمل من موقف؛ لأن دولته هو وحده الذي آزرها بالتشجيع، وأجاب مطالبها ونفذ فكرتها. وحسب ماتقول د.آمال كامل بيومي السُبكي. في كتابها "الحركة النسائية في مصر": "اكتسبت مجلة الأمل عداء شديدًا من مناوئي الوفد ومن مناهضي تحرير المرأة سواء بسواء. ولعل أعظم تهمة يمكن أن تتهم امرأة بها في تلك الفترة، هي تهمة الإلحاد والكفر، وذلك عندما قدم الشيخ أبو الفضل الجيزاوي أحد شيوخ الأزهر بلاغًا إلى النيابة يتهم فيه صاحبة "الأمل" بالإلحاد والكفر. والخروج على الدين بالمبادئ، التي تنادي بها منذ ظهرت في الحياة العامة.

إلا أن "منير ثابت" كانت من المهارة والوعي بحيث فضحت هذا الاتهام، وأبانت الغرض من هذا الاتهام، لا غيرة على الدين كما يبدو ظاهرًا وإنما هو بسبب ما نشرته "الأمل"، بمناسبة بحث ميزانية الدولة في بعض المخصصات، ومنها مخصصات فضيلته فهل مناقشاتنا هذه المخصصات كانت منّا إلحادًا وخروجًا على الدين.

وما أكثر المرات التي سمعت فيها "منيرة ثابت" سعد زغلول، وهو يقول: "لو كان عدد المتعلمات من نساء مصر أكثر لكان الفضل أعظم،

وكانت الفائدة أكثر، إذ أنه يستحيل على شعب أن يتقدم في هذه الحياة من غير تقدم المرأة، وتعلمها، فهي التي يقوم عليها أساس التربية الصحيحة، وغرس الملكات الفاضلة في قلوب الأطفال"، لقد شجعت مجلة "الأمل" ومنيرة ثابت تعليم المرأة للسبب السابق، ولاعتقادها أن النهضة المصرية لن تستطيع المساهمة فيها إلا المرأة المتعلمة، وكان من الطبيعي أن نقف "منيرة ثابت" بكل قوة وحزم وشراسة في وجه من يقف ضد تعليم المرأة!!

"ولم يكن غريبًا أو باعثًا على الدهشة أن تتصدى "منيرة ثابت" بكل قوة لمشروعٍ غريب، كان يتبناه رئيس الحكومة "زيور باشا" خاص بتعليم الأسر الأرستقراطية!!"، كان "زيور" باشا قد اقترح إنشاء مدرسة خصيصًا لبنات الأسر الأرستقراطية، يتعلمن فيها فنون المنزل وبعض العلوم والمعارف العامة، على أن يتكلف إنشاء هذه المدرسة حوالي إثنى عشر ألف جنيه "بأسعار ١٩٢٦"، من أجل ثلاثين فتاة يساهمن بمصروفاتهن التي لا تزيد على ستمائة جنيه، وتتكفل الحكومة بسداد باقي التكلفة!

وثارت وهاجت "منيرة ثابت" هذا المشروع، وتلقت مجلة الأمل عشرات الاحتجاجات وخاصة من المثقفات على هذه الفكرة. وبادرت "منيرة ثابت" بإرسال احتجاج شديد اللهجة إلى وزارة المعارف، تعرب فيه عن أسفها الشديد؛ لإدعاء الحكومة بعدم توفير المال اللازم للإنفاق منه على إنشاء مدارس لبنات الأسر المتوسطة والفقيرة، وهن كثيرات، في نفس الوقت الذي يتدفق فيه مال الحكومة للإنفاق على مدرسة، من أجل عدة فتيات من بنات الأسر الأرستقراطية القادرات على إنشاء ما يردن من

مدارس، أما الفقيرات فمسئولية تعليمهن تقع على كاهل الحكومة. ولم يكن سعد زغلول وحده فرحًا ومعجبًا بمنيرة ثابت، بل شاركه وقاسمه هذا الفرح والإعجاب "صفية زغلول" نفسها! واعتقد القرّاء أن منيرة ثابت هذه اسم مستعار لرجل، فغير معقول أن تكتب امرأة بهذا الأسلوب العنيف، فهي لا تلوح بأغصان الزهور وإنما تلقي على الحكومة الطوب، وتطلق على الوزراء الرصاص، وتحارب ولا تسالم، وتهاجم ولا تتوقف!!

وتضاعفت دهشتهم عندما اكتشفوا أن "منيرة ثابت" هذه امرأة حقيقية من لحم ودم، وفوق ذلك آنسة جميلة، رشيقة القد، ساحرة العينين، فاحمة الشعر خفيفة الدم، إذا جلست في مجلس سيطرت عليه بحماسها وجاذبيتها وقوة شخصيتها، وكانت مقالاتها تشبهها، أو كانت هي التي تشبه مقالاتها. وكان رؤساء التحرير في تلك الأيام– بحسب مصطفى أمين– يجدون مشقة في أن يضعوا "فرامل" لاندفاعها أو يخففوا من عنف لهجتها، أو يشطبوا العبارات التي تؤدي بهم إلى محكمة الجنايات، وكأنها تحرص في كل مقال أن ينطبق عليه قانون العقوبات! وعلى الرغم من محاولات الشطب والحذف، وسكب بعض الماء على الكلمات الملتهبة كانت تخرج مقالاتها جمرة من نار تحتاج إلى استدعاء فرقة المطافي!!

فلا يمكن أن تكون هذه الجرأة لامرأة. إنها شيطانة لقد تطرقت إلى مساوئ الزواج من الأجنبيات، "فرأت أن الأجنبية ليس لديها أية انتماءات قومية أو ثقافية لمصر. كما أن تشجيع هذا النوع من الزواج يؤدي إلى القضاء على مصير عدد من الفتيات المصريات، ولاسيما المسلمات لأن الدين يحرم على المسلمة الزواج بغير المسلم بعكس الرجل.

ثم إن فيه مساسًا بالقومية المصرية، لوجود جيل مختلط من جنسيات عديدة بعد مدة قصيرة من الزمن، كما أن الأجنبية ترى اختلافًا جوهريًا في نمط الحياة الاجتماعية في مصر عنه في الخارج يؤدي في حالات كثيرة إلى الطلاق".

وحاربت تعدد الزوجات تلك الصفة الممقوتة التي تسيئ إلى الزوجة وتخل بالاقتصاد العائلي. ثم هي فوق كل هذا تنشئ البغضاء بين أولاد الأسرة الواحدة، فتنوع الأولاد من أكثر من زوجة واحدة ينشئ الكراهية والمنافسة بين الأطفال، للفوز بقلب أبيهم. هذا وقد استمرت "الأمل" سنوات طويلة تدعوا إلى التخلص من تعدد الزوجات، خاصة وأن عددًا كبيرًا من الأسر المصرية ذات المركز المرموق، يعانون حياة مدمرة بسبب هذا المبدأ. ثم أنه من العيب أن يترك شيخ متصاب يعبث بمستقبل أبنائه مع وفرة عددهم حبًا منه في الشراهة والأنانية، وتطالب بقانون يبطل تعدد الزوجات ويحكم الاحتفاظ بواحدة دفعًا للجريمة، وما يترتب عليها من النتائج السيئة، التي تشاهد من وقت لآخر بسبب إهمال فريق والعناية بفريق دون الآخر.

كذلك دعت مجلتها "الأمل" إلى استقلال الأسرة الجديدة عن أهلها؛ إذ أن وجود أهل الزوج بمنزل الزوجية من أسباب الشقاء الأسري لكثره تدخلهم في الخلافات، التي تقع بين الزوج وزوجته مما يؤدي إلى زيادة الهاوية بين الطرفين المتنازعين، مما يدفع الزوج أحيانًا للاقتران بأخرى جديدة يكون لديها الهدوء اللازم فتتكرر مأساة التعدد.

وفي سنة ١٩٢٤ جرت أول انتخابات حرة للبرلمان، وحصل الزعيم

سعد زغلول على الأغلبية الساحقة وألف أول وزارة شعبية! وذهبت منيرة ثابت إلى رئيس الوزراء سعد زغلول تحتج عليه، لأن وزارته لا تمثل الشعب ودهش سعد زغلول وسألها: لماذا؟ إن وزارتي أول وزارة في مصر يدخلها الأفندية! قالت منيرة ثابت: لأنه ليس فيها امرأة وزيرة! قال لها سعد زغلول ضاحكًا: جميع الوزراء متزوجون وكل وزير منهم ينوب عن زوجته!

ولم تضحك منيرة ثابت من سخرية الزعيم، ومضت في حماسها مطالبة بمنح المرأة المصرية حق الانتخاب، بحجة أنها اشتركت في ثورة ١٩١٩ جنبًا إلى جنب مع الرجال، وسقطت نساء شهيدات برصاص الإنجليز.

وقال لها الزعيم سعد زغلول: أعدك عندما يخرج آخر جندي إنجليزى من مصر أن أعطي المرأة المصرية حق الانتخاب.

قالت منيرة ثابت: نريد حق الانتخاب للمرأة فورًا!

قال سعد: أخشى إذا أثرنا حكاية منح المرأة حق الانتخاب الآن أن يحدث انقسام في الأمة، فلا تزال نسبة كبيرة من السكان لا توافق على اشتراك النساء في السياسة، ولا أريد انقسامًا في الأمة أثناء المعركة مع الإنجليز، وعندما يخرج آخر جندي أجنبي من مصر، أعدك بأن أنضوي تحت زعامتك وأطالب للمرأة المصرية بحق الانتخاب!

وشاءت الأقدار أن تتحقق نبوءة سعد زغلول، فبعد ٣٢ عامًا فقط– في سنة ١٩٥٦خرج الإنجليز من مصر، ودخلت راوية عطية وأمينة شكري للبرلمان لأول مرة، بعد أن حصلت المرأة المصرية على حق الاتنتخاب. ولكن منيرة ثابت رفضت أن تنتظر خروج الإنجليز من مصر، فوجئ سعد

زغلول بعد ذلك بوفد من طالبات مدرسة الحقوق الفرنسية في القاهرة، وتقدمت منيرة إلى سعد زغلول وقالت له: إن نساء الأمة لم يقتنعن برأي زعيم الأمة بتأجيل منح المرأة حقوقها إلى أن يخرج الإنجليز.

قال سعد: أنا لم أعد حق المرأة وإنما طلبت التأجيل إلى أن يتم جلاء الإنجليز؛ لأن التقاليد لا تسمح بدخول المرأة البرلمان الآن.

وانبرت منيرة ثابت بطول لسانها تقول: التقاليد منعت الأفندية أن يصبحوا وزراء، وأنت عينت واصف أفندي غالي وزير الخارجية، ونجيب الغرابلي أفندي وزيرًا للعدل، والدكتور أحمد ماهر أفندي وزيرًا للمعارف، وعلي الشمسي أفندي وزيرًا للمالية، إنك رئيس وزارة ثورة وواجبك أن تمنح المرأة حق الانتخاب وتسمح لها بدخول البرلمان.

وفجأة حدثت مصيبة وكارثة هزت "بيت الأمة"! لم تصدق "أم المصريين" حرفًا واحدًا مما كتبته صحف الحكومة عن "منيرة ثابت"، التي كانت تعتبرها بمثابة ابنة لها، كان بطل الكارثة كاتب الوفد الأول الصحفي الكبير "عبد القادر حمزة"! لم تصدق "صفية زغلول" و"سعد زغلول" ما نشرته صحف الحكومة، ومؤداه أن "عبد القادر حمزة"، صاحب جريدة البلاغ الوفدية يعشق منيرة ثابت صاحبة مجلة الأمل!! وأن الصحفية الشابة التي تصغره بحوالي عشرين عامًا تبادله هذا الحب! واعتقد "سعد زغلول" أنه هو المسئول شخصيًا عن هذه الكارثة، التي فضحتها صحافة الحكومة لتدمير سمعته وسمعة الوفد! كان سعد زغلول هو الذي أشار بتكوين شركة مساهمة لجريدة "لسبوار" الفرنسية، يقوم بالإشراف عليها

بعض أعضاء الوفد، واختار الوفد الأستاذ "عبد القادر حمزة" صاحب جريدة البلاغ، ليكون العضو المنتدب لإدارة الجريدة في مجلس الإدارة! وهنا بالضبط، وابتداء من تلك اللحظة بدأت حكاية "عبد القادر حمزة" و"منيرة ثابت"، تفاصيل حكاية الحب الملتهب والغرام المشبوب يرويها "مصطفى أمين" فيقول: كانت منيرة تطبع مجلتها الأسبوعية وجريدتها اليومية في مطبعة "البلاغ"، وهي جريدة الوفد الأولى في تلك الأيام، وكانت "منيرة" تلتقي يوميًا في دار البلاغ "بعبد القادر حمزة باشا"، الصحفي الأول في مصر بشهادة "سعد زغلول" ولسانه الرسمي!

وأعجب "عبد القادر حمزة" بشجاعة الكاتبة الثائرة، وبحماسها وصمودها، وتطور الإعجاب إلى حب!

ووجدت منيرة في "عبد القادر حمزة باشا فتى أحلامها"!

آنسة جميلة، رشيقة القد، ساحرة العينين، فاحمة الشعر، خفيفة الدم، إذا جلست سيطرة على الجلسة بحماسها وقوة شخصيتها، كيف تتلاقى مع عجوز متزوج له كرش صغير، يلبس نظارات طبية سميكة أبيض الشعر جليل لا يبتسم، لا يحب الاجتماعات ويقابل الصحفيين واحدًا واحداً على انفراد. قوي الشخصية نعم ولكن شخصيته ليست طاغية، كيف يلتقي الربيع بالخريف– الثورة بالسكون. كان كل منهما يكتب مقالات تشبهه هي تنهي مقالاتها ولا تعيد الإطلاع عليها، تنقلها من فورة قلمها إلى نار المطبعة. وهو يتأنى في اختيار اللفظ والمراجعة والشطب ويرسلها لمصحح اللغة العربية، ويظل مترددًا حتى اللحظة الأخيرة للمطبعة، ولكنه

الحب وأحوال كيوبيد الغريبة.

وقرأ الزعيم سعد زغلول محاولة تلويث الأقلام، التي تحارب معه فاستدعى عبد القادر حمزة وسأله: هل صحيح أنك تحب الآنسة منيرة ثابت؟ واعترف عبد القادر بهذا الغرام الجارف. وقال سعد: إما أن تتزوجها.. وإما أن تتركها! أنا لا أتدخل في حياة أنصاري الشخصية، ولكنك أنت ابني ومنيرة ابنتي، ولا أريد أن يستمر هذا الوضع يومًا واحدًا، ورضخ عبد القادر حمزة لرغبة الزعيم وتزوج منيرة ثابت.

ولكن منيرة طلبت من زوجها أن يطلق زوجته الأولى، لأنها بحكم مبادئها ضد تعدد الزوجات، فكيف تقبل هي "ضرة"، وهي زعيمة المطالبات بمنع تعدد الزوجات! ورفض عبد القادر حمزة أن يطلق زوجته الأولى، التي شاركته كفاحه وأم أولاده وبناته. وبدأ النزاع من اليوم الأول، واحتكما إلى سعد زغلول، فحكم بأن يحتفظ عبد القادر حمزة بأم أولاده. وخضعت منيرة ثابت لأمر الزعيم، وتنازلت عن مبدئها بعدم تعدد الزوجات!

قال لها سعد زغلول: إذا لم يعجبك أن تكوني الثانية، فأتركيه للأولى

هي أسبق وأكثر حاجة له.

قالت له: ولكن يا سعد باشا أن معه بحس بالتمام، وهو بغيري يحس بالنقص.

قال سعد: معك يكتمل اكتماله؟ وماذا عن أسرته وأولاده أهم صفر على الشمال؟!

قالت: لكني لا أطيق ذلك.

قال سعد: أنت تحتاجين لإعادة النظر في قضية "تعدد الزوجات".

العبرة يا ابنتي في التطبيق.

قالت منيرة: ولكنك لم تتزوج رغم حاجتك للذرية والأولاد؟!

قال سعد: أهذا مبرر ليترك عبد القادر زريته وأولاده؟!

قالت منيرة: أخاف إذا رضيت أن يتكرر الأمر!!

وقال سعد: أنتِ التي بدأتي العد، وعليك النتائج!!

ثم حسم عبد القادر حمزة الحوار: أنا لم أخدعك ومستعد للزواج فورًا، وكنت تعلمين بأني زوج ولي أولاد، ثم أنني لم أخرج عن الشرع ؟

وعاد عبد القادر حمزة باشا يشترط على زوجته الكاتبة الثائرة، أن تطلق الصحافة، وتغلق مجلة الأمل الأسبوعية، وتوقف جريدة لاسبوار اليومية وتعيش زوجة في البيت. زوجة فقط لا تزور ولا تزار، ولا تكتب مقالات ولا تشترك في أي عمل سياسى، وثارت الكاتبة الثائرة، ثم أخضعها الحب، واستسلمت بلا قيد ولا شرط وأغلق الحب مجلة الأمل وجريدة "لسبوار"، وأطفأ ثورتها العارمة وأصبحت "ست بيت"! وبعد سنوات قليلة أنطفأ الحب الكبير، كان جمال منيرة ثابت في نظر عبد القادر حمزة هو الهالة التي كانت تحيط بها، الكاتبة الثائرة، الزعية الجريئة، الصحفية الشجاعة صاحبة الجرائد الواسعة انتشار، فلما جردها من هذه الأضواء الساطعة أصبحت منيرة زوجة عادية، هنا انطفأ بريقها، وهدأت

ضوضاؤها، واختفى سحرها وقد كانت كل هذه الصفات تصنع صورة الأسطورة، فلما تخلت عنها أصبحت الزوجة الثانية- بل والضرة بكل المساوئ التي سبق، وأن عددتها في جريدة "الأمل"! وهاجمت جمعية أمهات المستقبل "الشابات المصريات" المعادية للوفد، والتي أيدت صدقي باشا وقالت "تفيدة علام" في مجلة الجمعية، والتي اسمها "أمهات المستقبل": إن هدى شعراوي ومنيرة ثابت يبحثا عن الشهرة في كافة أنشطتهما. واعتبرت إنشغالهما بالسياسة عبثًا لا داعي منه. وقالت جمعية أمهات المستقبل "الشابات المصريات": الثائرة الصغيرة منيرة ثابت فعلت كل هذا من أجل الحصول على رجل؟! لقد عبثت في العقول بدعوى التقدم وسقطتي لأقصى درجة!!

وأحست منيرة ثابت أنها فقدت بريقها عند زوجها وعند الناس، بدأت تشعر مع زوجها بفارق السن، وبدأ الشقاق بين الكاتب المتأني والكاتبة الندفعة، ويكمل الأستاذ مصطفى أمين قصتها في كتابه "أحوال شخصية"، ومقالاته "أشخاص لا تنسى" فيقول: وأذكر أنها أرسلت لي في ١٤ أبريل سنة ١٩٤٩ خطابًا تقول فيه: "كان يبدو لي في الماضي- وكم كان هذا يؤلمني- أنكم تحاربون قضيتي الكبرى المقدسة، التي حملت أعبائها وحدي- ودون كلل خلال خمس قرن، كما لو كنت جئت إلى هذه الحياة وعشت من أجلها، وهي كما تعلمون قضية حقوق المرأة السياسية والاجتماعية، فكم يسرني اليوم أن أراكم تخصون قضيتي هذه بعنايتكم، وتخرجون بها من النطاق الصحفي إلى الميدان الرسمي- البرلمان- والمحدد طبعًا بسؤال واستجواب ثم انتقال إلى جدول الأعمال، فتسألون الحكومة في البرلمان

عن هذه الحقوق المسلوبة، حقوقنا في الحياة نحن النساء!" أجل، إنكم اليوم تسألون الوزارة أن توضح موقفها من ذلك الكتاب، الذي صفعتنا به هيئة الأمم المتحدة، إذ تطالب حكومتنا وهي تعرك أذنها! بضرورة تحقيق المساواة السياسية والاجتماعية في مصر بين الرجل والمرأة. فكم أنا سعيدة بهذا الإجراء الجديد من نوعه، الذي تتخذونه الآن في البرلمان دفاعًا عن قضيتي المزمنة. إنكم في غير حاجة لأن تتلقوا شكري واعترافي بالجميل، إنكم تدركون أن من واجب شباب رجالنا النابه المثقف، الذي أودعت فيه مصر كل رجاء وأمل، أن يبادر بمعونتنا نحن النساء في الدفاع عن قضيتنا، وختمت منيرة خطابها بأنها سوف تنتظر حتى شهر ديسمبر فإذا لم يوافق البرلمان على سؤالي، فإنها سترفع قضية على مجلس الوزراء تتهمه بمخالفة ميثاق الأمم المتحدة!

ولكن البرلمان لم يوافق على المساواة بين الرجال والنساء، والقضاء رفض قضية منيرة ضد مجلس الوزراء، ولم تيأس منيرة وقامت ثورة ٢٣ يوليو، وانتهزت فرصة قيام الثورة وذهبت إلى اللواء مُحَمَّد نجيب قائد الثورة في تلك الأيام، لتقنعه بمنح المرأة حق الانتخاب، ولكن قائد الثورة قال لها إن الوقت غير مناسب. وعادت تكافح من جديد إلى أن منح الرئيس جمال عبد الناصر المرأة المصرية حق الانتخاب، وحق الترشيح لعضوية مجلس الأمة، وتقدمت منيرة ورشحت نفسها في دائرة الزيتون في شهر مايو سنة١٩٥٧، وتصورت منيرة أن الشعب سيقبل انتخابها وسيذكر جهادها، وسوف يستعيد أمجادها، يوم كانت نجمة في سماء السياسة المصرية، الأصابع تشير إليها، الفتيات يهتفن بحياتها، الشبان يحاولون أن يحملوها

على الأعناق! ومرت منيرة في دائرتها الانتخابية، لم يعرفها أحد، المعجبون انتقلوا إلى رحمه الله، الفتيات الثائرات كبرن وأصبحن أمهات مشغولات بمتاعب الزواج وتربية الأطفال، الدنيا تغيرت لا أحد يتذكر معاركها الضارية ضد الرجال، فنحن في بلد كل شيء ينسى فيه بعد حين! وسقطت الزعيمة في الانتخابات ولم تحصل في دائرتها الانتخابية إلا على بضعة أصوات!

وفي ١٩٦١ يصل مصطفى أمين خطاب آخر منها: تقول "إنني أبحث عن عمل بأجر لإنقاذي، إنني مريضة بمرضين خطيرين اثبتهما الفحص في أحد المستشفيات، تم الفحص بمعرفة القومسيون الطبي العام، أحد هذين المرضين مركز في عيني، ويهددني بضياع البصر، وهناك علاج حديث الضباب الذي يزحف على عدسة العين، أنا لم أعد أملك غير منقولات "عفش" شقتي، وهذا العفش محجوز لحساب مؤسسة ضاحية مصر الجديدة مالكة العمارة، وهذا خلاف دين مطبعة مصر أجر طبع مجلتي، إنني أريد أن أعمل بكرامة، أريد أن أكسب أجر بعرق جبيني لأستطيع به أن أعالج بصري، وساقي وأسدد ديوني، لقد وقفت مجلتي عن الصدور، بعد أن خلفت دينًا ثقيلًا ما يزال يطحنني، ولكن ليس يفزعنب أن يشردني الدائنون على قارعة الطريق، وأن أموت جوعًا، إن الموت رحمة، إنما يفزعني أن أعيش عمياء. لقد عملت طوال حياتى بلا أجر ولا مرتب، واليوم أود أن أعمل بأجر، إنني أعيش في ظلام! حتى الآن استطيع أن أكتب، ولكني اقرأ بصعوبة، إن حالتي النفسية سيئة، قد تتحسن إذا وجدت الرعاية.

ويقول مصطفى أمين: وارتعشت يداي وأنا أقرأ الخطاب، إنها نهاية مروعة لبطلة! وكتبت في مجلة المصور، التي كنت أرأس تحريرها يومئذٍ وقلت: "إننا نرفض أن تعمل منيرة ثابت في حالتها الصحية المؤلمة، إن من حقها أن تعالج وأن تستريح وأن تعيش، إن لها حقًا على كل امرأة في بلادنا، تعمل أو تزاول حقها النيابي، أو تجلس تحت قبة مجلس الأمة، إنها هي التي أضاءت الطريق أمام ملايين نساء العرب اللاتي رفعن الحجاب، وأصبحن يعملن جنبًا لجنب بجوار الرجال، وإننا على ثقة أن الدولة، لن تترك منيرة ثابت تعيش عمياء، وهي التي جعلت الملايين يبصرون! فلتضئ كل امرأة عاملة شمعة لهذه السيدة العظيمة التي يهددها الظلام".

وبعد ساعات من صدور مجلة "المصور"، قرر الرئيس جمال عبد الناصر سفرها إلى أسبانيا للعلاج على نفقة الدولة، واتصل بحسين الشافعي وزير الشئون الاجتماعية ونائب رئيس الجمهورية، لسداد كافة ديونها قبل سفرها إلى الخارج، وسافرت منيرة إلى برشلونة، وطلب منها الدكتور باروكير استعمال أنواع معينة من الأدوية لمدة ٦ شهور كاملة، ثم تعرض نفسها عليه بعد هذه المدة، وقطعت منيرة رحلتها بعد ١٢ يومًا فقط وعادت إلى القاهرة تشكو من المعاملة السيئة، التي لاقتها من القنصلية المصرية بأسبانيا، فقد قرر لها الدكتور باروكير عمل ٣ نظارات طبية كعلاج مؤقت لحين عودتها، ولكن القنصل المصري رفض دفع ثمنها بحجة أن المبلغ المحول لها مقرر لعلاج عينيها فقط، وأنه ليس مسئول عن ثمن النظارات، حتى ولو كانت طبية! ولم يكن معها من النقود سوى المال المحول لها للعلاج، وإزاء هذا الأمر اضطر القنصل إلى أن يسلمها نظارتين

اثنتين، بعد أن حصل على شهادة من الدكتور باروكير، بأن هذه النظارات امتداد للعلاج الذي حضرت من أجله.

وفي الموعد الذي حدده الدكتور باروكير لعودتها إلى أسبانيا مرة ثانية، حوّلتها وزارة الصحة إلى القومسيون الطبي ليوافق على سفرها. وكانت المفاجأة أن القومسيون الطبي رد بأن حالة عيني المريضة لا تحتاج إلى علاج طبي أو تدخل جراحي!

وفي ١٧ سبتمبر سنة ١٩٦٣ استيقظت منيرة ثابت من النوم فوجدت الدنيا ظلامًا، أضاءت النور الكهربائي الذي بجوارها، ولكنها لم ترَ شيئًا، وأيقنت أن الكارثة حلت بها وأنها لن تستطيع الإبصار. وكانت منيرة ثابت في شبابها أجمل صاحبة عينين في الوسط الصحفي، ومن سحرية القدر أن اسمها كان "منيرة"، وأمضت بقية حياتها في ظلام!

يا بلح زغلول.. يا حليوه يا بلح

١٨٩٠-١٩٦٥

في أثناء ثورة ١٩١٩ أصدر القائد العام البريطانى أمرًا عسكريًا، بسجن كل من يذكر اسم زعيم الثورة سعد زغلول، ستة أشهر مع الشغل وجلده عشرين جلدة. وهنا غنت منيرة المهدية أغنيتها المشهورة "يا بلح زغلول يا حليوه يا بح، عليك بنادي في كل نادي، يا بلح يا حليوه يا بلح". وانتشرت الأغنية، وأصبحت على لسان النساء والرجال والباشوات والفلاحين، حتى تحولت إلى ما يشبه النشيد الوطني، تحديًا لأمر قائد جيوش الاحتلال! والمعنى أن المهم الرمز، وزغلول موجود..سعد موجود. وكتب مستر ريجنالد ديليني مراسل رويتر: "إن الذي يمشي في شوارع مدن مصر وقرها، يخيل إليه أن جميع أهلها من رجال ونساء وأطفال، تحولوا إلى باعة متجولين، يبيعون بلحًا اسمه بلح زغلول"!

ثم إن منيرة المهدية لها أغانٍ مشهورة "أسمر ملك روحي" و"عصفوري يامه عصفوري"، وهي قادرة على أغاني صعبة لسيد درويش وداود حسني، وهي أول من صرف على المسرح، وألفت فرقة مسرحية مثلت على المسرح روايات: "كلها يومين" لحنها سيد درويش و"كليوباترا" ولحنها سيد درويش، وأكملها مُحَمَّد عبد الوهاب!! وكان أول ظهورها مع "شفيقة

القبطية"، ثم أصبحت المطربة الأولى في مصر بلا منازع.

وكان "سعد زغلول" من حين لآخر يختلس الوقت ليروح عن نفسه وعقله، وكان يميل إلى سماع الأغاني من عبده الحامولي ومُحَمَّد عثمان وسلامة حجازي، كما كان يقرأ الشعر ويحفظه خاصة : المتنبي والمعري، وذات يوم قرر "سعد زغلول" أن يذهب إلى المسرح لمشاهدة مسرحية، تقوم ببطولتها الفنانة المطربة الكبيرة منيرة المهدية، وحرص على كتابة ماشاهده في مذكراته بتاريخ ٢٤ نوفمبر ١٩١٧، وهكذا عرف طريق منيرة المهدية فيقول: "دعاني أمس إسماعيل صدقي إلى تياترو "برانتانيا"، لحضور تمثيل رواية كارمن، بواسطة جوقة منيرة المهدية، ودعا معي عدلي باشا وثروت باشا، وقد كان التياترو على سعته، غاصًا بالمتفرجين، والألواج مملوءة جدًا ولكن أغلبهم كانوا من الطبقة الوسطى والدنيا، ومنيرة المهدية فنانة في الثلاثين من عمرها، خمرية اللون رشيقة القد مليحة الوجه، خفيفة الروح، رخيمة الصوت وطويلة النفس، وتمثيلها لا بأس به كما لا بأس ببعض أفراد الممثلين معها. وقد رأيت التمثيل تقدم عن ذي قبل كثيرًا، ولكن الشعب لم يتهذب بعد، ولم يترب فيه ذوق هذه المشاهد، فهو يصفق لما يجب السكوت عنده، ويسكت لما يجب له التصفيق، ويضحك عندما يلزم البكاء، ويسكت بعضه بعضًا فيكون لا إسكات أدعى للجلبة من التشويش. وقد لبثت إلى ما قبل الفصل الأخير وانصرفت مع عدلي "يكن"، وبقى صدقي وثروت بحجة أنهما يريدان السير على الأقدام، ولكن يظهر من حالتهما أنهما كانا يريدان أمرًا آخر.

ولقد تحدث الناس بوليمة صنعها زوج "منيرة" المذكورة لثروت باشا،

وبعض القضاة والمحامين، وانتقدوا الوزير انتقادًا مرًا. ولقد قيل إلى ثروت: إن سري باشا يقول أن منيرة هذه ليست حميدة السيرة، فاكفهر وجهه واحتقن وعلاه الكدر، وقال: على ذلك سيرفض الإذن في التمثيل في الأوبرا السلطانية.

ويحكى أنه عندما كانت "صفية زغلول" تستقبل في بيتها صديقاتها والمقربات منها، لم يكن سعد زغلول يخرج لملاقاتهن، ولاحظت إحدى صديقات صفية هذا الأمر، وتذكرت الشائعة التي انتشرت لفترة أن "سعد زغلول" تزوج من أخرى، فسألت هذه السيدة صفية بفضول شديد: هل صحيح أن لزوجك سعد باشا بيت آخر، وقرينة أخرى كما يقال؟!

وبكل جدية ترد صفية زغلول: نعم له زوجة أخرى، ولكنها في هذا البيت! انظرن سأريكن إيّاها، وأسمعكن أسرار "سعد" معها في هذه اللحظة!! وتزداد دهشة السيدة، ويتملكها حب الفضول والاستطلاع من جواب "صفية"، وتنهض الصديقات لرؤية "ضرة" صفية، وتكون المفاجأت في جلوس "سعد" منكبًا على مكتبه بين أوراقه وكتبه، يقرأ بصوت جهير على عادة الأزهريين، وإلى جانبه سرير أعد للنوم، إذا تأخر به الدرس إلى هزيع الليل الأخير.

وتسأل "صفية" صديقاتها:

- أسمعتن؟!

- نعم، ولكن أين الزوجة؟!

وترد "صفية": الزوجة هي هذه الأوراق، وهي الضرة التي سمعتن بها؟!

وفجأ وقبل انصرافهن يسمعن صوت جرمافون يصدر منه صوت يغني "أسمر ملك روحي يا حبيبي..تعالى..بالعجل"، ويضحك النساء، ويلعب الفأر في عب صفية زغلول، وبعد أن تنتهي الزيارة تذهب لزوجها بكوب حلبة باللبن. وتسأله من هذه المطربة، ويجيب سعد زغلول: منيرة المهدية "سلطانة الطرب"، وكانت هذه شهرتها. وتسأله صفية بتعجب وقد حدث لها تداعي من أقوال صديقاتها: لكنك لا تسمع إلا الشيخ رفعت أو عبده الحامولي أو سلامة حجازي.

ويجيب سعد: إن سلامة حجازي قد أعطى جوقته لمنيرة المهدية.

وفجأة فجرت صفية قنبلة: طلقني يا سعد، أو طلق السهر والقمار، فأنت وعدتني أكثر من مرة بأنك لن تبقى خارج المنزل بعد الساعة الثامنة، ولكنك لا تحضر قبل الساعة الثانية عشر.

وانفجر سعد زغلول: ما علاقة القمار بمنيرة المهدية بالسهر.

وقالت صفية: كلها سكة واحدة منفده على بعض!!

ولم يكن سعد زغلول يعلم حتى هذه اللحظة أن زوج "منيرة المهدية"، له بارتيته قمار خاصة يلعب معها! وأن لمنيرة المهدية عوامة، تغني فيها ويلعب فيها زوجها القمار.

ويبدو أن سعد زغلول بالفعل حنث في يمينه مع زوجته، ففي مذكراته بتاريخ ٥ يناير ١٩١٧يقول "سعد زغلول": قمت أمس باكرًا، وأصبحت

اليوم نشاطًا منتعشًا، ولقد تعهدت تعهدًا وثيقًا بأن لا أبقى خارج المنزل إلا إلى الساعة ٨، وإني أخذ نفسي بهذا التعهد، وملزمها الوفاء به لأن فيه راحتي، وراحة زوجتى التي تتألم كثيرًا من سهري!! وتكاد تموت إذا غبت عن العشاء، ولذلك حرم عليّ أن أعمل على إذاها، وأن أتلذذ بعذابها، على أنه لا لذة في البقاء زمنًا طويلًا خارج البيت، خصوصًا لمن كان في سني وصحتي. فاللهم أعني على العمل بما يضمن راحتي وأهلي، إنك سميع الدعاء.

وقبل حوالي أسبوع بالضبط من تسجيل هذه الخواطر، كان "سعد زغلول" قد عاد من مسجد، وصيف عند الفجر فيقول: "ورأيت حرمي بعد عودتي في الساعة ٢ تنتظرني، فقالت: خضيتني وغضبت، وغضبت ثم اصطلح الحال".

لقد كان حب "صفية زغلول" لزوجها سعد حبًا لا حدود له، ولم تتزعزع مكانة هذا الحب أبدًا، وعاشت "صفية" تتمنى من كل قلبها أن يكف "سعد" عن لعب القمار!

ومن أطرف ما جرى في أواخر يوليو ١٩١٨، عندما نشرت جريدة المقطم خبرًا، يقول إن حكمدار بوليس القاهرة، أرسل منشورًا لرؤساء جميع النوادي، يحرم عليها لعب الورق بجميع أنواعه، كان هذا القرار مصدر فرح وسعادة لصفية زغلول، كما كان مصدر حزن وغضب لسعد زغلول، وحرص "سعد" على تسجيل ذلك في مذكراته "٢٩ يوليو"، فيقول: "ارتاحت حرمي لهذا المنع غاية الارتياح، ولكني قرأت اليوم أن هذا المنع

خاص بالنوادي، التي تأسست على اللعب وللعب، لا التي تأسست لأغراض أخرى، فارتحت ولكن لم يسر ذلك حرمي". وهكذا لم تدم فرحة صفية زغلول!

وفي أواخر ١٩١٨ أقلع سعد زغلول تمامًا عن القمار، وقرر أن يعيد ترتيب مكتبته، واهتم بالجغرافيا واللغات والتاريخ القديم، وأعطى أسطوانة "منيرة المهدية" لأخيه "سعيد زغلول"، الذي كان يعتبر ابنه بالتبني وكتب في مذكراته يقول: أرى "حرمي" مسرورة من حالي، وقد زادت ساعات المؤانسة والمجالسة فيما بيننا. لأنها إن كانت وحدها كانت مؤانستها ضرورية، لازمة لإزالة الوحشة من نفسها، وإن كان معها غيرها كان ذلك على الأقل دفاعًا، لما يتوهمه الأجنبي من وجود شيء من الجفاء بيننا. إذا كنت أظلم نفسي باللعب، وأظلم من يحبني بالإعراض عنه، فمن لا أظلم؟ ومن أخدم؟! اتقِ الله في نفسك وأهلك، وقسم وقتك بين الأنس والعمل.

وفي مذكرات ثروت باشا بضع سطور عنها: كانت منيرة المهدية صوتًا يطرب. لم تكن شخصيتها على مستوى صوتها، فهي مسيطرة، لحوحة في طلباتها، لا تترك فرصة إلا وعاجلتها بالاقتناص. وفي كل مرة أروح فيها بسماعها، كانت تتحايل لألتقاط الصور معها لي ولمن معي. وكان زوجها مثلها إلا أنه أكثر ألحاحًا وفظاظةً، ويفجر مفاجأة حين يذكر:

"توفي سيد درويش قبل عودة الزعيم سعد زغلول بخمسة عشر يومًا من منفاه، وذهبت على رأس وفد من حزب الوفد للعزاء. بعدما علمنا من أنه يعد احتفالًا قضى فيه وقتًا طويلًا لهذا اليوم. وبالفعل وجدت هناك

بالإسكندرية المنشدين والعزفين، وقد استعدوا لحفل استقبال الزعيم، واقترح الشيخ ماضي الفقي أن يتحول المنشدين والجقه لأداء جماعي، وغير في بعض كلام النشيد فحوّل "كلنا جميعًا للوطن ضحية" إلى "كلنا في حب الوطن ضحية"، وحاولت أن أعارضه في ذلك لاختلاف المعنى، ولكنه أوضح صعوبة ذلك في الأداء الجماعي، وإذا بي أجد زوج "منيرة المهدية" الفظ اللحوح، يخبرني أنه ومنيرة قد حضرا لواجب العزاء، وأن منيرة المهدية تريد أن تحل محل سيد درويش في استقبال الزعيم. ووجدت أن ذلك يجعل المنشدين والعازفين يعودون للسياق، الذي وضعه سيد درويش، فوافقت مبدئيًا، إلا أن "عبد الرحمن فهمي" حضر للإسكندرية قبل موعد الزعيم بأسبوع. ولما علم الخبر ثار ثورة عارمة، ورفض رفضًا باتًا. وقال في ثورته: ما تجيبوا عوالم ورقصين! ورفعت يدي عن الأمر، ووصل الأمر لحد رفض الاحتفال كله".

ولكن الإسكندرية خرجت كلها في يوم ٢٣ سبتمبر ١٩٢٣ عند عودة سعد، وقد حفظ الناس لحن سيد درويش واستقبلوه به. واختلط المنشدين بالبشر والعازفين، والغريبة أنهم جميعًا أدوا اللحن صحيحًا، وكما وضعه الشيخ سيد درويش!

مصـــرنا وطنـــا ســـعدنا أملنـــا	كلنـــا جميعًـــا للـــوطن ضـــحية
أجمعــت قلوبنـــا هلالنـــا وصـــليبنا	أن تعـــيش مصـــر عيشـــة هنيـــة
عـــزك حياتنـــا. ذلـــك مماتنـــا	يا مصـــر بعـــدك مالنـــاش ســـعادة

أما الكاتب الصحفي حنفي المحلاوي، فيذكر بديعة مصابني في كتابه

"من قتل سيد درويش"، فيقرر أنه كان في حياة سيد درويش نساء كثيرات، وليست فقط "جليلة"، فهناك فتاة من طنطا اسمها "فردوس" قال فيها:

يا ناس أنا مـــــت في حـــــبي وجـــــم ملايكـــــة يحاســـــبوني

قـــالوالى روح جنـــة رضـــوان اخـــترت أنا جنـــة فـــردوس

وأحب الفنانة حياة صبري، ومن ضمن من أحب سيد درويش وعمل معها منيرة المهدية! ويذكر أن أوراق التحقيقات في مقتل سيد درويش، ورد فيها اسم "منيرة المهدية"، قال عن ذلك الشيخ خاطر أقواله عن وفاة، أو مقتل صديقه سيد درويش؟! قال الشاهد المهم في هذه الأقوال المسجلة: "كان الشيخ سيد درويش قد وضع لحنًا جديدًا في القاهرة لمنيرة المهدية، وفي خلال البروفات أختلف معها "عواد الفرقة"، الذي سافر إلى الإسكندرية، وأعطى لحن الشيخ سيد درويش لمطربة اسمها "وداد"، وعندما رجع الشيخ سيد إلى مدينة الإسكندرية في آخر رحلاته لها، سمع المطربة "وداد" تتغنى باللحن، وبطريقة خاطئة شوهت من اللحن، فثار عليها وصعد إلى التخت، وهجم على "العواد"، ثم خطف منه العود وحطمه فوق رأسه، كما شتم المطربة وكاد بلطجية المسرح أن يفتكوا بسيد درويش، لولا أنقذته شلة من الأصدقاء كانوا معه. ولكن المطربة تظاهرت بعد ذلك بأيام بالتودد من جديد للشيخ سيد، وطلبت منه أن يعلمها أصول الغناء، ولذلك دعته إلى منزلها ليقوم بتدريبها وبتحفيظها لحنًا جديدًا له. وكانت قد عرفت أنه أكول جدًا، ولا يستغنى عن الكوكايين، فأعدت له كميات ضخمة منه؟! وسهر الشيخ سيد بالفعل عند "وداد" حتى مطلع

الفجر، ثم عاد إلى منزله في بيت شقيقته "فريدة" بمحرم بك، وكان متعبًا وفي حالة إعياء شديد، لدرجة أن شقيقته استدعتني من منزلى بكوم الدكة، لأجلس إلى جواره، ولأعرف ماذا أصابه؟!

وفي الصباح كان الشيخ سيد درويش جثة هامدة. وعند عرضه على طبيب صحة محرم بك الدكتور مُحَمَّد حسن.. قال: إنه يشتبه فعلًا في أن يكون الشيخ قد مات مسمومًا! ووضعنا جميعًا أمام هذا السؤال: هل تريدون أن أحيل الموضوع إلى النيابة؟

وتسمرنا جميعًا، وأطبق علينا الصمت، لقد كنا نعرف أن معنى هذا البلاغ تشريح جثة سيد درويش؟!

أما أوراق الفنانة "حياة صبري" فغريبة، ترد فيها أنها كانت تعمل في فرقة "منيرة المهدية"كمغنية، ورأها الشيخ سيد درويش؛ فأعجب بها، وزادت العلاقة بينهما ارتباطًا جينما علم أنها من الإسكندرية، ومن عائلة "عبد العال" من محرم بك، وأن اسمها الحقيقي "عائشة مُحَمَّد إبراهيم عبد العال"، وأنها هربت إلى القاهرة لتعمل كمطربة. ولاحظت "منيرة المهدية" العلاقة بينهما، وأنه يقدمها في الجوقة ويعطيها بعض الدخلات في مسرحياتها فطردتها. فقد كانت منيرة المهدية تغير عليه، ولكنه لم يكن يبادلها ذلك إلا في أوقات البروفات، فإذا انتهت المسرحية فض يده عنها!! وعندما طردتها الست منيرة. ماذا فعل معها الشيخ سيد درويش؟! إنها تقول على لسانها: فأغرقني في الرفاهية، واستأجر لي شقة مفروشة لنقيم بها، وكان يتردد على في هذه الشقة مع بعض الأصدقاء، حيث كان

يشعر بأنني مهبط الوحي الفني.

وتتوالى الحكايات عن منيرة المهدية، المرأة التي اختصها سعد زغلول ببضع سطور ضمن مذكراته، التي لم يكتب فيها إلا عن سبعة نساء: أمه، وزوجته صفية، وابنته بالتبني "رتيبة" أم علي ومصطفى أمين، وحماته، ومنيرة ثابت، الملكة نازلي، وسابعهم "منيرة المهدية"!

مثلًا يكتب: " إنها رفضت بيع عوامتها الخاصة للملكة نازلي، رغم أن الملكة زارتها بنفسها فيها، وحينما قالت لها نازلي: يظهر أنك ناسية أني ملكة مصر. ردت عليها منيرة: إنتِ اللي ناسية يا مولاتي أني سلطانة الطرب؟! ".

ومثل آخر ما سجله وراءه علامات تعجب، واستفهام سعد زغلول في مذكراته فبراير ١٩١٤ " من أن حسين رشدي باشا عقد جلسة مجلس الوزراء في عوامة منيرة المهدية، وعلل ذلك بأنه وجد كل الوزراء هناك في ندوتها التي تضم كبار رجالات البلد!".

ولكنها باعت عوامتها واحتجبت عام ١٩٤٢، ولمدة عشرة سنوات عادت بعدها للطرب في أكبر سقطة لها، حيث لم يتحملها الجمهور ونادوا عليها:

شدوا الستارة منيرة دي ولا غارة!!

و.. والعوا النور منيرة بلعت وابور؟!

وقد انضمت "منيرة المهدية" لزميلتها في الكار "فاطمة سري"، في

قضيتها مع "مُحَمَّد شعراوي وهدى شعراوي"، وأرسلت فكري أباظة المحامي ليقف معها في قضيتها، فقد كانت لمنيرة قضية مشابهة، فقد غرر بها ابن أحد البشوات، وحملت منه، وخطف أهله بنتها التي أنجبتها منه، فهربت من أهلها، وبدأت حياتها كمطربة – متخفية في ملابس الرجال حتى لا يعرف مكانها أهلها – ثم تزوجت من بطل المصارعة "حسن كمال"، ليحميها وبدأت في الظهور بجنسها الحقيقي!! ولذا شعرت أن قضية فاطمة سري قضيتها، قضية الفن ضد البشوات. إلا أن أغرب حكايات "منيرة المهدية" كانت مع أم كلثوم، حينما شعرت أن هذه الفتاة الصغيرة تهدد عرش سلطنته "سلطنة الطرب"، وقد فعلت العجائب من أجل الحفاظ على اللقب للأبد، ولكن كما يقولون "لو دامت لغيرك ما وصلت لك"! لقد شعرت بأهمية سلاح "الصحافة" في قضية "فاطمة سري"، فأرادت أن تستعمله ضد أم كلثوم! لم يسعفها سلاحها المعروف البشوات وغنوتها المشهورة، "ما تخفش عليّ أنا واحدة سجوريا.. في العشق يا أنتا واخدة البكلوريا"، وأشار عليها البعض إلى اثنين: فكري أباظة وعبد المجيد حلمي، وسألت من أكثرهم استقامة وقلة خبرة وقلة شهرة، وحاجة وتعجب الجميع، ولكنهم قالوا لها: عبد المجيد حلمي رئيس تحرير مجلة "المسرح"، وقلمه عنيف وهو صعيدي، وشاب لم يسبق له نزوات، ولم يعرف عنه مغامرات في عالم العشق والهوى. وقررت منيرة المهدية أن تقع في غرام الصحفي الشاب، ودعته إلى الغذاء في عوامتها وبعد ساعة واحدة، كان يجلس تحت قدميها يبادلها عبارات الشوق، وهي تلقي البترول على قلبه المشتعل، فتندلع النيران! وخرج عبد المجيد الطيب من عند منيرة، وهو

مقتنع بأنه حبها الأول والأخير، وأصبحت مجلة المسرح هي مجلة منيرة المهدية، سلطانة الطرب في مصر والشرق! وبدأت مجلة المسرح تهاجم أم كلثوم، وقالت في ١٧ يناير سنة ١٩٢٧، أم كلثوم لها مئات العشاق ولا أدرى ماذا يحبون فيها، فهي ليست على شيء من الجمال، ولا خفة الروح ولا سلامة الطبع. وفي ١٣ يناير سنة ١٩٢٧ كتبت مجلة المسرح، تقول "إن أم كلثوم نجمها قد غرب"، وفي ٣١ يناير أيضًا كتبت مجلة المسرح، تقول "أم كلثوم قدمت وهي بنت صغيرة شكوى لمحكمة السنبلاوين، بأن شابًا من القرية اغتصبها"، ووعدت بنشر نص الحكم ولم تنشره أبدًا؛ لأنه كان خبرًا مختلق، ولكن هذا الخبر كاد ينجح في إعادة أم كلثوم إلى قريتها، فقد قرأه والدها الشيخ إبراهيم وأقسم ألا تبقى أم كلثوم بالقاهرة، بعد أن بزغ نجمها، ولكن الأب أصرّ لولا أن صديقًا للأسرة حضر في تلك اللحظة، واستطاع أن يقنع الشيخ إبراهيم بالبقاء. ولكن هذه الحملة العنيفة على المطربة الشابة أم كلثوم، لم تصرف الناس، وفجأة جاء أولاد الحلال وقالوا لها، لنغير ونعدل.. سنضرب أم كلثوم من المسرح، وبسرعة اقنعت الست منيرة "عبد الوهاب" بإكمال لحن سيد درويش "كليوباترا".
وكان الفضل لمسرح منيرة المهدية التي اكتشفت مُحَمَّد عبد الوهاب، والذي يكتب في مذكراته عن ذلك الحدث: بأن هذه المرحلة جعلته يلمع كملحن بعد أن لمع كمطرب، ولكنه يذكر أيضًا ذلك المشهد الذي تلقى فيه "كليوباترا"، بنفسها على صدره منتحرة بسم الثعبان– ويقول ولأن منيرة المهدية لا تقل عن ١٥٠ كيلو شحم، فإنها في كل ليلة كانت تخرج روحه، حينما تموت على صدره متوهمة بأنها كليوباترا!!

ونجحت الفكرة مرحليًا عندما نشر الأستاذ فكري أباظة مقالًا في الأهرام بعنوان "معجزة الموسم"، قال فيه "منيرة وعبد الوهاب يغردان تغريد البلابل، والجمهور يضج ضجيج الإعجاب العنيف، بعد أن أخذت منه الدهشة كل مأخذ، واستولى عليه ذهول الخاشع أمام السحر الحلال، مجرم في حق نفسه وحق الفن، من لا يشهد رواية كليواترا في الحال مجرم في حق النبوغ والعبقرية، من لا يبادر بإذاعة خبر هذا النصر الحاسم، والنجاح البالغ عنان السماء!" وأبدت منيرة إعجابها الشديد بفكري أباظة، وغار عبد المجيد من فكري أباظة. وفي ٧ مارس سنة ١٩٢٧ كتب عبد المجيد حلمي إلى حبيبته يقول "كان الشرط ألا نتراسل، مهما جد في غرامنا، ومهما وقع لنا، ولكني أحب أن أقص في غيبتي ما لا أستطيع ذكره أمامك"، نذالة في الرجل يا سيدتي أن يغدر، ولكنها طهارة أيضًا ألا يكون مخادعًا ولا غشاشًا، وأنا اليوم أغدر بك، ولكني لا أغشك ولا أخدعك. كنت أنتِ النار التي اشعلت حسني، ولا أقول قلبي– ولكن هذا القلب كان يدق حين يشعر بالالتهاب. فظننت أني أحبك، وظننت أنني لا أستطيع أن أعيش إلا لك، أو من أجلك وفي سبيلك، وفي ذلك النهار الممطر الذي قضيناه معًا في منزلي، فجأة دفعتك عني كشيءٍ قذر تمرغت فيه برهة، ثم عافته نفي فتنصلت منه، أصبحت "لا شيء" في حين أنك منذ دقائق كنت "كل شيء"، كنت أعتقد أنني أحبك وأنني لا أستطيع فراقك، كنت أغار عليكِ حين تمدين يدك بالسلام لمخلوقٍ ما، وكنت أحترق حين أراك تبتسمين لشخصٍ آخر، كنت لا أطيق مجرد التصور أن رجلًا غيري نظر إليكِ وابتسم لكِ، أما الآن فلا أتمنى من الله إلا أن يبعدني عنك إلى الأبد.

وقالت منيرة المهدية، هذا الحشرة.. يتركني أنا.. يترك ست الستات، لست المرأة التي يتركها رجل أنا الذي أترك، وجن جنون برج الحمل برج منيرة المهدية، آهٍ من برج الحمل، وأن من امرأة يبدأ اسمها بحرف ميم، إذا قررت الانتقام والثورة. وجاء أولاد الحلال.. وقالوا لها: بشبشي له.. اسحري له.. وقالت: إيه الكلام الفارغ ده، وقالوا لها وصفة معروفة بعض الآيات وبعض الطلاسم، تكتب على ورق بالزعفران، وتغسل بالماء ويشرب منها المحبوب! أو شيء من أطره قطعة قماش منديل، وفي يوم ١٨ إبريل سنة ١٩٢٨ كتب إليها عبد المجيد حلمي، يقول "أصدقائي يصورنك لي بصورة بشعة، وما يزيدني ذلك إلا حبًا فيك، وشغفًا بك وحنينًا إلى لقياك، إن حديث السوء عنك يصيب جرحًا في عاطفتي فيذيبها، المرأة التي أحببتها يحتقرها الناس؟!".

وفي يوم ٩ مايو سنة ١٩٢٧ كتب عبد المجيد لها، يقول "أنتِ طاغية في حبك الأبله، طاغية في تفكيرك الجنوبي، طاغية في عبثك الأثيم، طاغية في استهتارك السخيف، طاغية في إحساسك وشعورك، ومصرع كل طاغية رهيب".

فهل هذا بسبب الحب.. أم بسبب السحر أم بسببهما معًا؟!

وسقط عبد المجيد حلمي صريع الحمى والحب، وارتفعت درجة حرارته، وأصبح يهذي ويذكر اسم منيرة.. منيرة وحدها! وأفاق من غيبوبته ليكتب يوم ٦ يونيو ١٩٢٧:"الآن وقد مضت على الأيام الستة وأنا فريسة المرض، بدأت الخيالات تمر أمامي تباعًا، أعيد على ذكرياتي الماضي بعيدة

وقريبة، فيشتد الألم وتزداد قواي انحلالًا، تألفت على عناصر الطبيعة، تريد أن تصرعني، وتألبت لتغلبني ووقفت لها أحتمل ولا أدفع، وأصبر فلا أجزع، حتى ثقل الحمل ودنا المصرع!".

وهب العواصف من كل مكان تقتلع منيرة المهدية من عرشها، البعض لعنها، والبعض هاجمها والصحفيون أهملوا أخبارها، والجمهور قاطعها ومضت منيرة تقاوم الصحف كلها، والمجلات كلها والنقاد كلها، كل أصدقائها تخلو عنها حكموا عليها بغير محاكمة، رفضوا أن يسمعوا شهودها أبوا أن يكون لها حق الدفاع عن نفسها! كان عبد المجيد معبودًا بين الشباب هقاطعوا مسرحها، وأطلقوا عليها اسم القاتلة، وذهب بعض الناس إلى الشوارع ينتزع إعلاناتها الملونة، أو يعمي عينيها الجميلتين المطليتين من إعلانات الحائط.

ولكن منيرة المهدية بقيت تذكر شيئين: إنها وفدية سعدية، وفدية نحاسية، وفدية ولو على رأس الوفد غراب!!

أما الشيء الثانق تلك الصورة التي التقطت لحسين رشدي باشا، رئيس مجلس الشيوخ!! ونشرتها الصحف وروز اليوسف، "أنها مدت يدها ليسلم عليها رئيس مجلس الشيوخ حسين رشدي باشا، ووجد الرجل نفسه يقبل يدها ليحدث أزمة برلمانية، يقف فيها بسذاجة يقول: "ليس في الدستور المصري مادة تمنع رئيس مجلس الشيوخ، من أن يقبل يد مطربة".

كانت منيرة المهدية تحب شيئًا واحدًا..هو منيرة المهدية، أن أي واحد أحبها قال هذه العبارة، "أنا وهي نحب شخصًا واحد– هي!!". وإذا

احتاجت لشيء لم تفصل بين الحب وما تحتاجه، وتفعل هذا قبل الحب تمسح وتنكس، وتكوي وتهب كل شيء، ولها صوت مؤثر وكلام مؤثر وخطاباتها قصيرة. وعن ذلك يحكي "مصطفى أمين": وفجأت سألتها:

- وإيه حكاية عبد المجيد؟

قالت في استغراب: عبد المجيد مين؟

قلت: عبد المجيد حلمي مجلة المسرح.

قالت: آه.. آه.. عبد المجيد دي حكاية بسيطة، كان يحبني حبًا جنونيًا، وكنت أعطف عيه لطيبته وبراءته، ولكني لم أحبه لأن غيرته، كانت كالإعصار تحطم كل شيء أمامها!

ومضت الأيام وانقطعت منيرة المهدية عن الغناء، وذات مساء اتصلت بي أم كلثوم تليفونيًا وقالت لي: "إني أدعوك معي في حفل ساهر، اشتريت بنوار في صالة بديعة، وستغني منيرة المهدية، وأنا أريد أن أشجعها وأصفق لها، وألحت إلحاحًا عجيبًا أن أصاحبها" وذهبنا وغنت منيرة المهدية وياليتها ما غنت، كان صوتها أشبه بالأسطوانة المشروخة، فَقَد صوتها حلاوته وبحته ورخامته وجاذبيته، وكانت أقرب إلى ملكة محنطة في تابوت، ترى فيها الماضي الخالد، ولا تجد من أثر الحاضر سوى التراب، وكانت أم كلثوم تلهب يديها بالتصفيق، وتزغدني في كتفي لأشاركها في التصفيق، وخيل إلي أننا وحدنا الذين كنا نصفق، وأن الجالسين في الصالة أنهمكا في الحديث عن ذكريات سلطانة الطرب وبريقها الفتّان. ولم تكن التي أمامنا:

منيرة المهدية- بل شبح منيرة المهدية، وشعرت أم كلثوم أن القصاص قد جاء، وإن كان تأخير ٤٠ سنة منذ أول مقالة كتبها الصحفي المتيم المسحور عبد المجيد حلمي- ضدها!!

لست ملكًا حتى يؤرقني أمر الإنجاب

١٨٧٨-١٩٤٦

روت صفية زغلول أنها في يوم زفافها عام ١٨٩٦، استدعتها أمها أصانيش هانم، وقالت لها بعد الفرح: سيأخذك زوجك من بيت أبيك في باب اللوق إلى بيت زوجك في غمرة في عربة حانطور، اجلسي صامتة طوال الطريق، عندما تصل العربة أمام بيت العريس سينزل سعد، ويقول لك: تفضلي!.. اجلسي في مكانك ولا تتحركي! سيقول لك المرة الثانية: تفضلي! اجلسي في مكانك ولا تتحركي! سيقول لك في المرة الثالثة: تفضلي! عندئذٍ تنزلين من العربة، وتدخلين معه إلى البيت حتى يعرف من أنتِ؟

وقالت صفية أنها اتبعت تعليمات أمها فلما وقفت العربة نزل منها سعد، وقال لها: تفضلي، فلم تنزل، وعندئذٍ فوجئت صفية زغلول بسعد زغلول يتركها، ويدير ظهره ويمشي نحو باب البيت، وعندئذٍ وجدت نفسي أقفز من العربة وأجري خلفه، وما زلت منذ ذلك اليوم أجري خلفه إلى الآن! وهكذا لم تشعر هذه العروس الصغيرة، إلا أن هذا الرجل سيدها وإلهها الصغير، لاتتحرك إلا بإذنه ولا تتكلم إلا همسًا، نسيت منذ تلك اللحظة أنها ابنة رئيس وزراء مصر، الذي تولى حكم مصر ١٤ سنة بغير انقطاع، ونسيت أنها ولدت وأبوها وزير، وأنها كانت طفلة أبيها المدللة. وأنها عاشت طفولتها في قصر أبيها الحاكم

بين الجواري والأغوات. وقد كان لديها في قصر أبيها أغا اسمه "فيروز" حملها، وهي طفلة فلما تزوجت أهدتها أمها هذا الأغا، وإذا بعريسها يرفض هذه الهدية، ويقول أنه يرفض أن يعيش في بيته أغا، لأن خصى الرجل وحرمانه من رجولته، وبيعه كالرقيق عمل غير إنساني. وهو لا يقبل أن تعيش في بيته جريمة تمشي على قدمين! وهكذا كان سعد في بيته يرتدي الجاكته، والبنطلون فوق جلابية الفلاح الزرقاء!!

وروى "مصطفى أمين" في مذكراته تلك الحكاية فكتب يقول: "استدعى الزعيم الولدين الصغيرين "علي ومصطفى"، وقال لهما إنني سألكلفكما بمهمة سرية خطيرة، لا أريد أن تعلم بها أمكما ولا ستكما"!! وفرح الولدان وتصورا أن جدهما سيكلفهما بمهمة سرية ثورية، وأحسا أن هذا شرف عظيم وقال لهما: تذهبان إلى محل شيكوريل وتشتريان قفازًا، كهذا القفاز على ألا يزيد ثمنه على عشرة جنيهات، غدًا عيد مسلاد "ستكم صفية"، وأريد أن أفاجئها وأقدم لها هدية بمناسبة هذا اليوم السعيد، ثم أعطاهما عشرة جنيهات وخمسة قروش مصاريف ركوبهما الترام، وقفازًا قديمًا من قفازات صفية زغلول، حتى يحصلا على قفاز من نفس النوع.

وقام الولدان بالمهمة السرية في كتمان شديد، واشتريا هذا القفاز وأخفياه ثم عادا إلى بيت الأمة، وقابلا "سعد" في مكتبه بالسلاملك وقدما له القفاز، وفرحا عندما أثنى على ذوقهما في اختيار القفاز، وكان أسود اللون وخرج الولدان في سعادة غامرة، وهما يشعران أنهما أصبحا موضع ثقة زعيم الأمة، ولهذا كلفهما بهذه المهمة السرية على الرغم من أن عمرهما كان يومئذٍ ١١سنة، وكانت هذه أول مرة يحتفل بها سعد بعيد ميلاد

زوجته، ولم يقم لها مأدبة أو حفلة عيد ميلاد، ولم يأمر بعمل "تورته" يضع فيها شموعًا، بعدد سنوات حياتها! وكانت "صفية" سعيدة بهذه الهدية البسيطة، التي يبلغ ثمنها عشرة جنيهات، وكانت أكثر اهتمامًا بكيف اشترى سعد هذا القفاز؟! فكان– سعد– يضحك، ويرفض أن يخبرها بسر الولدين الصغيرين– وكان يقول إن الجهاز السري للثورة هو الذي اشترى القفاز!! "وفي مذكرات "سعد زغلول" كتب يقول: إن هذا اليوم ١٦ يونيو– ولادة قرينتي– وقد أهديتها قفازًا قيمته عشرة جنيهات".

وفي بداية الزواج كانت صفية زغلول تذهب بكثرة لمنزل والدها، وكان هذا الأمر لا يعجب سعد زغلول، وكان يعتقد أنه لا يعجب حماه أيضًا مصطفى فهمي باشا، واعتقد أن الأمر يرجع لحماته "أصانيش هانم"، وكان يُبدي ضيقه بروح من السخرية المهذبة، فيقول لصفية: كيف أحوال الباشا وقصاقيص هانم؟ بدلًا من أصانيش، وتعرف صفية أنها تأخرت أو غالت في الزيارات!! ولم يفقد "سعد زغلول" أبدًا روحه الساخرة وقفشاته اللاذعة، وهي حسب ما يقول العقاد: "حاضرة على البديهة يستعين بها على لطف مؤاخذة، أو رد مكيدة أو إلزام حجة أو صرف حادثة مؤلمة بكلمة مضحكة، فهي تارة بلسم جراح وتارة عدة كفاح، وهي مؤنة تصلح حينًا لمساجلة الأصدقاء، كما تصلح حينًا لمناجزة الأعداء"، وقد حدث مرة في الثالث عشر من نوفمبر سنة ١٩٢١– أن أطباؤه رأوا من حالة الصدر وضغط الدم خطراً على حياته، إن هو أجهد نفسه أو خطب في ذلك اليوم، ولكن اليوم يوم الذكرى الوطنية، وهو عائد من رحلة الصعيد وعنده كلام كثير يقوله، ولا يؤديه عنه غيره! فليتكلم إذن وليبطل كلام الطب

ونصيحة الزوج الرؤوم ورجاء الأصدقاء، وقد تكلم كما شاء وحي الطبيعة، واعتلى المنبر أكثر من ثلاث ساعات، فإذا الخطبة من أجود ما قال وأفعل ما ارتجل. وماذا حدث؟! ها تحقق الخطر؟! هل تعب! هل اقتصر الأمر على السلامة؟! لا عولج مما كان يشكوه وعاد كأقوى ما كان.

وحسب ما يقول "مصطفى أمين"، كان سعد زغلول إذا شعر بالإجهاد، قال بسخرية: ربنا يرزقنا بأزمة مع الإنجليز حتى نجدد شبابنا!!

وكانت أسوأ أيامه هي الأيام التي يأمره الأطباء، فيها بعدم مغادرة غرفة نومه، وكان يسمى هذا "أمرًا بالقبض عليه واعتقاله"، وكان يناقش أمر الاعتقال ويعارضه ويحاول إقناع الأطباء، بتخفيض مدة الحبس! ويتذكر سعد زغلول في مذكراته مسألة نسائية بحتة، إنها يوم "التنفيض" وكان "سعد" يضيق بهذا اليوم، فالمطلوب منه أن يترك غرفته مبكرًا، حيث يبدأ التنظيف من الدور العلوي والبداية من غرفة نوم "سعد"، وهو يعرف أنه لابدّ وأن يتناول طعام الإفطار بسرعة، ولا يستقبل أي زوار في ذلك اليوم، وعليه أن يتناول طعام غذائه في نادي مُحَمَّد علي!! في يوم التنفيض كانت "صفية" تدخل غرفة "سعد"، وتقف أمامه لا تتحرك ولا تتكلم، ويفهم "سعد"من هذه الحركة– كما يقول "مصطفى أمين"– أنها تدعوه إلى الجلاء إلى البيت بسرعة، وكان "سعد" يسمى "صفية" في ذلك اليوم "مقلقة الراحات وهادمة اللذات"!

وكان "سعد زغلول" يقول إن "صفية" مريضة بمرض اسمه "النظافة"، وكانت صفية تضع منفضة من الحديد في أدنى درجات السلم الخارجي،

ومنفضة من سعف النخيل في أعلى، الأولى ليسمح فيها الزائر قدميه من الطين، والثانية ليسمح فيها الزائر حذاءه من التراب. فإذا وجدت– صفية– آثار أقدام على الرخام الأبيض في سلم السلاملك، نادت "عبد الكريم" فراش السلاملك ليسارع إلى محو هذه الآثار، حتى تبدو درجات السلم الرخامية ناصعة البياض، تبرق وتلمح وتضيئ، فقد كانت ترى آثر الأحذية على الرخام، كأنها وصمة عار في جبين البيت الأبيض النظيف!!

كان أغلب الكبار والوزراء والأسماء اللامعة في ذلك الوقت يلعبون القمار، قتلًا للوقت والتسلية ودفعًا للملل. وكانت الزوجات هن أول من يدفع الثمن: غضبًا وقلقًا ومشاجرات وخسارة أيضًا! وعندما أصبح "أحمد فؤاد" سلطانًا على مصر، كان أول قرار أصدره أن تتولى الدولة تسديد ديونه، وكانت "ديون القمار" على رأس هذه الديون! وحاول "سعد زغلول" عشرات المرات أن يقلع عن عادة لعب القمار، حتى لا يغضب "صفية" التي كانت تكره وتمقت القمار، وحتى لا تتزايد خسائره وديونه! كانت "صفية" غاضبة بلا حدود، وثائرة على تلك العادة التي تمكنت من سعد زغلول. ومن جانبه لم ينكر "سعد" أنه حاول مرات كثيرة الإقلاع عن اللعب، لكنه كان يفشل. وفي ٨ مايو ١٩١٧ يعترف في مذكراته قائلًا: "لأني أتردد هذه الأيام على النادي، فأنا لا أريد أن أفكر في عدم استطاعتي ترك اللعب، ولكن بما أني ملتزم كان على أن أترك الرزيلة، كيف أعرف كل عيوب القمار وأتمسك به؟! إن زوجتي تعانى كثيرًا من جراء ذلك، حتى أنها لا تكاد تنام وهي دائمًا غاضبة"، وكان مما يزيد الأمر على "صفية"، أنها شعرت بأن سهره في القمار له أبعاد آخر. فقد طاف بها من

قبل على الأطباء في مصر وأوروبا، وعرضها على أكبر الأطباء، فأجمعا على أنها لا يمكن أن تلد! ولعب الفأر في عب "صفية"!

وكان سعد يطمئنها بأنه: ليس ملكًا ليهتم بأمر الإنجاب، وأنه عندما تزوجها كان يريدها لذاتها لا بسبب الأولاد. وأنه رجل يرضى بما يقسم به الله، وفيما بعد أقلع سعد عن القمار، عندما ازداد شك زوجته، وحوّل النساء لها الشك إلى نار لا تنطفئ!! وكان "سعد زغلول" يعزي نفسه قائلًا:

- إن كثيرًا من العظماء لم يرزقهم الله أولادًا لحكمة يعلمها!

وبتاريخ ٥ أغسطس سنة ١٩١٧ كتب "سعد زغلول" في مذكراته يقول: "أتمنى الآن لو يكون لي ولد، وأن ابني بواحدة "أي أتزوج واحدة"، من الفلاحين أو غيرهم، ويشغل هذا الفكر بالي، ولكن تحقيق هذه الأمنية صعب، لأني أريد أن يكون ذلك سرًا..وذلك من المستحيل تقريبًا..فالأفضل ترك هذا الفكر من أصله". لكن "سعد" انشغل بما هو أكثر خطورة من الزواج ثانية. وانشغلت صفية بهذه المصيبة؟! وحاول سعد أن يشغلها بتبني أولاد أخته سعيد ورتيبة، وفعلًا عاشوا في بيته ولكنهم كبار، وهي تريد ولد على الزيرو!

وإذا بالصدفة تحدث يوم ولادة رتيبة: ووصل الدكتور ملتون، ودخل الحجرة في الساعة الأولى بعد ظهر يوم السبت ٢١ فبراير سنة ١٩١٤، وبعد دقائق كان يحمل في يده مولودًا أكبر من الحجم المعتاد، وراح يضرب ظهره بيده فينطلق صراخه، وتتلق صفية زغلول الطفل وتدور به في الغرفة، وهي تصيح في فرحٍ وزهو. ولد! ولد! ومضت "صفية" تقول وهي تلف

المولود باللفات والأربطة: معذورة رتيبة! إن ضخامة جسم المولود هي السبب في صراخها وعويلها.

وإذا بالسيدة الحكيمة التي كانت تساعد الدكتور ملتون تصرخ في فزع:

- الحقوني! الحقوني!

واتجهت صفية في رعب إلى الفراش، الذي ترقد فيه رتيبة، وتصورت أنها ماتت في أثناء الوضع. وقالت الحكيمة وهي لا تزال منحنية على جسم رتيبة: فيه واحد ثاني..

وأخرجت الحكيمة مولودًا هزيلًا ضعيفًا ضئيلًا، حجمه أقل من المعتاد، ويدق قلبه كما تدق الساعات الرخيصة، التي لا تنتظم خمس دقائق إلا لتتوقف خمس دقائق. وراح الدكتور ملتون يضرب بيده ظهر الطفل الهزيل فلا ينطق، واستمر يضربه حتى خرج من فمه صوت هزيل ضعيف، أقرب إلى حشرجة عجائز يموتون. منه إلى صراخ أطفال يولدون! وسلمت صفية المولود الأول إلى الحكيمة، وحملت المولود الثاني وصاحت في دهشة: ولد كمان!؟ ولد تاني؟؟

وما كادت رتيبة تعلم أنها رزقت بولدين توأمين، حتى أغمي عليها من الفزع وأسرع الطبيب يسعفها من أثر الصدمة الهائلة! لم تكن ولادة التوأمين منتشرة في مصر في تلك الأيام، كما هي منتشرة الآن. كانت رتيبة تحمل هم تربية مولود واحد، فإذا بها تفاجأ بأنها رزقت بولدين معًا في وقتٍ واحد. كيف تربيهما معًا؟ كيف تحملهما معًا؟ إن هذه أول مرة تلد فيها،

وهي لا تعرف كيف تعني بطفلٍ واحد، لا بطفلين اثنين في وقتٍ واحد. وهي قد أعدت ملابس ولوازم طفل.. فماذا تفعل بالطفلين! ومضت رتيبة تبكي وتندب سوء بختها. وقلة حظها، لماذا هي وحدها دون نساء العالم ترزق بمولودين معًا! وكانت رتيبة تشهق بالبكاء حزنًا وأسى، بسبب المصيبة الفادحة التي حلت بها. وتندب حظها لأنها رزقت وحدها دون جميع أمهات الأسرة بولدين في وقتٍ واحد، وتركتها صفية وخرجت إلى الغرفة المجاورة التي كان يجلس فيها سعد زغلول، ثم عادت مرة أخرى. وجلست بجوار رتيبة في فراشها تهدئ روعها، وتقول لها: إن سعد قال لي الآن أنه أسعد رجل في العالم، لأنك رزقت بولدين.

فقالت رتيبة ودموعها تنهمر من عينيها: ولكني أتعس أم في العالم؟! كيف يمكن أن أربي ولدين في وقتٍ واحد؟

قالت صفية: إن سعد حلّ هذه المشكلة. إنه يقول إن الله شاء بهذين الولدين أن يحل مشكلتنا. أنا وخالك نتمنى أن يكون لنا ولد، هذه هي أمنيتنا الكبرى. وقد حقق الله أمنيتنا فرزقك بولدين، لنأخذ نحن إحدهما وتأخذى أنتِ الثاني.

قالت رتيبة في سعادة: صحيح هل وافق خالى حقًا على أن يأخذ أحدهما، خدي من تريدين منهما؟

قالت صفية: لقد اقترحت أن أسمي الأول علي باسم عمي علي زكي، واسمي الثاني مصطفى باسم والدي، وقد وافق سعد على ذلك. وقال أنه يترك لك على المولود القوي الصحيح، وسيأخذ هو المولود الضعيف الهزيل

مصطفى وسوف نتبناه، وسوف يحمل اسم خالك سعد زغلول، وسيكون اسمه في شهادة الميلاد مقرونًا باسم والده سعد زغلول، وأمه صفية زغلول.

وأجهشت رتيبة بالبكاء، وقالت صفية: وقد عرض علي الفكرة، فرحبت بها من كل قلبي. إنك تسعدين خالك إذا تنازلتِ عن "مصطفى له".

قالت رتيبة إنني مدينة لخالي بحياتي، إنه هو الذي رباني وأنا طفلة يتيمة، كما تبناني مع أخي سعيد، ولو طلب حياتي لأعطيتها له. إنني لا أظن أن في الدنيا أبا خيرًا من خالى سعد، ولا يوجد في الدنيا أم خير منك.

قالت صفية: وهل سيوافق زوجك على أن نأخذ مصطفى؟

قالت رتيبة في عتاب: يوافق؟ إنه سيرقص من الفرح والفخر.

وأبلغته رتيبة باقتراح سعد وصفية، أن يسمي الولد الأول علي والولد الثاني مصطفى، فرحب بالاقتراح. ولكن ما كادت رتيبة تخبر زوجها باقتراح سعد أن يتبنّى مصطفى، حتى غضب الأب، وثار ورفض الاقتراح بعنف.

وقال: لا يمكن أن أبيع ابني!

قالت رتيبة: إن المسألة ليست مسألة بيع وشراء، إننا كنا نريد من الله ولدًا واحدًا وأعطانا ولدين، وقد صدمت أنت كما صدمت أنا بالنبأ. جاء خالي وطلب أن يتبنّى مصطفى؛ لأنه محروم من نعمة الأولاد. فلماذا لا نسعده بأن نعطيه الولد الضعيف الهزيل؟!

قال الأب: أنا لا يمكن أن أعطى ابني لأحد!

قالت رتيبة: إنه ليس "أحد" إنه خالي وأبي، الذي تبناني ورباني أنا

وأخي وأنا يتيمة الأبوين، فأقل ما أفعله أن أرد له جميله.

وبكت رتيبة على رفض زوجها أن يتبنّى خالها مولودها الضعيف. ولم تمر هذه الأزمة ببساطة على بيت سعد زغلول. إنها جرحته، لقد عاش سعد بضع ساعات يتصور أنه أصبح أبًا، وأن ولدًا سيحمل اسمه، إنه سيحمله بين يديه، سيحبو فوق ركبتيه، سيسلي به شيخوخته، سيطربه صراخه، سيملأ صوته الصغير البيت الهادئ الساكن الوقور. وعندما تلقى سعد رفض أمين يوسف عبس وجهه وأكفهر، تحولت عيناه الضاحكتان إلى عينين جامدتين حزينتين.. وهكذا خرج للحياة التوأمين "مصطفى وعلي يوسف أمين "، ويقول رشاد كامل في كتابه "الهانم والزعيم": وعاش "سعد زغلول" في تلك الأيام لحظات قاسية من الحزن والهم والغم، وحاولت "رتيبة" و"صفية" أن تخففا وتسريا عنه وأن تزيلا كآبته، وجاء الأب "أمين يوسف" يعرض اقتراحًا على سعد زغلول، وهو أن يبقي الطفلان في كتفه دائمًا وإن حملا اسم أبيهما! ورفض سعد زغلول هذا الاقتراح بشدة في أول الأمر، ثم عاد وقبله ووافق عليه، وفي أيام أخرى كان سعد يجد متعة في ملاعبة الطفلين الصغيرين، يداعبهما ويحملهما ويدرس تصرفاتهما، ويسأل عنهما إذا غابا ويبحث عنهما إذا اختفيا، وفي أحيان أخرى تعود إليه رغبته في أن يكون "أباً"، وضايقه بأنه حرم من أن يتبنى أحد الطفلين، فيطلب إلى "صفية" أن تبعد الطفلين، حتى لا يتذكر أنه فقد أحدهما، ويفضل أن يعتكف وحيدًا في غرفته بمسجد وصيف "طوال الصيف"، ويطلب إلى صفية أن تعطي رتيبة نفقات المصيف، لتصحب الطفلين الصغيرين إلى أي مصيف بدلًا من أن يمضوا الصيف معه، حتى لا يتذكر في كل يوم أنه حرم

من أن يكون أبًا لأحدهما، وتنفذ "صفية" أمر زوجها والذي لا يعرفه الكثيرون، أن "سعد زغلول" وقع في يده كتابات رفاعه رافع الطهطاوي، واندهش به ووجد عنده السلوى- فرفاعة عاش في عصر الجواري والرقيق، كان يمكن أن يتزوج أربع نساء ويعشق مائة جارية، ولكنه لم يفعل ذلك.. ليس فقط استقامة خلق، ولكن استقامة فكر، فالرجل لم يكن مثل غيره من متهني الفكر في مصر، فهو يقول ويفعل، ويؤمن فينفذ. قد تزوج رفاعة الطهطاوي من ابنة خاله. فماذا فعل معها؟ وعلى طريقة رجال عصرنا ماذا فعل بها؟ لنقرأ الآن- قبل أي شيء- رأيه في "الحب" والحب الذي حلاوته "بالقنطار"، لم يكن معروفًا في زمن رجل عاش من "١٨٠١ إلى ١٨٧٣"، بكل ما يفرضه ذلك من حمق وجبروت في التعامل مع النساء. قال رفاعة أيامها: "معرفة إرضاء أحد الزوجين للآخر فنٌ نفيس، وإن كان صعبًا في حد ذاته، لأنه يستدعي كمال التربية والإنصاف بالعدل، وقوة العقل، وذكاء الفطنة، واعتياد كل من الزوج والزوجة على تحسين أحوال المنزل المشترك بينهما، وتنظيمه وترتيبه وتنظيفه بقدر ما يمكن، ومعرفة الاعتناء بالوسائل التي تستدعيها "الصداقة" بين الزوجين، لاشتراكهما في المنفعة العمومية". فينبغي أن يكون "الحب" الموجود في قلب المرأة والرجل بعضهما لبعض، عبارة عن وداد خالص وصفاء فؤاد خلي من تجربة الغرام، ومشوب بحرارة الشبوبية في غالب الأحواد، فمتى تمكن "الحب" في قلب كل منهما، فجميع وسائل اللذة توجد فيها، "فالمحبة" هنا مشوبة "بالصداقة" الأكيدة. وقد أعجب سعد زغلول ما قدمه رفاعة الطهطاوي لزوجته في عقد زواجهما، وقال سعد زغلول: ليقرأ

نساء هذه الأيام كيف يستطيع رجل حر أن يعطيهم ما يقاتلوا من أجله؟ لقد رأى أن "الحب" هو الحزب النسائي الأول والأخير في حياة النساء؟ الذي تزوج ١٨٢٩ فنصه:

"ألتزم أنا كاتب هذه .... كريمة بنت العلامة الشيخ مُحَّد ... إلى المصونة الحاجة الزوجية دون غيرها من زوجة أخرى، ولا جارية أيًّا كانت، وعلق؟؟ وحدها على غيرها من نساء أو تمتع بجارية أخرى، فإن تزوج بزوجة أيًّا كانت، كانت؟ أخذ بمجرد العقد طالقة بالثلاث، وكذلك إذا تمتع بجارية ملك يمين، ولكنه وعدها وعدًا صحيحًا لا ينتقص ولا يخل، إنها ما دامت معه على المحبة المعهودة مقيمة على الأمانة والعهد لبيتها، ولأولادها ولخدمها وجواريها، ساكنة معه في محل سكناه لا يتزوج بغيرها، أصلًا ولا يتمتع بجوار أصل ولا يخرجها من عصمته حتى يقضي الله لأحدهما بقضاه".

وفي مذكرات "سعد زغلول" بتاريخ سبتمبر ١٩١٦ كتب يقول... توأمين، أحدهما يُدعى "مصطفى" والثاني "علي" ولا يتجاوز عمرهما الآن سنتين ونصفًا، وهما يحبان بعضهما، ويلعبان معًا، وإذا غاب الواحد بحث الآخر عنه! ومصطفى ضعيف البنية، ولكنه رقيق المزاج، وكل منهما سريع التأثر، ولكن مصطفى أسرع، وفيه حسن التفات، ورقة قلب وحنان. وقد ربتهما والدتهما على النظافة، ولكن لشدة حبها الأموي عدتهما أن تطيع شهواتهما إذا بكيا، فتجد الواحد منهما يطلب الشيء، فإذا منع بكى بكاء مرًا، وإذا نهى عن أمر كان يميل إليه بكى أيضًا كذلك، ولكن بكاء "مصطفى" يؤثر فيها أكثر لضعفه، فتسارع إليه. وربما أعود إلى الكلام عنهما بعد ذلك في فرصة أخرى.

ويحرص "سعد زغلول" على تسجيل واقعة طريفة خاصة بالتوأمين، فيكتب في مذكراته بتاريخ ٣١ أغسطس ١٩١٨: "غدًا تأتي رتيبة مع أخيها ونجليها "علي ومصطفى أمين"، وأظهرت للست عدم رغبتي في طهارة "ختان" نجليها عندنا، ورأيت الأوفق أن يكون ذلك عندها، وقلت إني مستعد لأن أساعد الأقارب من بعد، لا من قرب، فوجدت فيه شقائي" ويعلق "مصطفى أمين" مذكرات "سعد زغلول" و"صفية" بسبب طهور الولدين، فقد كان مع ذلك انتصرت "صفية" ذلك بثلاثة أعوام، وتم طهور الولدين في الطابق الأعلى ببيت الأمة، ورفض سعد أن يدخل غرفتهما التي لازماها بضعة أيام بعد الطهور"، لنقرأ الأن– قبل أي شيء– رأيه في "الحب" ولم تصبح المشكلة كبيرة على "صفية زغلول"، إن الصغار يتربيا في كنفها، ثم أنها أصبحت أم المصريين كلهم.

ويعلق على ذلك مصطفى أمين في كتابه "من واحد لعشرة"، الذي كان ينادي "سعد زغلول" بـ "جدو": ويبدو أن ذلك هو حال العظماء في الدنيا. فمصطفى كمال أتاتورك زعيم ثورة تركيا، لم يرزق ولدًا ولا بنتًا وقاسم أمين، زعيم سفور المرأة الشرقية لم يرزق ولدًا، وإنما رزق عدة بنات ومُحَمَّد عبده زعيم الإصلاح الديني في مصر، لم يرزق ولدًا وإنما رزق بنتًا، وطلعت حرب زعيم مصر الاقتصادي لم يرزق ولدًا، ولكنه رزق ثلاث بنات. ورياض الصلح أحد زعماء الحرية، والقومية العربية لم يرزق ولدًا، وإنما رزق ولدًا وإنما رزق بنتًا. وفتحي زغلول لم يرزق لا ولدًا ولا بنتًا وكذلك عباس العقاد، ومصطفى النحاس، ومحمود مختار المثال المصري وأم كلثوم ونجيب الريحاني ويوسف وهبي كل هؤلاء وغيرهم، لم يرزقوا لا أولادًا

ولا بنات. ولكن مع كل ما وصل إليه هؤلاء من مجد، كان الكثيرون منهم يشعرون بحسرة؛ لأنهم لم يرزقوا ولدًا يكون امتدادًا لهم، كأن تاريخهم لا يكفيهم. أو كأنهم تصوروا أن الولد يمكن أن يعيش عمرًا أطول من عمر التاريخ! أو أنهم خشوا أن يعجز التاريخ عن أن يحمل للغد صورهم على الورق، فتمنوا لو أن صورهم رسمت باللحم والدم على أولادهم! ثم أن هناك جانب آخر في القضية، ماذا لو أصبح هؤلاء الأبناء أو الذكور طالحين وليسوا صالحين؟! وقد لا يعرف كثيرون أن سعد زغلول لم يطلب من زوجته، أن تقود ثورة ١٩١٩ بعد نفيه، بل إنه لم يتوقع أنها تستطيع أن تقوم بهذا الدور، كل ما فعله قبل قيام الثورة أنه قال لها: يا صفية، لقد قررت أن أضع رأسي على كفي اليمنى.

فقالت صفية: وضع يا سعد رأسي على كفك اليسرى!

وفهم سعد من هذا الحديث أنها مستعدة لأن تتحمل ما يصيبها من تضحيته بنفسه في الثورة. ولكنها فهمت في الواقع أنها وقعت معه ميثاقًا مكتوبًا بأن تقود الثورة. إذا غاب زوجها عن مكانه! وعندما قبض الإنجليز على سعد زغلول في يوم ٨ مارس، سارع علي باشا شعراوي وكيل الوفد ودعا أعضاء الوفد الذين لم ينفوا مع سعد إلى اجتماع طارئ، يعقد في بيت علي شعراوي لبحث الموقف.

وسمعت صفية زغلول بأمر الدعوة فثأرت، واتصلت بمنزل علي شعراوي باشا، فردت زوجته هدى شعراوي. وطلبت صفية التحدث إلى علي شعراوي ودهشت هدى شعراوي. فلم تكن التقاليد أيامها تسمح

لسيدة متزوجة بأن تطلب التحدث مع رجل متزوج في التليفون. واستدعت زوجها فقالت لها صفية: سمعت أنك ستعقد اجتماعًا للوفد في بيتك! هذا الاجتماع يجب أن يعقد في بيت سعد.

قال علي باشا شعراوي: كيف نعقد الاجتماع في بيت سعد باشا، وهو غير موجود.

قالت صفية: إنه موجود! وسوف يكون موجودًا ولو قتله الإنجليز! إن هذا ليس بيت سعد، إنه بيت الأمة، إنه قلعة الثورة. كيف تستسلم القلعة لأن قائد الجيش أسره العدو، يجب أن تبقى القلعة وتقاوم.

فقال لها علي شعراوي باشا: لك حق.. سنجئ ونعقد الاجتماع في بيت سعد باشا، ولكني أحب أن أحذرك، فقد تتعرضين للمتاعب نتيجة لهذا

قالت صفية: بعد أن أخذوه لم تعد لحياتي قيمة! قيمة حياتي وهو هنا!

وأمرت صفية بفتح أبواب البيت، وتخصيص كل غرفة للثورة، واحتفظت بثلاث غرف. غرفة لها وغرفة لرتيبة وولديها، وغرفة لسعد زغلول، وخصصت كل غرف الدار وصالوناتها وحديقتها لمكاتب الثوار!

وكتبت السيدة سيزا نبراوي التي عاصرت الثورة في مذكراتها، التي نشرتها في مجلة المصور في ٧ مارس سنة **١٩٦٩** تقول:

"لقد تعرف العالم على المرأة المصرية كإنسانة، وكرائدة منذ ثورة **١٩**، وأذكر موقف السيدة صفية زغلول زوجة سعد زغلول، حينما نفى زوجها ومنعها الإنجليز من اصطحابه إلى المنفى. وكان لهذا المنع أثر في تذكية

الثورة في النفوس المصرية. وهذه نبذة من بيانها الذي أذاعته على الشعب بعد نفي سعد".

أبناء وطني:

[لما رأيتهم يطوفون بالبيت، ويملأون الحديقة، وينتزعون سعدًا، كان أول شعور قام في نفسي أن اتبعه خطوة فخطوة، أينما شاءت القوة أن تذهب به. فلما رأيتكم تقتلون من أجله، تحول إليكم فجأة كل حبي. وإحساسي وشعرت من أعماق قلبي، بأني غير مستطيعة أن أترككم في مثل هذا الوقت العصيب. وبأن واجبي أن أقاسمكم حظًا شاءته الأقدار لكم. ولئن كانت خدمتي لسعد لأزمة، وهو محتاج إليها الآن حاجة قصوى. فأنا أعلم أنه عن مسلكي راضٍ. وبهذه التضحية مغتبط؛ لأنه ضحّى من أجل الوطن بكل شيء. بسكينة وارتياح. أبنائي البررة! لقد أثبتم أنكم مستعدون لبذل دمائكم فداءً للوطن، حتى لو لم يكن في ذلك البذل إلا أن تثبتوا للعدو أنكم بواسل، تفضّلون الموت على أن تعيشوا عبيدًا أذلاء].

وكان لهذا البيان فعل السحر في الشعب المصري، فأرسل لورد اللنبي إلى وزارة الخارجية البريطانية، يقول: مدام زغلول باشا نشرت بيانًا من نار، هذه المرأة أقوى من ألف رجل. أرى أن وجودها في مصر خطر، أرى السماح لها بالسفر مع زوجها.

ولقد اعتقل زوجها "زغلول باشا" للمرة الثانية في ديسمبر سنة ١٩٢١، بعدها رفض أن يعتكف في عزبته وشهدت "صفية هانم" اعتقاله، وظلت هادئة ساكنة حتى غادر زوجها البيت. وخيرت– أي صفية– بين

أن تصحب زوجها أو أن تبقى، وكان عليها أن تحسم هذا السؤال الخطير، ولكنها بعد تفكير عميق قررت أن تبقى، وأن تتم الرسالة التي تركها زوجها، لأنه إذا كانت حاجة زوجها إليها شديدة فإن حاجة مصر أشد.

وكما قالت صفية: إن سعدًا سجين في "سيشل" ولكنني هنا، روحه الثانية وزوجته التي تصون مكانه.

ولقد كان ردها على دار المندوب السامى قاسيًا تاريخيًا، فقد أمسكت بالتليفون وقالت للمتحدث، حينما أخبرها أنها تستطيع اصطحاب زوجها:

أخبر سعادة المندوب السامي أنني سأظل في القاهرة، وسأعمل كل ما في وسعي لأتم عمل زوجي، وأنتم تستطيعون أن تنفوا جسم سعد، ولكنكم لا تستطيعون أن تنفوا روحه؛ لأنها تعيش وستظل تعيش وفي بيته، وأنا سأكون "سعدًا" حتى يعود، وهو سيعود لأن الشعب لن يسمح بغيابه، ولن يمكنكم من إبعاده طويلًا. وحتى لو مات "سعد" فسيأتي كثيرون غيره، وسيتقدمون الصفوف، وسأفعل كل ما استطيع لإشعال روح الثورة في سبيل استقلال مصر. وبعد ساعات قليلة من اعتقال أعضاء الوفد، قام البوليس بتفتيش "بيت الأمة"! كان سعد زغلول زعيم الوفد والأمة خارج بيت الأمة، كان خارج مصر كلها! كان البوليس أول من يعلم أن صاحب البيت غائبًا من البيت، ومع ذلك وصلت قوات البوليس إلى بيت سعد زغلول!!

لم تكن صفية زغلول وحدها في بيت الأمة، بل كان معها ويقف إلى جوارها زملاء وأصدقاء وخلصاء زوجها سعد زغلول باشا. كان واحدًا من هؤلاء سعد فخري عبد النور، الذي شاهد ما جرى ورواه في مذكراته.

يقول:كانت صاحبة العصمة أم المصريين موجودة، وكنا بجوارها، فأراد الضابط أخذ أوراق من شكمجية، كانت أم المصريين تحتفظ بها فمنعته من ذلك.

وقالت إن هذه الأوراق هي خطابات من والدي مصطفى فهمي باشا، رئيس الوزراء ومن زوجي إليّ، إلا أن الضابط أصرّ على أخذها!! فأصرّت أم المصريين على منعه من ذلك!!

فأتصل الضابط تليفونيًا بمستر"أبلت" مساعد الحكمدار، وأبلغه ما حصل فطلب منه أن يتركها ما دامت أم المصريين، تقول أنها خطابات من والدها ومن زوجها إليها!

فخجل الضابط– وكان مأمور قسم السيدة زينب– من موقفه وانصرف.

ولم تكن صفية زغلول كاذبة فيما قالته للضابط الإنجليزى بشأن الخطابات الخاصة، التي كانت تحتفظ بها! كانت هذه الخطابات بالفعل، هي خطابات غرامية وعاطفية، كان يكتبها لها زوجها الزعيم سعد زغلول!

لم يصدق أحد أن داخل هذا الصندوق، تحتفظ السيدة صفية زغلول بأجمل وأعذب وأرق خطابات غرام، كتبها سعد زعلول لها، واعتقد أن بداخله منشورات الثورة أو على الأقل أسماء لها علاقة بالثورة!!

ولكن صفية زغلول كانت صادقة، وهي تحتضن هذا الصندوق وتصرخ في وجه الضابط، وكان الشر يتطاير من عينيها قائلة:

لن أدعكم تمسون هذا الصندوق!! لقد تركتكم تلوثون غرفة نومي بأقدامكم، لكني لن أسمح لكم بأن تلوثوا بأيديكم هذا الصندوق، إن فيه

خطابات زوجي لي، ولن أسمح ليدٍ أن تمتد إليها وأنا على قيد الحياة.

ويعترف الكاتب الكبير مصطفى أمين، بأن صفية زغلول كانت تقول إن زوجها تعوّد أن يكتب لها خطابات غرامية في كل مرة، يتناول فيها طعامه خارج البيت! وكان يحرص دائمًا على أن يعوضها عن غيابه عنها، بكلمات رقيقة تنبض بالدفء والحب والحنان!!

واستمر سعد زغلول يكتب لـ صفية خطابات الغرام إلى ما بعد سن الستين، فقد كان يؤمن بأن العمر لا يمكن أن يطفئ الحب. ولم تلبث صفية زغلول أن اتخذت قرارًا غريبًا ومدهشًا ومحيرًا، بشأن كل هذه الخطابات العذبة الرقيقة!!

لقد قررت أن تحرقها وتتخلص منها إلى الأبد! ويعترف جورج خياط بك، وهو واحد من الأعضاء السبعة للوفد، الذين حكم عليهم الإنجليز بالإعدام وهو مسيحي، أنه بدأ ينهار بسبب حالته الصحية في السجن. وأن محاميه زاره ونصحه بأن يكتب استرحامًا للقائد العام البريطاني، يطلب العفو، وإذا بصفية زغلول تعلم بالأمر، فتطلب من والد التوأمين "مُحَمَّد أمين يوسف" أن يضع خطة للوصول إلى جورج خياط في سجنه. وتضع فكرة أول علم من تصميهما وتنفذه "الهلال والصليب متعانقان فوق علم مصر الأخضر"، وصنعته من الحرير وقالت لمحمد أمين: صنعه على صدر جورج خياط وبلغه مني سلامي، ويصل العلم لجورج خياط فإذا بالرجل المريض. اليأس يصيح في زنزانته قائدًا لمظاهرة من داخل السجن! "نموت.. نموت وتحيا مصر". وفي اليوم التالي رفض مقابلة محاميه!

ولم يلبث أن أصبح هذا العلم، هو العلم الوحيد الذي ترفعه كل المظاهرات في الثورة.

في ٢٣ أغسطس ١٩٢٧. فتح "سعد" عينيه فأرادت صفية أن تطمئن عليه فقالت له: أنت أحسن الآن!

قال سعد: لا.. ما فيش فايدة..!! وسلم روحه لبارئها.

وهكذا عرفت القاهرة نبأ وفاة "سعد"!!

وكانت "أم كلثوم" تغني في ملهى البوسفور أمام محطة مصر، وفوجئت بالمتفرجين يتسللون واحدًا وراء واحد، وتركوا الصالة خالية، وتلفتت حولها فوجدت الموسيقيين توقفوا عن العزف، ولم يبق إلا الموسيقار "مُحَمَّد القصبجي" بجوارها مستمرًا في العزف، وتوقفت "أم كلثوم" عن الغناء وسألته ماذا حدث؟! قال القصبجي: مات سعد؟! وماتت– كما يقول مصطفى أمين– الأغنية على شفتي أم كلثوم، وانهارت على مقعد جالسة، وبعد ذلك وضع لها الشاعر "أحمد رامي" أنشودة أنا انتهيت، فأبدأوا جميعًا وقد وزعت شركة جرامفون منها نصف مليون اسطوانة! وبعد ظهر اليوم التالي ٢٤ أغسطس ١٩٢٧، شُيعت جنازة سعد زغلول في موكب مهيب، لم يحدث أن شاهدت مصر مثله في تاريخها كله!!

وابتداء من ذلك التاريخ، وحسب ما يقول "هندرسون" القائم بأعمال المندوب السامي البريطاني، فقد طويت صفحة جديدة من تاريخ مصر لوفاة سعد زغلول!! مضى الرجل كشمعة احترقت، وليس هناك من يمكن أن يخلف "سعد زغلول"، ويملأ مكانه في زعامة حزب الوفد، أو في رئاسة

مجلس النواب، وسيظل الموقف السياسي يغلي فترة من الوقت! كانت مصر كلها حزيينة، لكن حزن "صفية زغلول" كان لا حدود ولا نهاية له!!

بعد سنوات طويلة روى "مصطفى أمين" في كتابه "من عشرة لعشرين"، قصة الرثاء الذي اعتبره "أول نصر صحفي في حياته"! هذا النصر الذي قرأه كل مصري في نفس يوم، نشره ولم تقرأه "أم المصريين"، إلا بعد حوالي أربعين يومًا من نشره!

في نفس يوم الوفاة دخل مصطفى، وشقيقه التوأم علي إلى غرفة نوم سعد، وسمعا صفية تبكي، وتقول لجثمان سعد الراقد على السرير كلمات دامية، كل كلمة تنزف دموعًا!! وعندما سمع "مصطفى" هذا الكلمات، أحس أن هذا الكلام يجب أن يسمعه الناس. وجلس وكتبه على شكل مقال قال فيه على لسان "صفية زغلول":

"ألومك وأعتب عليك!! كثيرًا ما نهيتك عن العمل والكتابة إشفاقًا على نفسي وعليك، ولكنك كنت تكتب وتعمل وتجاهد وتكافح حتى آخر لحظة، وكنت تجيبني: أنا مسئول وورائي ناس!!".

ألم يكتب لك وأنت في مرضك الأخير، صاحب حاجة فاضطررت أن تتحامل على نفسك وترد عليه؟! ما كان أغناني وأغناك عن هذا الذي قضيت به على نفسك! وما أشد عتبي الآن عليك، ووجيعتي لإصرارك على العمل رغم نصيحة الأطباء!!

يا لمصابي.. لقد قضينا ثلاثين سنة كنت فيها البر كله، لم أسمع خلالها منك كلمة سوء أذكرك بها اليوم. بلغ من برك بي أن كنت تكتم عني ما

يكدر، حرصًا على إحساسي.. فلا أعرفه إلا بعد انقضاء أمره. ثم كان لي مجدك.. وكان لي عزل.. رفعني الناس برفعتك وفضلك، ومحبتهم إيّاك ومحبتك إيّاهم. وكم تمنيت أن يكون لنا ابن يطالعنا ونطالعه؟! فكان جوابك أنه ليس لك ابن، ولكن لك أربعة عشر مليونًا من الأبناء. ولبكاء هؤلاء الأبناء اليوم عليك، أنا أشد جزعًا وأحر بكاءً، ما أشد شفقتي عليهم وبلواى بحزنهم.

وها أنت تتركني وتترك أبناءك، ولا تترك من ورائك وصيةً لي ولا لهم، ولم تكلم في شأننا أحدًا، فهل أعتب عليك لهذا أيضًا؟!

كنت تكره النحيب حتى منعته لما مات ابننا "بالتبني" سعيد زغلول، ولما تأثرت أخته قلت لها بلسانك: "إني أتفقت وإيّاكِ أينا سبق به الموت صاحبه، أن يكظم حزنه؛ لأن سعيد كان حاله كحال ابننا، فإذا مات سعيد نفسه فلنكظم حزننا إبقاءً على رضانا بحكمة الله في ذلك". وأشد ما يحزنني أن ألبس عليك السواد، وقد كنت تكرهه، ولكن مالي إلى ذلك من بد، وليس أمره في يدي..

إننى أعدك يا سعد أنني سأصنع ما بقيت أيامي، ما صنعت أنت طوال أيامك، فلك مني آخر نقطة من دمي.

كان هذا هو المقال الذي كتبه "مصطفى أمين" على لسان "صفية زغلول"، وعندما نزل إلى السلاملك، رأى أمامه "مُحَمَّد حسنين هيكل" رئيس تحرير جريدة السياسة فأعطاه المقال.

قرأ هيكل باشا المقال وأعجب به، وقام بإجراء تصحيحات لبعض

عباراته، ثم قام بنشره في جريدة السياسة في ٢٧ أغسطس ١٩٢٧ بعنوان "في غرفة الموت".

وعاشت صفية زغلول عشرين عامًا بعد وفاة سعد، ودفن سعد في أول الأمر في قبرٍ في حي الإمام الشافعي، ومكثت صفية زغلول تقطع يوميًا هذه المسافة لمدة تسع سنوات، إلى أن قام برلمان منتخب انتخابًا حرًا، وأصرّ على نقل جثمان سعد من قبره من الإمام الشافعي إلى ضريحه أمام بيت الأمة، وأُقيمت له جنازة شعبية ثانية في عام ١٩٢٦ لا تقل روعة ولا ضخامة عن جنازته الأولى عام ١٩٢٧.

واقترح أحد الوزراء تخليد ذكرى سعد باشا زغلول، وقرر المثال "محمود مختار" أن يتولى أمر هذا التخليد، بصنع تمثالين لسعد باشا. وتحمست الأرملة الثكلى صفية زغلول لذلك، فقد كانت غرفة نوم صفية تطل على الضريح، وكانت إذا استيقظت من نومها، اتجهت أول ما تفتح عينيها إلى نافذتها التي تطل على الضريح، وتقرأ الفاتحة على روح الرجل الذي أحبته منذ رأته لأول مرة ليلة فرحها!

وبعد الظهر ترتدي ملابسها وتذهب إلى القبر، وتنثر عليه الزهور والرياحين، وتقف خاشعة أمام القبر عشر دقائق، وكأنها تناجي رجلها بصوت لا يسمعه إلا هي وهو! وعندما أرسل القرار بتخليد سعد زغلول؛ إي الملك فؤاد، وكان وقتها في أوروبا ليوقعه، هاج الملك وماج واستدعى رئيس الوزراء ثروت باشا إلى "فيشي" وقال له: كيف يقام لرجل من الرعية تمثالًا، وأبي إسماعيل ليس له تمثال واحد؟! وبحث الملك عن اسم الوزير

الذي اقترح ذلك التخليد، وعلم أنه "أحمد زكي أبو السعود"، وقرر الملك ألا يدخل الرجل الوزارة مرة أخرى، كما قرر أن يوضع تمثالا سعد زغلول في مخازن وزارة الأشغال.

وتوفي الملك فؤاد، وفوجئت صفية زغلول بشابة متحجبة ترتدي ملابس سوداء، عرفتها بنفسها أنها "فتحية أبو أصبع"، وصيفة الملكة نازلي. وتذكرت صفية هذا الوجه الذي حضر لمقابلة زوجها سعد زغلول، عقب قتل السردار الإنجليزى، وكان معها رسالة وأيضًا من الملكة "نازلي". ولم يصدق "سعد" يومها رسالة الملكة، ولم يتصور أن الملك فؤاد يمكن أن يتفق مع المندوب السامي البريطاني بالنيابة على قتله أدبيًا، وعلى تلفيق التهم له وعلى تزوير الانتخابات!!

وفي ذلك الوقت تصور "سعد زغلول"، أن الملكة نازلي تشاجرت مع الملك فؤاد لمسألة شخصية، فأرادت أن تنتقم من زوجها بالاتصال بعدوه!!

وقال سعد لـ صفية إنه لا يتصور أن الملك يهدد نازلي بالطلاق، لأنها نصحته نصيحة في مصلحته، وكان رأيه أنها تتهم رئيس الديوان الملكي بالنيابة، بتدبير المقابلات الغرامية للملك! ولكن وقع كل ما قالته الملكة نازلي، واضطر سعد للاستقالة من رئاسة الوزراء؟!

فلم يثق سعد في نازلي بعد أن تركت ابن أخته "سعيد زغلول"، وتزوجت الملك فؤاد! ولكن صفية زغلول كانت تعذرها، ولا تستطيع أن تنسى أنها ربتها ولها غلاوة عندها، فهي بمثابة ابنتها، وقالت "فتحية أبو اصبع": الملكة تبشرك سيفرج عن تمثالا سعد قريبًا. وسيقوم ابنها الملك

فاروق بنفسه بإزاحة الستار عنهما!!

وسرحت صفية زغلول في قصة "الملكة نازلي"، تلك الفتاة رشيقة القوام صاحبة البشرة البيضاء كاللبن الحليب، والشعر الذي يسدل على الكتفين، ويصل لخصرها أسود كالليل. وكيف أرسل الملك فؤاد إلى سعد زغلول يطلب إليه إرسال زوجته "صفية زغلول" إلى قصر عابدين، كوصيفة بالقصر ذلك بعد طلاقه للأميرة شويكار، فثار سعد زغلول واشتاط غضبًا، وقال لرسول الملك: "قل للسلطان فؤاد إن سعدًا ينصحك أن تتزوج فورًا"، فهذه العبارة التي خرجت من فم سعد زغلول، غيرت مجرى الأحداث وترتيبات زواج سعيد زغلول من نازلي!

ومما يؤسف له في هذا الصدد، أن فكرة وعبارة سعد زغلول لاقت استحسانًا من جانب الملك فؤاد، وبدأ البحث عن زوجة تنجب له ولي العهد، خاصةً أن ابن الملك فؤاد من الأميرة "شويكار"، قد تُوفي بعد ٧ شهور من ولادته، وكان اسمه "إسماعيل"، مما أضاع أمله في أن يكون له وريث، يرث العز والجاه والملك وسطوته! أما كيف تعرف عليها، وكيف تم ترشيحها للزواج من الملك، فقد كانت– كما أسلفنا– جميلة الجميلات، كأنها ملكة تنتظر الملك الفارس، وكانت الـ "ليدي جراهام" زوجة السكرتير الأول للمقر البريطاني، تعرفها جيدًا وتعرف والدتها، لكن نازلي رفضت الزواج في البداية، فأصرّ الملك على طلبه، وفي هذا الأثناء أراد "سعيد" الفوز بمحبوبته نازلي، ففاتح زوجة أخيه "صفية زغلول" في شأن تعجيل خطبته علي نازلي، الأمر الذي جعل سعد زغلول، يتقدم لطلبها من والدها لخطبتها لأخيه سعيد زغلول، لكن عبد الرحيم باشا صبري تلعثم

وتردد وأجاب إجابة مبهمة! وحين يكون الصراع على قلب امرأة بين السلطان أحمد فؤاد، وسعيد زغلول "موظف القصر الملكي"، فالفائز بالطبع سيكون سلطان البلاد!! المطلق البالغ من العمر ٥٠ عامًا، صاحب الأمر والنهي، وصاحب الخليلات الإيطاليات واليهوديات!

وفتحت صفية النافذة، وأطلت على الضريح

وقالت: إن قلبي يصدق نازلي.. يا سعد!!

وبالفعل رأى الملك فاروق أن يصالح شعبه، ويعتذر عن موقف أبيه من تخليد سعد زغلول، ويزيح الستار بنفسه عن التمثال، الأول لسعد زغلول في الإسكندرية، وكان ذلك عام ١٩٣٨.

ودعا الملك صفية زغلول لحضور الاحتفال، وقبلت أم المصريين الدعوة، ولكن قبل الحفل علمت أنها لن تجلس عن يمين الملك. كما جرت العادة في أوروبا عند إزاحة الستار عن تماثيل العظماء، بل إنه سيخصص مكان للحريم تجلس هي فيه! ورفضت صفية أن تجلس في الحريم، وقالت إن ثورة سعد قامت لإلغاء الحريم، وجلوسها في الحريم، هو إهانة لمبادئ سعد الذي يحتفلون بإزاحة الستار عن تمثاله! وأبلغ مُحَمَّد محمود باشا الملك أن صفية زغلول ترفض حضور هذا الاحتفال.

وأوفد الملك فاروق إلى رئيس الوزراء مُحَمَّد محمود باشا، علي ماهر باشا رئيس الديوان الملكي، يقول له أن الملك لا يستطيع أن يجلس بجواره سيدة في احتفال رسمي؛ لأن ذلك سيثير رجال الأزهر والبلاد الإسلامية!

وقالت صفية زغلول:

- قولوا لجلالة الملك.. إنه يشرفه كثيرًا أن يجلس إلى جوارب، ولا يشرفني كثيرًا أن أجلس إلى جواره.

فقيل لصفية أن إصرارها على رفض حضور الاحتفال الملكي بإزاحة الستار عن تمثال سعد، قد يؤدي إلى غضب الملك، وعدوله عن حضور الاحتفال.

قالت صفية: إن سعد زغلول دخل التاريخ من باب الشعب، ولا يهمه أن يدخله من الباب الملكي.

وأخفى علي ماهر باشا رئيس الديوان الملكي عن الملك رسالة صفية زغلول العنيفة الموجهة إلى الملك، حتى لا يثير غضبة!

وحضر الملك فاروق الاحتفال، وراح يتلفت حوله، فوجد مقعدها خاليًا في المكان المخصص للحريم.

والتفت الملك إلى رئيس الوزراء، وقال له:

إن رأس صفية هانم ناشف مثل رأس زوجها! كان أبي يقول إن رأس سعد كان "انشف" رأس في المملكة! ورفع الملك رأسه. ونظر إلى رأس التمثال المصنوع من الجرانيت!

وكأنه كان يقارن بين صلابة التمثال وصلابة الرجال! وسقطت حكومات، وتألفت حكومات، وقامت دول وهوت دول، وانهارت عروش وتوالى حكام، وبقى التمثالان، بضعة أحجار من الجرانيت صمدت لكل معاول الطغاة والمستبدين!

نازلي .. أو الرومانسية تخلع ملابسها

وقالت الملكة نازلي:"عندما تزوجت كنت ألد فقط، كنت أمًا لأطفال فؤاد؟ ولم تدخل المشاعر هذا العقد الاجتماعي الذي ربطنا".

وضعت نازلي بعد فاروق في القفص الذهبي لدرجة أن وصيفات القصر "مدام قطاوي – ومس تايلور"، كانت لهما كلمة عليا في القصر وعليها، وقد استطاعت الملكة نازلي في هذه العزلة أن تتجه إلى المنجم، والسحر إن ذلك هو سلاحها الخفي، الذي تستطيع أن تعيش به في قصر عابدين، فقد كانت تعتقد تمامًا في معرفة الغيب عن طريق أوراق الكوتشينة، وأحشاء الحمام، حتى أنه حينما تزوج ابنها فاروق فيما بعد بالملكة فريدة، كانت الملكة الصغيرة "فريدة" تستيقظ، فتجد في فراشها عظامًا ملوثة بالدماء والشعر، كانت الملكة نازلي تضعها لها كتعويذة لتأتي "بالولد" للملك فاروق. وليس أمامنا _ للحديث _ إلا استرجاع الروايات الموثقة عن الملكة نازلي في هذه المرحلة "مرحلة الحرملك والقيود والغيرة الملكية أسرار القصور"؛ فلقد قررت "آني نوير" وهي إحدى المربيات التي كان يدعوها فاروق بنليزي، في مذكراتها "إن معرفتي بذكاء نازلي وقدرتها على السيطرة، جعلت الملك فؤاد يسحب منها حقوقها كأم، وإن كانت قد استطاعت أن تنفذ إلى بناتها، فإنها لم تستطع ذلك بالنسبة لتنشئة فاروق، فقد كان الملك يعده إعدادًا خاصًا ليتولى العرش من بعده، حتى

أنه قد سلمه لي، وقد لاحظت أنه كان يجري ليقبلني أولًا، إذا ما كان له الخيار بيني وبين والدته، ولأن ذلك قد تكرر منه فقد سألته نازلي ذات مرة.

– لماذا لا تقبلني أولًا .. أجاب الأمير أمه، وهو محاط بيدي:

– لأنك تضعين الكثير من طلاء الشفاء؟!

ولم يقتصر ما فعله الملك فؤاد مع نازلي على تحديد مدة ساعة واحدة، لترى ابنها فيها مقسمة على فترتين، ولكنه كان يراقب مكالماتها التليفونية لشكه فيها، كما أسلفنا، وكثيرًا ما كشف تنصته بمحض الصدفة حتى ازداد ازدراء نازلي له، وتحول فيما بعد _ وبخاصة حينما مات_ إلى حب السيطرة المبالغ فيه"! ولعل القارئ يلاحظ مكانة نازلي في هذا الوقت من استخدام المربية لاسم نازلي غير مسبوق "بالملكة"، أو بأي احترام مع أنها لم تكن تستطيع أن تذكر اسم فؤاد، إلا مسبوقًا بالملك واسم فاروق مسبوقًا بالأمير، ومن ملاحظة عبارة فاروق "لأنك تضعين الكثير من طلاء الشفاه"، ما يوضح أن طبيعة نازلي الحقيقية ضد كل هذه القيود، وأن فاروق قد نشأ على شكل من التربية الإنجليزية الصارمة. أما ما سجلته "جيردا سجودبرج" وهي إحدى المربيات _ سويدية الأصل _ من انطباع في مذكراتها التي نشرت كسلسلة في الصحف السويدية بعد عام **١٩٥٢**، فقد قالت "إن الملكة نازلي في غاية الضيق والملل لأنها وحيدة مع خادمتها وحراسها، عدا الزيارات المختصرة الرسمية من أطفالها، فلم يكن مسموحًا لها أن تجلس في الحديقة، وتقريبًا لا ترى زوجها أبدًا!..

- كل ما تفعله أن تبدل ثيابها، حيث كان لديها كم هائل منها"!

وقد قررت "جيردا": "إن الحدث الرئيسي في حياتها، أن تنتقل من قصر رأس التين إلى قصر المنتزه في الصيف، أو أن تعود في القطار من الإسكندرية إلى القاهرة !! "وتستغرب جيردا" إنه حتى عند عودتها إلى القاهرة من الإسكندرية في شهر أكتوبر، كانت هي والملك يركبان قطارين منفصلين: قطار ملكي، وقطار للملكة، أما الأمير فاروق فله عربة خاصة في قطار نازلي، إلا أنها لاحظت أنه على الرغم من أن نازلي، تغطي وجهها بحجاب، وتحميها مظلة قائد حراسها السوداء، إلا أنك تدرك _حين تراها_ أنها غارقة في مجوهراتها، وتشعر أنها تتباهى بذلك فإذا وصلت للمحطة، وسمعت السلام الوطني، ورأت الناس في هذه الحالة، تعلو قامتها وتنتشي، وكأنها تتنفس الصعداء! وكنت أدرك في هذه اللحظة فقط أنها ملكة"!

وتكرر "جيردا" أنها لم ترها تقف أمام الملك فؤاد بصلابة، إلا حينما قرر الملك أن يرسل فاروق إلى الأكاديمية العسكرية ببريطانيا، "بولويش" فقد كررت له أكثر من مرة أن ابنها ليس مستعدًا؛ لأن يترك المنزل، ولكن _كالمعتاد_ لم يكن لاعتراض نازلي أي وزن!!

والذي لم تعرفه "جيردا" أن العرافين قد قرروا لها أن هذا السفر شؤم على القصر، وأنه سيقلب كرسي الحكم رأسًا على عقب، ولم تكن تدري أن هذه النبؤة تعني موت فؤاد، إنما اتجه كل تفكيرها كأم إلى سلامة ابنها فاروق.

ولما كان صيف ١٩٣٦ كان هذا ميلادًا لامرأة أخرى، اسمها نازلي ذات إرادة حديدية تجري وراء ما تريد دون أن تقهر، لقد ودعت شخصية ملكة البجع في القصص الخرافية! فبمجرد أن مات الملك فؤاد في أبريل من ذلك العام ١٩٣٦، فَصلت "مس تايلور" فورًا، ورَحلت المربية اليهودية "مدام يوسف قطاوي"، وبَدأت تعد العدة لأن يعود فاروق من دراسته العسكرية بإنجلترا، وأظهرت وعيًا سياسيًا غريبًا حينما دعت وكيل وزارة الخارجية، وشريف صبري باشا شقيقها إلى قصر الدوبارة، وقالت عبارة مروعة: لقد بلغني أن الإنجليز يسعون لأن يضعوا رئيس مجلس الوصاية الأمير مُحَّد علي، على العرش بدلًا من فاروق، وكان الأمير مُحَّد علي في ذلك الوقت يبلغ التسعين، وإن إنجلترا ترى أن رجلًا مسنًا هو أفضل للعرش. وكان شيئًا غريبًا أن تصل هذه المعلومة لنازلي، ولا يعرفها وكيل وزارة الخارجية، بل إنها قررت إرسال برقية إلى فاروق للعودة إلى الوطن، وأشارت إلى مجموعة من المعاني يجب أن تكون في البرقية منها: أن تطلب الحكومة المصرية رسميًا من السلطات البريطانية إعادة وريث العرش، وأن يكون ذلك بطريق الجو، إلا أن مدرسه في ذلك الوقت والذي كان يرافقه في رحلته الفريق عزيز المصري باشا، وجد أنه من الأمن أن يكون حضور فاروق بالبحر. وأرسلت إنجلترا بارجة حربية لحمايته حتى وصل إلى المياه الإقليمية المصرية، تأكيدًا لحسن نواياها، وقد يكون هذا الإجراء السريع هو السبب في تولي فاروق العرش. فقد كان هناك رأي بأن يترك لدراسته حتى ينضج كملك للبلاد، ويترك الأمر للأمير مُحَّد علي توفيق، وبخاصة أنه كان وقتها يبلغ من العمر التسعين، وبالتالي فمدة بقائه في الحكم قصيرة،

ولو حدث ذلك لما تولى فاروق الحكم أبدًا، فقد عاش محمد علي توفيق حتى قيام الثورة، وفر بعد ذلك إلى السويد مع زوجته الجميلة الراقصة الفرنسية إيليس إيموند عند قيامها!

ثم استغلت نازلي بعد ذلك جهودها، وصداقاتها في تثبيت ابنها على العرش، حين أقنعت وزارة النحاس بالاستغناء عن مجلس الوصاية، وحساب عمر فاروق على أساس السنة الهجرية وليست الميلادية، كي يصبح ملكًا دستوريًا! لقد خرجت نازلي من الحرملك بلا رجعة لأنها ببساطة فجرت خلفها الحرملك.

ثم إنه فيما بعد حينما تعقدت الأمور بينها وبين الملكة فريدة، استطاعت أن تستخدم كل أنواع الحيل، لتحدث موقفًا غريبًا في الدستور المصري، الذي لا يتضمن أي نص يتعلق بالملكة الأم، بل ويعتبرها ملكة سابقة.. وإذا كانت الملكات قبلها كن يشعرن بالسعادة، باتخاذ مقعد خلفي في حياة ابنهن الملك، فإن هذا لم يكن أسلوب نازلي، حيث استطاعت أن تعدل الدستور المصري، وسجلت فيه وجود ملكة ثانية بالإضافة إلى الملكة الزوجة، هي "الملكة الأم" التي احتفظت بكل الامتيازات الملكية، وبدا أنها احتلت مركزًا مسيطرًا داخل الأسرة المالكة! حتى إن الملكة نازلي كانت تقيم بقصر عابدين، وفي جناح خاص وسيط بين جناح الملكة فريدة "الملكة الزوجة"، وجناح الملك فاروق "الحاكم"؟! وقد قال عن هذه المرحلة "عادل ثابت" في كتاب له "، وهكذا فإن زوجة فاروق كان يجب بشكل طبيعي أن تأتي قبل أمه، غير أن قوة الملكة نازلي وشخصيتها جعلت _في الواقع– من المستحيل على الملكة فريدة أن تسيطر على أي مجتمع، أو جماعة تكون

حماتها موجودة فيها!! وكانت الملكة نازلي بالتأكيد هي أجمل الملكتين، وكانت ترتدي عادة ثيابًا أفضل من فريدة، كما أنها أطول قامة وأكثر رشاقة، ومن ثم فإنها كانت قادرة بمجرد وجودها، أن تظهر سيطرة كانت تثير استياء المرأة الأصغر سنًا.. فريدة"!!

أما ما يقوله البعض من أن نازلي _ بمجرد أن مات الملك فؤاد _ انغمست في مغامراتها الخاصة وشرب الشمبانيا، وجعلت تضرب بكعوبها الأرض راقصة في البارات، فهو أمر محل للنظر، وبخاصة بعد أن أثبت التاريخ وجود ورقة بزواج عرفي في الخزانة الخاصة، لرئيس الديوان الملكي أحمد حسنين باشا، بعد وفاته إثر حادث سيارة مشكوك في قدريته عند كوبري قصر النيل سنة ١٩٤٦، حيث ورد في هذه الورقة صيغة زواج عُرفي بينه وبين الملكة نازلي موقع بتاريخ ١٩٣٨، أي في تاريخ مقارب لتولي فاروق الحكم. الأمر الذي يجعلنا نؤكد أن هناك فترتين في حياة الملكة نازلي الأولى من عام ١٩٣٨ لعام ١٩٤٦، وهذه الفترة استمتعت فيها بحريتها دون أن يكون لها علاقات خاصة، أما الفترة الثانية وهي من سنة ١٩٤٦، وحتى وفاتها وقد فقدت فيها السيطرة على نفسها، ودخلت في علاقات شائنة وغريبة، يمكن أن تمتد إلى كل العلاقات الخاصة التي تحدث عنها كل الكتاب. والأمر الذي يجعلنا نؤكد ذلك، ما قرره "إدوارد فورد" المعلم، الذي اختارته إنجلترا في القصر حتى يستطيع فاروق أن يكمل تعليمه، وهو من خريجي جامعات أكسفورد، حيث قرر أنه قد لاحظ أن أحمد حسنين يتبع الملكة، حيثما ذهبت في القصر ككلبها الأليف، وأنه في لحظات مرحه جلس بجوار الملكة نازلي التي سألته سؤالًا مباغتًا:

– "سيد فورد، هل تعتقد أنني سأعرف كيف أحب أي رجل؟!

– فأجاب فورد: أتمنى ذلك.. ثم عقب فورد في مذكراته:

"انسحبت سريعًا إلى غرفتي، وكانت الإجابة الحقيقية لسؤال نازلي على لساني أن أقول لها هو حسنين! وليس كلام فورد بالكلام الهين، فهو معلم الملك والذي لم يستمتع بفترة وجوده في القصر، والذي كرر لفاروق "أن النقطة الرئيسية في فشله، هي عدم محافظته على الوقت ومحاولاته للبلف والفهلوة، وهي تعتبر حماقة لا يجوز التسلح بها أثناء التعليم". وهو الذي كتب في تقريره للامبسون الإنجليزي، والمندوب السامي وقتها: "إن فاروق لم ينجح معي إلا في اللغات!!"

المتتبع لسيرة الملكة نازلي في الفترة السابقة على عام ١٩٤٦، يجد أن هناك صراعًا كان يدور بينها وبين كل امرأة تقترب من أحمد حسنين، أي أنها كانت تحبه ومشغولة به، واستخدمت كل قوتها في ذلك، فهناك مغامراتها ضد أسمهان حينما أرادت أن تستخدم نفوذ أحمد حسنين، حتى تستطيع الاستمرار في الحياة في مصر، بل إنها ذهبت وراءها إلى القدس، وكانت بينهما فضيحة في فندق الملك داوود، وقد دبرت لها أسمهان مكيدة حينما صورتها ترقص مع الجنرالات الإنجليز، وهي شبه سكرانة. بل إن الكوميديان الكبير "نجيب الريحاني" قرر في مذكراته: "أن الملكة نازلي قد زارته في المسرح، وقالت وقتها ميمي شكيب لأحمد حسنين: "أنت رجل لا تقاوم، ولكن الملكة نازلي امرأة لا تعرف المستحيل"، ولم يكن أحمد حسنين عنيدًا في نزواته، فما أن تفضح نازلي مغامراته مع واحدة حتى ينتقل إلى

أخرى، وكانت آخر هذه المغامرات الإنجليزية التي دعاها إلى القاهرة، فاستطاعت نازلي أن تطردها من الفندق، وترحلها قبل أن تصل حقائبها إلى مصر! ومما أثار الشائعات والشكوك حول علاقة نازلي بأحمد حسنين ملازمة كل منهما للآخر خلال الرحلة الملكية لأوروبا في فبراير ١٩٣٧، خاصة أن أحمد حسنين رفض طلب زوجته "لطيفة" بمصاحبته أثناء هذه الرحلة، بحجة أن فاروق يرفض ذلك!! وقد صممت نازلي أن تغترف السعادة، التي حرمت منها في حياة الملك فؤاد الذي توفي في صيف عام ١٩٣٦. وقد تمادت أثناء تلك الرحلة في اللهو، ولو أنه كان لهوًا ملتزمًا بعض الشيء، وكانت تتأبط ذراع حسنين وذراع مدربيها في التزحلق على الجليد في السويد! وفي إحدى المرات التي التقطت لها صورة، في صالة التدريب على التزحلق في مدخل فندق "سوفريتا"، وهي تتثني وتتمايل وتضع يدها على كتف المدرب، وهو يضع يده على خصرها، ونشرت هذه الصورة في مصر مما أثار الشعب المصري، وخرج الشعب في مظاهرات تهتف بسقوط الملك والملكة، ومما قاله الشعب "من لا يحكم أمه لا يحكم أمة "، وعندما وصل الملكة نازلي ما حدث بمصر، ثارت ثورة عارمة قائلة "كفاية حرام كفاية ذل كفاية ظلم، ألا يكفي الشعب ما عشت فيه ذل، وظلم مدة ١٧ عامًا متواصلة من الكبت والإذلال، حرام أن يظلمني الشعب، فقد ظلمني الملك فؤاد كثيرًا"، لكن علاقتها بأحمد حسنين وجدت ما يبررها، حين رحل حسنين في حادث سيارة، قيل أنه مدبر من قبل الحرس الحديدي سنة ١٩٤٦، وقيل قتله الإنجليز؟ ولعل ما حدث للملكة نازلي بعد وفاة أحمد حسنين سنة ١٩٤٦، يمثل صدمة ارتدادية قلبتها تمامًا، ونقلت تصرفاتها

التي تتسم بالكبرياء، والشموخ مائة وثمانين درجة، لقد فقدت حبيبها في نفس الوقت، الذي تخلى عنها فاروق تمامًا، وأنكر كل تصرفاتها، فشعرت أنها قد فقدت كل من تحب "الابن والحبيب"، وإن كانت قد ظلت على تأثيرها واتصالها ببناتها؛ ففاروق – بعد ذلك – اتهم أمه كثيرًا ، ويذكر أنه وهو ملك قد دخل إليها في الحرملك، فوجد عندها أحمد حسنين ممسكًا بالمصحف، ويعلمه لها ولم يستطيع أن يواجه معلمه أحمد حسنين، ولكنه قال لأمه إن المصحف إذا دخل مع الرجال الحرملك فهذا يجعلني أشك، ولكن فاروق بكى بعد ذلك كثيرًا، عند حصوله على ورقة الزواج العرفي من خزانة أحمد حسنين، فقد فقد _ دون مبرر _ ثقته في أقرب الناس إليه، من أوجدته على العرش ومن حافظ له عليه حتى مات، وقد أوضح ذلك مصطفى أمين في كتابه "شخصيات لا تنسى"، كيف أن أحمد حسنين يسب الملك، ويوجهه فإذا خرج من عنده، ادعى أن الملك هو الذي يسبه ويوجهه، وكيف أن معظم الإصلاحات كانت من بنات أفكاره، ولكنه نسبها لفاروق!! فكم كان هذا الرجل مضحيًا وفدائيًا، وقد وجد فاروق في خزانة أحمد حسنين _ كما يقول مصطفى أمين _ خطابًا موجهًا إليه بمجموعة من النصائح، ويبدأها بعبارة "ولدي" كان المكتوب ترجمة لبعض أشعار الشاعر الإنجليزي، كبلنج كينج ويبدأ بعبارة :"إذا وثقت في نفسك حين يشك فيك الجميع، ومع ذلك سامحتهم؛ لأنهم شكوا فيك إذا استطعت أن تنتظر ولا تمل الانتظار، ولم تقابل أكاذيب الناس بالأكاذيب. إذا كرهك الناس فلم تكرههم – وإذا تظاهرت بأنك لست أحن الناس ولا أحكم الناس – إذا استطعت أن تحكم دون أن تسيطر عليك أحلامك،

وأن تفكر ولا تجعل التفكير هو كل أهدافك. إذا استطعت أن تتحدث إلى الشعب بغير أن تفقد فضائلك، وأن تصاحب الملوك بغير أن تفقد اتصالك بالشعب". والقصيدة طويلة جدًا.. وفيها كل الفضائل، وفي نهايتها هذه العبارة: إذا استطعت أن تفعل ذلك كله ملكت الأرض، ومن عليها وأصبحت أكثر من ذلك.. أصبحت رجلًا يا ولدي! ولم يكن لأحمد حسنين ولد، حتى يتمنى أن يصبح رجلًا، ولكنه تمنى ذلك لفاروق الذي رباه، واعتبره ابنه!! ولكن كثيرًا من الكتابات شوهته، واعتبرت أن هناك علاقة آثمة كانت بين حسنين ونازلي، حينما كان أحمد حسنين في بلاط الملك فؤاد. ليضيفوا إلى نازلي شائعة أخرى، وإن كان يكفيها ما حدث لها بعد عام ١٩٤٦، حينما دخلت في أكثر من علاقة، كان أشدها ما أشيع عن علاقتها بالشاب الأفندي القبطي "رياض غالي"، الذي زوجته فيما بعد لابنتها "فتحية"، وظهرت صورة لها في أمريكا ترتدي فستانًا مفتوح الظهر، وتتدلى فيها ماسات، بينما الشاب غالي يحيط خصرها بذراعه، وفي يده الأخرى ابنتها "فتحية". وهويعلن بوقاحة الاثنين لي نازلي وابنتها؟!

كانت "مارسيليا" هي محطة بداية تلك النهاية، ليس فقط بوصفها أول ميناء أوروبي يرسو عليه يخت يقل الملكة الأم، وإنما لأنها كانت المدينة التي شهدت أول لقاء يجمع بين "نازلي" وبين "رياض غالي"، السكرتير الثالث بالقنصلية المصرية في مارسيليا! ولم يكن "رياض" سوى شاب مصري من أسيوط، علمه والده "بشاي غالي" – المدرس بإحدى المدارس الثانوية – حتى أكمل تعليمه والتحق بالسلك الدبلوماسي.. ولم يكن الشاب المصري يتوقع مطلقًا، أن يغدو الرجل الثالث في حياة نازلي بعد جلالة "الملك

فؤاد"، وفخامة "أحمد باشا حسنين"، لكن هذا هو ما حدث بالفعل!!

وأصبح "رياض غالي" هو أهم شخصية في حياة الملكة، هو الذي يتلقى مكالماتها التليفونية، هو الذي يحدد مواعيدها، هو الذي يستقبل زوارها، هو الذي يكتب رسائلها، هو الذي يدبر أمورها المالية، هو الذي كانت تصحبه معها الملكة إلى المطاعم والشوارع والمحلات، تستشيره أولًا في كل ما تأكل وكل ما ترتديه من ثياب! وهو أيضًا الإنسان الوحيد الذي يبقى ساهرًا مع الملكة، بعد أن ينام الجميع ليراقصها، أو يحاورها، أو يصغي إليها!! ثم أصبحت هناك ضرورة لأن تكون غرفة "رياض غالي"، هي الغرفة الملاصقة لغرفة "نازلي" في كل فندق تنزل فيه الملكة! لقد أصبح كل شيء تقريبًا في حياة الملكة "نازلي"!

كانت تلك هي "الرحلة" التي أدت إلى ظهور "رياض أفندي غالي"، ليكون أحد "الكومبارس" الذي يقتحم التاريخ، ليهدم سمعة ملكة مصر ويغير حياة الملك فاروق، ومع أن اسمه لم ينشر في أي كتاب أو يرد في أي صحيفة، إلا أنه منذ ربيع عام ١٩٥٠، تناقلت وكالات الأنباء كل حركاته وسكناته وهمساته، وأصبح اسمه ورسمه يحتلان الصفحات الأولى لكل الصحف الأجنبية قبل الصحف العربية.

نعم كانت رحلة الملكة "نازلي" وبصحبتها الأميرتان "فوقية وفتحية" في يونيو عام ١٩٤٦ هي النهاية، نهاية العلاقة بين فاروق وأمه، ونهاية التوازن الذي كان يحمي جزئيات الأسرة الملكية ليحولها إلى فتات، فقد أعلنت الملكة "نازلي" – في أعقاب مشاجرة عنيفة بينها وبين ابنها فاروق–

مغادرتها مصر إلى أوروبا ومعها الأميرتان. وكان سبب هذه المشاجرة إصرار نازلي على إعلان الحداد رسميًا على وفاة "أحمد حسنين باشا"_ زوجها عرفيًا في السر_ والذي مات في حادث سيارة، ليظهر وكأنه حداد على وفاة زوجها الثاني، إلا أن "فاروق" قد أصر على تمزيق صوره والسخرية من ذكراه، ودفن كل ماض كان يجمع بين "أحمد حسنين وأمه"، وخلال هذه الرحلة ظهر هذا الكومبارس "رياض أفندي"، ليجعل الهوة تتسع بين فاروق وأمه، ويوصل علاقتهما إلى مرحلة "اللاعودة"!! فمنذ أن قام هذا "الأفندي" بمرافقة الملكة _كأحد مهامه الدبلوماسية _ حيث كان يعمل بالقنصلية المصرية بباريس، والتصق بها وكأنه قد جاءته الفرصة فاقتنصها، وفي ظل هذه العلاقة كان هناك بالطبع أصدقاء "فاروق"، الذين كانوا دائمًا على استعداد لنشر بعض الشائعات، وقد أرسلوا إليه ليقولوا أنهم رأوا "نازلي والأفندي" يرقصان معًا، وقد استفزت فاروق هذه الأخبار، وكالعادة وثب إلى أسوأ النهايات المحتملة، فأرسل أوامره بنقل "رياض غالي" إلى أبعد مكان في الأرض، وحينما رفض الأفندي طاعة الملك، أصدر فاروق قرارًا نهائيًا بفصله، وهكذا أصبح "الأفندي" موضوعًا للصراع بين ملك عنيد، يخاف أمه ويكرهها، وملكة عنيدة تحب ابنها، وتحتقره دون أن يبذل كل منهما أدنى جهد خارق لاحتواء الموقف!

أما الأفندي فقد فعل ما يفعله كل مسوخ التاريخ ومستلقي الموائد، فقد استفاد من خبرته في التعامل مع الدبلوماسية والنساء، وأدرك أن صاحبة الجلالة "الملكة نازلي" ليست أكثر من امرأة وحيدة، تمتلئ مرارة بسبب عقوق ابنها، وترتعب من برودة الشتاء الزاحف على شبابها، وتعلم

أنها بدون ابنها لا وفر للثروة ولا سطوة للجاه، وأنها تحركها غريزتها التي انطلقت من قمقم "الحرملك"، وأنها مستعدة أن تخسر كل شيء إلا ما بقى من العمر! وبسبب شخصية "الملكة الهستيرية"، وشخصية "فاروق الغاضبة، أدرك "رياض غالي" أنه لا حياة له بدون الملكة فأعطاها ما تريد: طاعة الابن.. إخلاص الصديق.. تهذيب التابع. ولو أن الملك فاروق لم يخطئ في فهم هذه العلاقة، ولو كان على علم بشخصية أمه لخسر هذا "الأفندي"، الحرب من أول جولة ولطرد من فردوس "الحياة الملكية"!!

ولكن فاروق كأنه أخطأ عن عمد، ولقد قالت الملكة نازلي "لمصطفى أمين" فيما بعد: "لو جاءني فاروق، وقال لي أنه لا يثق برياض غالي، وطلب مني أن أطرده لفعلت، ولكن أن يرسل لي من يقول أن "رياض عشيقك"، فهذا يجعلني أتمسك وأصر على بقائه معي! إن هذا الابن العاق لا يفهمني.. لو كان فهم لماذا طردت المربية "قطاوي"، لعرف لماذا أتمسك بصداقة رياض غالي!!".

وقد قصدت الملكة أنها تنشد الإخلاص في تابعيها لا أكثر! وهكذا عينت "نازلي"، "الأفندي" سكرتيرًا خاصًا لها، وبمرتب يتجاوز بكثير ما كان يتقاضاه في وظيفته بالحكومة، واستمرت الرحلة بين "الملكة والأفندي" ولم تعد ولم يعد إلى مصر ثانية!!

ولابدّ أن الملكة "نازلي" كانت تفرك كفيها سرورًا، لأنها استطاعت خلال هذه الرحلة أن تجذب اهتمام فاروق، ومستشاريه تثأر من إهمال ابنها لها؛ فإنها ما تكاد تعلن الانتقال من مكان إلى آخر، حتى يخلق ذلك

أزمه دبلوماسية، ويستأنف وسطاء القاهرة السفر إليها، لكنها لم تستجب أبدًا! حدث ذلك في رحلتها من باريس إلى جينيف، ثم إلى لندن وزادت الأزمة، حينما قررت السفر إلى أمريكا في ذلك الوقت، الذي كانت قضية فلسطين معروضة أمام هيئة الأمم المتحدة، والحقيقة أن الملكة "نازلي" كانت تملك حجتين: حجة قوية ظاهرة، وهي أنها كانت تعاني من آلام المغص الكلوي، بشكل حرج وتوقفت بالفعل إحدى الكليتين عن العمل تقريبًا، وحذرها الأطباء من أنها لن تعيش لأكثر من عامين، إذا لم تجرَ جراحة عاجلة، وكانت عيناها على "مستشفى مايو" بأمريكا، لعلها توهمت أن الخطر الذي يحيط بحياتها، سوف يدفع ابنها لأن يطير إليها، وينهار جبل الثلج القائم في علاقتهما.

أما الحجة الداخلية، فهي أنها قد قررت ألا تترك مصير زواج الأميرتين الباقيتين للملك "فاروق"! فهي تريد لبناتها زواجًا عاطفيًا لا دبلوماسيًا، فما فعله معها الملك "فؤاد"، قد أدى إلى تخريب توازنها النفسي والجسدي كامرأة، واعتقدت أن هذا يحدث داخل جدار كل القصور، فلقد رأت في حياتها كيف يعاملها الرجل العادي، وكيف يعاملها الملك، وهي لا تنسى اليوم، الذي صرخت فيه في رئيس ديوان الملك "أحمد حسنين"، قائلة له: "عاملني كامرأة"، فقال لها أحمد حسنين "إنني أعاملك كملكة". فعادت نازلي لتقول له "طظ في الملكة! إنني أتنازل عن كل شيء لمن يعاملني كامرأة، فقال لها أحمد حسنين:"ولكنك ستطردينني إذا نسيت أنك الملكة"!

ولكل هذه الأسباب غامرت _ ولأول مرة في حياتها _ بركوب الطائرة، وفي منتصف ليلة العاشر من مايو عام ١٩٤٧، هبطت في مطار "هيوستون" وبصحبتها "الأميرتان فوقية وفتحية"، والأفندي!! ومع أن الأنباء كانت تتوالى على القاهرة، بأن الملكة الأم سوف تجرى لها جراحة خطيرة، إلا أن الملك "فاروق" واصل إهماله المتعمد، وشاركت في هذا الإهمال ابنتها الكبرى الإمبراطورة "فوزية"، فاضطرت الأميرتان "فوقية وفتحية" للاتصال بالقاهرة؛ لتقديم تقرير عن الحالة الصحية للملكة الأم، حيثُ اشتدت عليها آلام الكلى، ولم تعد المسكنات التي تتعاطاها كافية لتسكين الألم، ولكن الملك "فاروق" وصله تقرير ثانٍ مفاده "أن الأفندي "رياض غالي"، الذي يجلس بجوار الملكة الوالدة، قد انتهز فرصة آلامها العنيفة ونصحها باستعمال مسكنات حقن "المورفين"، ويسر لها سبل الحصول عليها، ويخشى عليها من الإدمان".

وتوجه بعد ذلك "محمود فهمي النقراشي باشا" رئيس وزراء مصر، الذي كان وقتها يتابع دورة أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة في أمريكا، وتقدم للمستشفى بإعطاء تصريح ملكي بإجراء الجراحة، وقال لها "النقراشي": "إن حضور الملك لك أثناء نظر القضية أمام مجلس الأمن سوف يسحب الأضواء عن القضية"، وبالطبع كان "النقراشي" يعتذر عن عقوق الملك "فاروق" لأمه بدبلوماسية، فقد تبين فيما بعد أن "ناهد رشاد" في نفس الوقت، الذي كانت فيه الملكة "نازلي" في أمريكا، وفي نفس المستشفى كانت موجودة، وفي جناح لصيق بالجناح، الذي تقيم فيه الملكة الأم، وفي غرفة لا تبعد عنها كثيرًا، وكانت تجري عملية جراحية لإزالة بعض

خلايا السرطان من جلد وجهها، وكان في كل يوم تتصل بها القاهرة، ويكون المتحدث الملك "فاروق"، ليطمئن على صحة وصيفة أخته، في الوقت الذي لم يسأل عن نتيجة العملية، التي أجريت لأمه والتي انتهت بإخراج عشرين "٢٠" حصوة من إحدى كليتيها، ونقل عدة لترات من الدم إلى الملكة الأم. وكان من الواضح أن الملك "فاروق" لا يهمل أمه فقط، ولكن يتعمد إهانتها، وكان "فاروق" خشي أن تظن أمه أنه مشغول عنها بسبب أعماله، فأراد أن يؤكد لها أنه قد خلعها من اهتمامه، وكان على الملكة الأم أن تتجرع هذه الإهانة التليفونية اليومية أمام الأطباء والممرضات، حينما يدق ترانك القاهرة في جناح الملكة، فيسأل المتحدث هل هذا الجناح، وعندما يعرف أنه جناح الملكة يقول أنه لا يريده، بل يريد جناح الوصيفة "ناهد رشاد".

وقد لاحظت الملكة "نازلي" أن كل الذين جاءوا إليها، يسألون في حديثهم سطرًا عن صحتها، ثم يحدثونها طويلًا عن عودة الأميرتين "فوقية وفتحية" إلى مصر؛ لأنهما أصبحتا في سن الزواج، فعل ذلك حسن يوسف باشا وكيل الديوان الملكي، وشريف صبري باشا شقيق الملكة "نازلي"، ولكن الملكة بذكائها شعرت أن "فوقية وفتحية" هما مجدافاها في بحر حياتها المقبلة، وبسرعة قدمت تقارير تفيد أنها لابدّ أن تجري عملية جراحية في الكلية الأخرى بعد عدة شهور، ولذلك رفضت العودة للقاهرة إلا بعد تمام الشفاء، وأظهرت القاهرة نيتها الحقيقة باستمرار وجود حسن يوسف باشا، بجوار الملكة نازلي حتى تنتهي فترة النقاهة، وأنها يمكن أن تبقى بمفردها في رعاية السفارة المصرية، على أن تتم عودة الأميرتين "فوقية وفتحية" إلى مصر؛ لأن التفكير في أمر زواجهما وهما يقيمان في الخارج أمر مستحيل،

ورفضت الملكة "نازلي" ذلك بحسم، وشعرت بأن "فاروق" يريد أن يبقيها وحيدة، كشجرة عجوز بلا ورقة خضراء، وهنا صممت على أن تكون حجتها الخفية حجة تدافع عنها حتى الموت، وذلك بأن يتم زواج الأميرتين الباقيتين بمعرفتها، وأن يكون ذلك بالخارج ومن رجلين "طوع أمرها" ورهن إشارتها.

وبسرعة أصبح الأفندي "رياض غالي" أكثر قربًا منها، وانتهز فرصة إيمانها بالسحر والشعوذة، ومواظبتها على استطلاع المستقبل بقراءة الكف، وفتح الفنجان فأصبح مسئولًا عن قسم "الشعوذة" بالحاشية! وتبحرت الملكة "نازلي" في هذه العلوم الخفية، وقادت حياتها بطريقة الملك "فؤاد" العراف قبل كل شيء، وعرفت في هذه الفترة مشعوذًا جزائريًا، اسمه "الشيخ سالم التلمساني"، وآخر أرمني الأصل اسمه "طاهر بك"، وقد استنفد ذلك مبالغ طائلة بالطبع! وهكذا أصبحت الصورة المعتمدة لـ "رياض أفندي غالي" في مخيلة الملكة أقرب ما تكون إلى صورة "راسبوتين الصغير"، وتحولت "نازلي" إلى صورة طبق الأصل للقيصرة الروسية "كاترين الثانية"، إلا أنه يبدو أن "الأفندي"، لم يكن مجرد عفريت يسكن جسد الملكة "نازلي"، بل إنه كان من عتاة الجن، فقد تسلل إلى قلب الأميرة "فتحية"! ولسوء الحظ والدين أيضًا، فقد جعلها تخرج من الإسلام إلى المسيحية من أجل زواجهما!

وقالت نوال السعداوى: نعم أكتب النسوية المصرية

إنها المرأة التي قابلتها سنة ١٩٧٠ بالشورت، وأنا أركض أبحث عن الحب، فكانت أول بوابة رئيسية في الطريق، وكُتب عليها "إأن تحويل المرأة إلى سلعة تباع، وتشترى باسم الزواج، نوع من البغاء المقنع بقناع الشرعية، ويتناقض مع جوهر الشرف ومعناه السامي". ولا زلت أسألها ولكن يبقى دوماً العشق سؤالاً على الشفاه بلا إجابة مريحة، ولكن تبقى لتلك البوابة الأنثوية مكانتها في السؤال؟

هي نوال السعداوي.. فهل هي فؤاده في رواية "الغائب"، التي تخرجت في كلية العلوم، واشتغلت في إحدى الوزارات. بقسم الأبحاث الكيميائية، لكنها لا تحس توافقًا أو حبًا مع هذا العمل، بل مع كل من يحيط بها، ويجعلها ذلك تفقد في كل لحظة آدميتها، ورغبتها في العمل، إن موتها كله وغيابها بلحمها ودمها عن العالم، لن يحدث شيئًا. فما قيمة غيابها يومًا عن الوزارة ؟! إنه فراغ سطر واحد من دفتر الحضور والانصراف .

هي نوال السعداوي، فهل هي النفس المتداخل مع فردوس في رواية "امرأة عند نقطة الصفر"، والتي قالت: وأدركت.. إن فردوس كانت أشجع مني!!

هل نوال السعداوي. هي بهية شاهين، أو دولت في " امرأتان في امرأة أو الخيط".

هل نوال السعداوي، هي بطلة همنجواي في روايته "وداعًا للسلاح" إنها كاترين!!

"فحين يعرض الملازم هنري على حبيبته الزواج، تقول له في ثقة : إننا متزوجان فعلًا.. أن لا أستطيع أن أكون متزوجة أكثر مني الآن؟ فإذا قاطعها استطردت: لا تتكلم وكأن عليك أن تجعل مني امرأة شريفة، أنا امرأة شريفة جدًا ألا تثق في حبك لي، هذا الفهم العميق لحقائق الجنس والحب والشرف.. تفهم نوال السعداوي " فالشرف عند كاترين أن تقيم علاقاتها الاجتماعية – ومنها الجنس – في حرية تامة من الأغلال التقليدية إنها تحب هنري ، وهذا يكفيها لأن تمارس حياتها معه".

اضغط على جرس الشقة رقم ١٨في الدور الخامس. بالجيزة شارع مراد، اضغط على جرس شقتها الجديدة في الدور ال٢٢ بأبراج أغا خان على النيل عند شبرا، وتتكرر الزيارات.

موعد.. ولقاء.. وفنجان شاي.. وسكارين.. وأسئلة وتساؤلات. وتردد.. وإجابات.. وعطش.. وسعال.. واعتراف.. وكوب ماء.. ومغالطات.. وذكاء.. وتداكي.. وكلام.. ودخان.. وقناع.. وأقنعة وتليفون.. وضحكات.. وسيرة.. ورأي.. وصدق.. وكذب.. وريشة وهواجس.. ورسام وظلال.. وكاتب.. وقلم.. وروائي.. وشهرة.. وحوار.. وإبحار.

تستقبلني كإيزيس المصرية – بكابٍ أخضر وحشمة بالغة، اعتدتُ أن أراها تغلق آخر زرار في قميصها عند الرقبة، وبابتسامه محسوبة تقودني إلى غرفة المعيشة – ألاحظ شعرها الأبيض الشهير، الذي يسافر مثل أدبها إلى

كل الدنيا، "على رأي عبد الحليم حافظ ونزار قباني"، أقابل زوجها الثالث د.شريف حتاتة نسمة هادئة، تجمع بين الذوق والأخلاق في جسد. في غرفة المعيشة مكتبة بلاكار بيضاء بطول الحجرة – وبها أكبر عدد من الشلت، وأن جلست تلقين نصائح كثيرة عن استخدامها للجلسة الصحيحة، لأن أشد الآلام – ما كان في الظهر!!

كانت عائدة من السفر – وعرفت أنها على سفر آخر.. وأن شراع مركبها من سنتين على الأقل لم يستقر على ساحل النيل.

أستعد لمحاورة امرأة من برج العقرب ولدت في ٢٧/١٠/؟؟؟؟ فهل فيها صفات جريس كلير، وبابلو بيكاسو، والمطربة صباح مواليد نفس برجها، ورجوت المريخ أن يدخل الزهرة، أقصد ألا تحول الكواكب دون حميمة الحوار!! فأنا رجل من برج الثور.

قلت لها منذ سنة ١٩٧٠ وحتى الآن، وأنا ساقط في هوى ما تكتبين، ولكن منذ " المرأة والجنس" وحتى رواية " الحب في ومن النفط"، لا أشعر إنك وصلت لصيغة نرتاح لها، أن ترتاحين لها في العلاقة بين الرجل والمرأة.

– لقد تعجبت كثيرًا مما كتبته في أحد أعداد مجلة " فصول " عن تجربتك في الكتابة، وعلاقتها بتجربتك الحياتية .

قالت: "في مرحلة ما من تجربتي الحياتية، خلقت الأطفال، وتزوجت حتى الثمالة، أكثر من مرة، ومع ذلك لم أشعر أبدًا بدخول الهواء إلى صدري، بل العكس هو الصحيح".

وقلت: "يزداد اختناق المرأة بازدياد تفانيها في مؤسسة الزواج، هكذا ظهرت لي الحقيقة" .

فماذا نفهم؟!

وقالت: في شهادتي بمجلة فصول أدنت العلاقات الزوجية، التي تمنع المرأة من الإبداع. وأنا ضد الصيغ النهائية للعلاقات الإنسانية، وأنا أجتهد فقط لتحسين الحياة، فأنا لم يفلح معي الزواج السلطاوي، حيث تدمعت السلطات المترابطة على شكل الهرم الأكبر، ووضعتني في فراش الزوجية لم ينجح ذلك – هل لأنه بلا معرفة مسبقة – أو بلا حب – أو لأن به ضغط سلطاوي من البيئة والعادات! ولم ينجح زواج آخر رغم اختياري، حينما وجدت أن المرأة المبدعة تحظى بزوج يكتئب، إذا نجحت، ويسألها عن أفكارها، وأصابني الاختناق من سؤاله – لماذا لم أطبخ وأنا مسروقة ومشدودة للقلم؟ لماذا لم أغسل وأنا أهيم مع وحي الإبداع؟! لم يعجبني هذا النمط، وجاء زواجي من د/ شريف حتاتة، وأنا مرتاحة فيه ولكن لا يعني ذلك توقفي عن تجويده، أو عن الشكل الأجود, فمثلًا أنا سافرت وحدي وتركت د.شريف لمدة طويلة جدل بمفرده! ودائمًا يقال لي هذه العبارة: ما دمتِ تنتقدي النظام الأبوي في الزواج، أو زواج الورقة واعتراف الآخرين فما هو البديل؟! وأقول هذه ليست وظيفتي، ولكنه لا توجد صيغة نهائية – روشتة علاج – نظام كاهنوتي للعلاقة الإنسانية، أو لما بين الرجل والمرأة – وإن وجد أنا ضده – فكيف أضعه؟! فعندي فردوس في امرأة عند نقطة الصفر، عرفت الرجل". وأتمنى أن ترتاح لكل هذه الصيغ للعلاقة، فهي في النهاية: الرجل والمرأة!

قلت لها:"الأنا" عندك واضحة جدًا.. حتى أنك – في كتبك البحثية منها بالذات – تذكري نفسك على عكس ما يقول البحث العلمي من حيادية الباحث، فأنتِ تكثرين من عبارات: جاءت لي وشكت، أو قابلتها وقالت.. بل إنك تجعلين نفسك محورًا للبحث ذاته – لقد تأكد لي ذلك في شهادتك عن تجربة الكتابة، حين قلتِ: " التفاني – على قمة الأعمال التي يقوم بها العبيد التفاني في الآخرين: إفناء الذات – إنكار لكن الإبداع أو الكتابة، هي عكس ذلك تمامًا – إنها إحياء للذات؟!

قالت لي: الشجاعة في أن يضع الإنسان نفسه في البؤرة التي يبحثها – فأنا إذا كنت مقهورة في منزلي، وأريد أن أضرب مثلًا عن قهر النساء، لماذا أبعد؟! لأتحدث عن نفسي؟ فكما تقف لتتحدث عن تجربة الكتابة، وتستفيد الأديبة الناشئة – فلنتحدث عن تجربة الرجل؟! وتجربة القهر وليستفيد الآخرون، فالقارئ هنا يقتنع جدًا – أكثر من إحصاءات وحكايات وأرقام. فأنا ككاتبة وامرأة أخلط دائمًا الخاص بالعام، وهذه ليست مسألة متصلة بالأنا، إنها النرجسية ثم أنه من ميراث العبيد والفراعين، أن تضمر نفسك وتعلي الآخرين، وأنت قابع – لماذا نتحرج من تقدير نفوسنا، أنا لست معقدة بعقدة "ضمور الأنا"، ولكني أعرف أهمية التواضع أيضًا – ولتعرف أن التواضع بعض الوقت لا لكل الوقت، وإلا صعدت النباتات المتسلقة الضعيفة على الأكتاف.

يجب أن يعرف كل قدره. وفي نفس الوقت ليس عندي حساسية لذاتي – ولا أقول إن حياتي مثالية – أو بلا أخطاء – ولكن هي حياتي أعترف وأكشف عنها لنفسي وللآخرين، وهذا اتجاه عالمي الآن في دراسة العلوم

– وعلوم المرأة بالذات – وأنت وأنا والتاريخ والجغرافيا والعلم والفن – في بوتقة واحدة، لتنتقل من عالم العلم المجزأ إلى ما يُسمى " بالمعروفة "!!

وفي كتاب "المرأة هي الأصل" "المرأة والجنس" ولم أتكلم عن نفسي، وإنما أردت أن أقول للمرأة كلنا في الهم سواء – ولذا قلت تعبت مثلك مرتين من الزواج – وليست مرتاحة حتى الآن لهذه الصيغة من العلاقة، ولكن علينا أن نستمر ونحسن ونجود الحياة.

قلت لها : إذن فأنت لا تعتبرين نفسك مثلًا أعلى لأحد – أو بيونير " رائدة " لتحرير المرأة أو شيء من هذا ؟!

قالت:

أنا كاتبة تعبر بصدق عن قضية العدالة والحق في الكون – وتصادف أن المرأة مظلومة، فأنصفها قلمي فلست ضد الرجل – ولكن ضد الظلم – فالرجل إذا ظلم لهذا فقط أكون ضده.

ولا يوجد عندي أنا مثل أعلى – حتى ولا والدي – حتى أكون مثلًا أعلى لأحد، وأعترف لك أنني لم أمر في حياتي بمرحلة الإعجاب بأحد، لا ممثل ولا ممثلة أو راقص أو – لا أحتفظ بصورة أو أحلم أحلام يقظة. .

وعلى فكرة من سيكولوجية "العبيد" تقليد السيد – أو المثل الأعلى – تطلع ممثلة نقلد لبسها – يطلع إعلان تولد عندنا الحاجة معه للسلعة التي يروج لها – يعجبني أحد – ناس كثير عجبوني – ناس كثير ارتحت لهم – ولكن لا أحد نموذجي في الحب والحرب والحياة.

قلت لها: حدثينا عن نفسك كنموذج أنثوي خاص – فريد.

قالت: أشرف – إنك تجرني لأحاديث صالونات ودردشة، وأنا أنأى بنفسي عنها – وأيه نموذج نسائي؟! أنا امرأة تعرف المرأة من طريقة مشيتها، ومن نظرة عيونها ومن لمحات سقطات كلامها القليل، أنا صادقة وغير مجاملة، ولم أعرف في حياتي "البارفان" – وإنما أنا برائحة الماء دومًا – لا مكياج ولا ترهل ولا استسلام ضد أحد – أنا امرأة لا يعرف عنوانها السلطان – أقصد غير قابلة للإغراء أو الإغواء!

سيدتي: لماذا أنت ضد تعدد الزوجات – الرجل لن يسرق المرأة الأخرى، وإنما بإرادتها سيدخلها داره – سيتزوجها بعقد؟!

وقالت: ولماذا أنتم ضد تعدد الأزواج، وهو نظام عرفه التاريخ القديم، حيث كان ينسب الولد لأنه – كما سيحدث "أمام الله" يوم القيامة، وكان ذلك برضاء جماعي! ولماذا نحن ضد "البغاء"، والرجل يذهب ويدفع برضا، "والبغي" راضية أمام الذهب – المسألة ليست "رضا" و "عقد" و "دار".

وبالتالي يكون التعدد نظامًا اقتصاديًا – لا نظامًا انسانيًا – من يملك ذهب؟! له أن يتزوج ويعدد نساء، وإنما الفقير ولا زوجة واحدة، "ده ما معهوش – يبقى ما يلزموش".

لهذا أنا لا أحب الزواج بورقة.

وإنما الزواج "بكلمة الشرف" – إذا قال الرجل أحبك، يتحملها ولا يتهرب من تكور بطن امرأته؛ لأنه يبقى الزواج "بالحب"، ولا يبقى "بالعقد".

ولكن يكون الزواج – مجرد نظام اقتصادي لشراء النساء.

وعلى العموم أنا قلت: إني ضد تعدد "الزوجات"، وليس معنى ذلك إني مع تعدد "الأزواج".

قلت لها: قلت علينا أن ننظر في تراثنا الديني – بنظرة عدل لوضع المرأة، ونظرة حق بالنسبة للجنس والحب ما المعنى؟!

قالت: نعم، طالبت بأن يدخل الدين مناطق الخوف في حياتنا: الحب والجنس والمرأة.

لأن الفصل بين المعلومات مسألة جهالة، حتى في الطب كان يحدث ذلك الفصل بين النفس والجسم، أو الفصل بين المرض والفقر، وقد فصلنا الدين عن هذه المناطق، بل إنني طالبت بالربط بين القهر الجنسي والقهر السياسي والعالمي.

فمثلًا في "تونس"، جعلوا هناك تحديدًا لتعدد الزوجات؛ لأن هناك نص قرآني يربط التعدد بالعدل؛ ويقرر أن العدل أن العدل مستحيل "ولن تعدلوا"، أو أن يحدث اختزال كامل لتدين المرأة في ملابس معينة الحجاب، والنقاب وباقي الأخلاق يا ناس؟! أنا مع التحشم طبعًا، ولكني سافرة فهل أنا كافرة إذن؟! وهل من يلبس الحجاب أو الجلباب، ويقتل الناس هو النموذج المتدين. نظرة تاريخية تجعلنا نؤكد الحجاب والنقاب في أحط قرون التاريخ أخلاقيًا عند اليهود والإغريق، وفي الجاهلية "فلماذا ربطه بالإسلام وحده؟!"، وإنه دليل الأخلاق – المحجبات على عيني وراسي هذه حريتهن – ولكن نحن السافرات، لماذا لا نعامل بنفس المساواة على العين والرأس، والعبرة هي: "محك السقوط نفسه" !!

ثم إن الجنس له أهمية في حياة الرجل، فالرسول – ﷺ – يقول : " والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه، إلا كان الذي في السماء ساخطًا عليها حتى يرضى عنها". فلماذا لا يكن له نفس الأهمية عند المرأة، وكيف نطالب المرأة أن تكون قبل الزواج " كائنًا لا جنسيًا"، وبعد الزواج كائنًا جنسيًا من الدرجة الأولى – ومش عايزة الناس تقول "نوال" عايزاها "ميغة" – أنا بأضع أفكار تحتاج لدراسة!! خاصة وأن المرأة في الإسلام يجوز لها طلب الطلاق، لعدم الإشباع الجنسي، وهناك قضايا معروفة في التاريخ، تقدم فيها نساء يطلبن الطلاق بسبب ذلك "كزوجة رفاعة القرظي"، التي قالت: إنه يعاشرها ولكنها لا تتأجج معه فحكم لها!!

قلت لها: قلت في كتابك "الأنثى هي الأصل" في الإهداء إلى شريف حتاتة أحد الرجال العظماء القلائل، الذين قابلتهم في حياتي، فمن باقي هؤلاء الرجال؟!

قالت: المطلوب أن نحكي تجاربنا وندرسها، لا أن نقول الأسماء والتواريخ، أنا لا أفشي الأسرار ولا أقول ما يحزن الآخرين، ولهذا فأنا لست مع ما فعلته "غادة السمان" مع "غسان كنفاني"، واستغربت جدًا من الكتاب، الذي وضعني أنا وغادة في خانة واحدة من الأدب النسائي، والذي ألفته "مارجو بدران"!!

"كانت الكاتبة الأمريكية مارجو بدران" قد قدمت كتابًا سنة ٩٢، عنوانه " مائة عام من أدب المرأة العربية"، وقسمته لثلاثة أقسام:

الأول: يضم الكتابات التي توضح إدراك المرأة العربية لمعاناتها لفقدانها حقوقها.

الثاني: محوره رفض الأفكار والسلوكيات، التي تسلب المرأة حريتها ككائن انساني، وهو الجزء الذي جعلت فيه نوال السعداوي "*"مع غادة السمان وحنان الشيخ.

الثالث: ويمثل أشكال الكتابة التي تمثل التحرك الإيجابي لتغيير أوضاع المرأة، وجعلت فيه من مصر باحثة البادية، ومي زيادة وأمينة السعيد".

أسألها: سيدتي هل سفرك المتكرر لأمريكا هو بسبب روايتك "سقوط الإمام"، الذي تحدثت فيه عن الإمام؟! وجلعت بطلتها فتاة اسمها بنت الله؟! وما حدث بعد ذلك من ردود أفعال؟! فقد قيل إنك مهددة بالقتل بسبب ذلك، وعين عليك حرس من جانب الدولة ؟!

وقالت: أنا ضد الدولة الدينية – لأن المرأة في الدولة الدينية مضطهدة – ولا يمكن لها أن تقف بالمساواة مع الرجل في الحقوق والواجبات، بالطبع الإسلام أكثر عدلًا مع المرأة من باقي الأديان، ولكن إذا قلنا بالدولة الدينية فهذا يعني إلغاء حركة تحرير المرأة، وإلغاء عمل المرأة؛ لأن الدولة الدينية تسلمنا للكهنوت، الذي سيدعي علمه بكل شيء ليس الدين وحده، ولكن حتى الذرة – فحيث يسود النص ولا يملك إلا البعض حق تفسيره – وبالطبع لا تملك المرأة ذلك، فالنساء وحدهن الذين سيتحملن كل الوزر. وابنة الله في روايتي " سقوط الإمام" تقول هذا: " المرأة وحدها التي تتحمل وزر السفاح والحرام والمجون" – ويجب ألا يفهم

كرهي للدولة الدينية على أنه ضد الإسلام، فأنا لي دراسات في نقاط كثيرة حول الأديان الثلاثة، ولكن حدث أن فسرت الرواية خطأ من جانب بعض المتطرفين، وفعلًا وضعت تحت حراسة الدولة لفترة. ولكني لم أعرف إني مهددة بالقتل، إلا حينما نشرت مجلة الكاتب نشرة بأسماء الكتاب الصحفيين المهددين بالقتل، ووجدت اسمي بينهم – فبالطبع انزعجت، ولكن سفري لأمريكا كان له قصة أخرى– فأنا هناك لأدرس مادة اسمها الإبداع الأدبي عند المرأة، ويسافر معي د.شريف لتدريس نفس المادة، ولكن في مصر – بلدي وابنتي وابني وتاريخي أيضًا.

سألت نوال السعداوي:

– أنتِ طبيبة نفسية وروائية وقصاصة، ترى بأي صفة تفضلين مخاطبتك؟

أنا روائية وقصاصة في المقام الأول، وبعد ذلك يأتي الطب النفسي.أجمل لحظات حياتي، حين أجلس لأكتب قصة أو رواية، أنا أحب الفن وأحب الإبداع، مع أن الطب النفسي يحتاج أيضًا إلى إبداع كبير، ولكن تبقى مساحة الإبداع في الفن، والفكر والكتابة، أكبر من مساحة الإبداع في العمل الاجتماعي أو ممارسة الطب النفسي.

القوانين والقيود على التفكير المبدع في العمل الاجتماعي، أكثر منها في الفنون، في الكتابة الفنية والأدبية، تتجاوز الأديبة أو الكاتبة كل القوانين، وتكون أكبر من كل قيد، وهذا سر من أسرار المتعة التي

تشعر بها كل فنانة خلال عملية الإبداع.

- كم كتابًا قدمت إلى المكتبة العربية؟

لي ثمانية وعشرون كتابًا، من بينها ست دراسات علمية عن المرأة والرجل، والباقي أعمال أدبية تتنوع ما بين الرواية والقصة القصيرة والمسرحية والمذكّرات.

- ما تصورك للعلاقة بين الفن والطفولة؟

الفنان أو الفنانة إنسانة احتفظت بطفولتها، ولم تبتر ذاكرتها الطفولية. الفنانة حياتها سلسلة متصلة من الماضر والحاضر، والمستقبل في منغومة واحدة جميلة، هذه المنغومة تصنع الإبداع. وبسبب التربية الخاطئة القائمة على التخصص الضيق، فإن كثيرين يفقدون بذرة الإبداع، فالإبداع عملية تذكر مستمرة للماضي، في ضوء الحاضر واستشراف رؤى المستقبل، الفنان طفل، والفنانة طفلة تلعب وتتخيل وتكتشف دون حدود أو أجراس.

- وما تصورك للعلاقة بين الفن والجنون ؟

للفنان أو الفنانة نوع خاص من الجنون، وهو الجنون المنتهي بالعقل، المجنون إنسان يكسر الأشياء، ويدمرها ويتجاوز الحدود ثم يقف، أما الفنان فهو بعد التكسير، وتجاوز الحدود قادر على إعادة ترتيب

الأشياء بشكل أكثر حرية وجمالًا، ولهذا فإن الفنان أو الفنانة تصل إلى حافة الجنون ولا تجن، بل تظل عاقلة وأكثر عقلانية من الآخرين، والفنان أكثر الناس عرضةً للجنون، إذا توقف إبداعه، أو فرضت القيود على أعماله.

- هل لكِ عادات معينة تصاحب عملية الإبداع؟

أحبُّ أن أكتب وأنا أتطلع إلى السماء، أو إلى الأشجار، أو أرى منظرًا من الطبيعة الخارجية، لا أستطيع الكتابة وأنا أواجه رفًا أو كتبًا أو جدار، أكتب على ورق غير مسطر، ومن النوع الرخيص، القلم الجاف مريح وأفضله أسود، وأثناء الكتابة لا أشرب شايًا أو قهوة. وعندي كرسي خاص يجعل ضغط الجسم على الساقين، وليس على الظهر، بإمكاني الجلوس لمدة طويلة دون أن أشعر بالزمن أو التعب.

- ما هو أسلوبِك في الكتابة ؟

لكل كاتب أو كاتبة روحها الخاصة، التي يمكن استشفافها عبر السطور. لكن داخل هذه الروح، هناك عدة أساليب، فالموضوع يفرض لغته وأسلوبه.

- يُقال: إن الأديب يكتب في حياته كلها عملًا واحدًا هو العمل الأول، وتأتي الأعمال الأخرى نسخًا معدلة، ما رأيك؟

هذا صحيح إلى حد كبير فالكاتب، أو الكاتبة تضع في عملها الأول أساسيات اهتمامها، وما يشكل همومها وأحلامها، وتضع كذلك بذور اللغة التي تستخدمها. ومع كل عمل لاحق، تختلف الشخصيات، تتنوع الموضوعات وطرق صياغتها بحكم النضج والخبرة. كل هذا في إطار الاهتمام الأساسي الذي ظهر في العمل الأول. فالكاتب أو الكاتبة تحدد في عملها الأول "أرضها" الخاصة ، والأرض تثمر في كل مرة ثمارًا مختلفة.

- وماذا عن وصف أفكاركِ بالتطرف؟

لست متطرفة في أفكاري أنا طبيعية تمامًا، وحماسي للتقدم وللعدل طبيعي، وإن رآني البعض متطرفة، فهذا ليس عيبًا؛ لأن تطرفي هو لحركة الحياة وتجددها وازدهارها، والإنسان الطبيعي قد يبدو متطرفًا؛ لأن الآخرين خاملون زيادة عن اللزوم.

- ما رأيكِ في نفسك كأم وزوجة ؟

اعتقد أنني نجحت في إيجاد أسرة جديدة مبدعة، مزجت بين العلم والفن، لقد ضمنت لابني ولابنتي حرية وأمان النقد، فأنا تربيت على هذه الحرية في التفكير، كنت أسأل أبي عن كل شيء كنت أنقده، وأناقشه وفي حواره معي كان يخاطب عقلي. وعلاقتي بزوجي شريف حتاتة، وهو طبيب وروائي أيضًا، قوامها الاحترام والتعاون في حمل المسئولية.

- ماذا تقدرِين في الرجل؟

أقدر في الرجل إبداعه، فكره المتفتح، احترامه للمرأة، ثقته بنفسه التي تمنعه من استعراض شواربه أو عضلاته، وأقدر الرجل الرقيق الذي لا يخجل من دموعه ومن لحظات ضعفه.

- ما هي الرواية التي قرأتِها حديثًا وأعجبتك؟ والرواية التي قرأتِها في سنٍ مبكر، وما زلتِ تذكرينها؟

رواية "ضوء في أغسطس"، للكاتب الأمريكي الشهير وليم فوكنر، في هذه الرواية استطاع فوكنر أن يشدني منذ البداية، رغم صعوبة القصة كما أنها مكتوبة بشكل فني بديع، فهي على شكل طبقات، وتدريجيًا تكتشف طبقة وراء طبقة من الرواية ومن شخصية البطل، وفي النهاية تكتمل الصورة بشكل مدهش.وفي سني المبكر، أتذكر الأيام لـ " طه حسين".

- هل تحبِين الموسيقى والغناء؟

بالنسبة للموسيقى العربية، أحب الأغنيات القديمة لـ "عبد الوهاب" و" أم كلثوم" و " ليلى مراد" و " أسمهان"، وأحب "سيد درويش" خاصة لحن " زوروني كل سنة مرة".

أحب الاستماع إلى مؤلفات تشايكوفيسكي، موتسارت وباخ

وفيفالدي، وأحب فالساتيوهان شتراوس، وتطربني الموسيقى الإسبانية الأندلسية، وأي توزيع جديد للموسيقى يمزج بين الروح الغربية والشرقية يستهويني ويطربني.

- هل بدايتك السياسية بقرار التحفظ عليك ودخولك السجن في سبتمبر ١٩٨١؟!

أعتقد أني ليس لي علاقة بالسياسة، ولكن السلطة شعرت بي، وحاولت أن أجعلني متلبسة بشيء ضدها، وهو غير صحيح بالمرة، فلا أعرف لماذا دخلت سجن النساء في ١٩٨١، ولا لماذا حقق معي عام ٧٢ بمعرفة أمن الدولة، والحقيقة أن دخول السجن لم أتوقعه حتى في أيام عبد الناصر، وبخاصة أني كنت على خلاف واضح مع وزير الداخلية وقتها "شعراوي جمعة".

فهذا هو السؤال الذي بلا جواب، ولكن جوابه واضح جدًا إنه في ظل حكم الرئيس السادات، تم الإعلان عن تكوين المنابر والأحزاب كبداية قوية، كان يراها لاستعادة المجتمع المصري للديمقراطية المفقودة، والحقيقة إنني صدفت مثل هذه الشعارات، وقلت في نفسي ربما تكون رغبة صحيحة، وعلى ذلك بدأت في حياتي أمارس النقد والكتابة، وحرية الرأي استنادًا إلى هذا الإعلان، فإذا بي أدخل السجن.. ودائمًا كنت أقولها نكته؛ لأنني صدقت الرئيس السادات فدخلت السجن، وأحب أن أؤكد لك أنه رغم هذه الصحوة التي

صاحبت اعتقادي بعودة الديمقراطية، فإنني لم أنضم أبدًا إلى أي حزب أو أي تجمع سياسي، سواء قبل الثورة أو بعدها، فلا اتحاد قومي ولا اتحاد اشتراكي، ولا حزب مصر، ولا أي حزب مؤيد أو معارض، أو وطني أو يسار.

طول عمري أرفض تمامًا الانضمام إلى الأحزاب السياسية وحتى الآن، وهذا نابع من إيماني بعدم الرضا عن أي حزب سياسي. إنني من يوم أن وعيت للحياة السياسية، وأنا من مواليد ١٩٣١ لم أدخل هذا الميدان، ومنذ طفولتي المبكرة وأنا أكتب، فقد كتبت في هذا السن المبكرة رواية بعنوان "مذكرات طفلة اسمها سعاد "، ولكنني بدأت النشر بعد تخرجي في كلية الطب مباشرةً ابتداءً من أعوام ١٩٥٦ و ١٩٥٧ و ١٩٥٨، وعلى أية حال إنني أعتبر نفسي روائية ولست كاتبة سياسية.

وكتاباتي في ميادين المرأة وميدان العلم والكتابة السياسية أعتبرها نوعًا من الفن، لذلك تجدني لم أكتب حتى هذه اللحظة كتبًا سياسية بالمعنى المتعارف عليه.

- كيف استقبلتِ قرار التحفظ في سجن النساء؟

لقد كانت أصعب لحظة في حياتي، هي التي سبقت دخولي الزنزانة، كان المشهد مهيبًا.. مخيفًا، والظلام مساعد على هذه الرهبة، وعندما دار المفتاح في باب الزنزانة ثلاث دورات، دبَّ الصمت في أذني، ومن بعدها دخلت إلى هذا الفراغ السحيق.. أغمضت عيني ثم فتحتها

عددًا من المرات، كانت هناك أشياء تتحرك بالقرب مني، تعرفت على أحد الوجوه تحت الضوء الأصفر، هتفت بسرور: صافيناز.. وتعانقنا.. صحفية وأديبة، لم أكن قد رأيتها منذ سنين طويلة، تغيرت كثيرًا ولم تكن ترتدي الحجاب.

رمقتني عينان من خلال ثقبين في النقاب الأسود، وسألت: من زميلتنا الجديدة؟ ردت صافيناز: الدكتورة نوال السعداوي صاحبة الكتب الخطيرة، الكتب المليئة بالكفر.

رأيت جسمًا يتحرك فوق الدور العلوي لأحد الأسرة، ونهضت من نومها فجأة تهتف: أهلًا نوال.. لقد كانت الدكتورة أمينة رشيد الأستاذة بجامعة القاهرة، وقد التقيت بها عدة مرات في بيتي، وفي بيوت بعض الصديقات.

وفي لحظات دار بيننا حوار حول كتبي التي صدرت، خاصةً وأن بعض الموجودات بالعنبر اتهموني الكفر والإلحاد، وفي وسط هذه المناقشات الحامية، فجأة سمعنا المفتاح يدور في الباب، انفتح باب العنبر ودخلت امرأة ثم انغلق الباب، رأيت وجهها في الضوء الأصفر وهي تقبل نحونا وهتفت بسرور: لطيفة.. إنها الدكتورة لطيفة الزيات.

وتتوالى النقلات.. فقد أدهشتني بمذكراتها عن نفسها، إنها ليست صريحة فقط، إنها تتعرى تنفض المستور والمخبوء، تتوضأ من الماضي وتتطهر للمستقبل، إن عملها يقف على قدم المساواة، إن لم يسابق " أوراق شخصية" للطيفة الزيات.

نوال السعداوي.. لغم موقوت بين ضفتي كتاب اسمه " أوراقي .. حياتي"، أوراق تعري فيها المخبوء في أعماق النفس، تعرى فيها المستور والممنوع بالخوف من الله، أو الأب أو الزوج أو الحب أو الوطن، أوراق كتبتها بعيدًا، في بيت صغير يطل على غابة "ديوك" بولاية نورث كارولينا الأمريكية، اختارت السفر بعد أن اقتلعتها قوى عاتية مثل الأعاصير، تقتلع الناس وتنتزعهم من بيوتهم، لكنه الوطن الذي سافر معها، والقاهرة التي حملتها فوق صدرها على البعد، مثلما حملت أمها في سنواتها الأخيرة، تقول في أوراقها:

إنسان.. أنثى.. شاء حظها ألا تكون بين الموءودات؛ لأن ولادتها جاءت بعد نزول الآية القرآنية الكريمة: "وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت" بزمان، وشاء حظها أيضًا أن تأتي بعد أن استجاب الله لدعوة ستها الحاجة، أن يرزق ابنها السيد أفندي بولد، يرفع رأسه في الدنيا والآخرة، وجاء الطفل الأول ولدًا.

ورغم هذا كانت ستي الحاجة، ترمقني في صمت وتمصمص شفتيها، وتقول: ياريتها كانت ولد، وترفع عمتها يدها إلى السماء وتقول: ربنا قادر على كل شيء، والصغيرة تنزعج، وتتمنى ألا يستجيب الله، ويقلبها ذكرًا مثل شقيقها الأول. من كفر طحلة في القليوبية إلى الإسكندرية إلى منوف والقاهرة، وسجن النساء في القناطر.. ليلة أن جاءوها مسبحين مؤدبين, إلى العالم الواسع، لا تستسلم للقضاء والقدر، ولا ترضى بالقسمة والمكتوب في معركة دائمة مع الحياة، من أجل تحقيق شيء آخر، هربت من الأب والأم

والعريس، هربت إلى القلم ليكون الملاذ الوحيد، ليكون وسيلتها للتصالح مع الماضي والحاضر، تقول: منذ أمسكت بالقلم، وأنا أقاوم التاريخ، أقاوم هذا التزييف في السجلات الرسمية، أود لو أشطب اسم جدي السعداوي من اسمي، وأضع مكانه اسم أمي"زينب"، هي التي علمتني الحروف، أمسكت يدي تحت يدها، وجعلتني أكتب: أ ، ب ، ت .

وقررت ألا أكتب تساؤلاتي، وأتركها تفيض بحيوية إجاباتها، وتمردها حول سيرتها الذاتية، وكتابها " أوراقي.. حياتي".

قالت: الغضب بدأ ينمو في أحشائي منذ أن قالوا لي عن أخي، هو ولد وأنت بنت، وفرقوا بيننا في كل شيء في العيدية، كان يأخذ ٢ مليم وأنا مليمًا واحدًا. وإذا غضبت تقول ستي الحاجة: ربنا قال البنت نص الولد يا عين أمك، ويرمقني أخي الأكبر بعين تلمع بالزهو، هو يسقط في الامتحانات، وانا أنجح وأشتعل في البيت، ولا يخفف من إحباطه إلا أن يرد وبصوت عالٍ: "وللذكر مثل حظ الأنثيين".

-.................................. ؟

سافرت للقاهرة وعمري ١١ سنة، جئت إلى هنا أحمل شنطة دامور وأرتدي بلوفر رخيصًا، لأقيم واضطهد في بيت خالتي، وعرفت كيف أحافظ على عذريتي، وحولي رجال كثيرون، وعرفت أن خالتي طردت الخادمة؛ لأن خالي اعتدى عليها، ولم أنس أبدًا الثقة التي وضعتها أمي في، وهي تقول: ارم نوال في النار ترجع سليمة، وقلت عن ابنتي

نفس الكلمة، ووضعت في مني وعاطف كل الثقة التي زرعتها أمي في داخلي.

-............................... ؟

كنت أستدير أحيانًا وأنا مصلوبة في الترام أو القطار وأصفع واحدًا على وجهه؛ لأنه حاول أن يلتصق بي أكثر من اللازم. لا أعرف من أين واتتني هذه الشجاعة، وأنا طفلة عمرها ١٣ سنة، لكنه غضب الطفولة أقوى وأصدق وأنقى غضب، كيف عاشت هذه الطفلة في أعماقي حتى اليوم ؟.. لا أعرف.

-............................... ؟

لست ساقطة ولا طاهرة، المرأة في نظر الجل عذراء، طاهرة زوجة مطيعة خائفة أو ساقطة ولا وسط بين الاثنين، أنا إنسان، والمرأة الإنسان أرفع شأنًا من الزوجة المطيعة، أو العذراء أو الأم أو الساقطة، ولكنه النظام الأبوي الطبقي الذي يضعنا في أي من الطريقين.

-............................... ؟

ما زال الأدباء ينظرون للمرأة على أنها زوجة مخلصة أو عشيقة فاتنة، مغرمون بالمرأة المتحررة.. حتى القدمين، المرأة تطلب عقولهم، وهم

يطلبون شيئًا آخر، ويصفون النساء اللاتي استطعن أن يرفضن أنفسهم بالجنس الثالث!!

-................................ ؟

عليها أن تسعى للوصول للسلطة حتى تشارك في صنع القرار السياسي.

-................................ ؟

الحركة النسائية ليست عدوة للدين، ولكن عدوة للسياسة.

-................................ ؟

لست شيوعية ولا يمكن تصنيفي سياسيًا، وإلا لوجدت حزب أنتمي إليه أنا نوال السعداوي.

الفهرس